محمود محمد طه

القرآن

ومصطفى محمود والفهم العصري

محمود محمد طه

القرآن

ومصطفى محمود والفهم العصري

الأهـــــداء

الى الذى ظلت البشرية ..

تنتظره

وتترقب ظهوره ..

الى الأنسان !!

ثم .. الى الرجال والنسوان

هل تحلمون به ؟؟

انه فيكم !!

يظهره القرآن ..

بســـــم الله الرحمن الرحيم

« حمـ ۞ والكتاب المبين ۞ انا جعلناه قرآنا عــربيا لعلكم تعقلون ۞ وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم »

صدق الله العظيم

مقدمـــــة :

أخرج الدكتور مصطفى محمود كتابا أسماه : « القرآن ، محاولة لفهم عصرى » طبعته « دار الشروق » ببيروت فى شـــــهر مايو من عام ١٩٧٠ ..

لا ريب عندى أن هذا الكتاب سيؤرخ تحولا فى الفكر الأسلامى فى الشرق العربى ، لا لأنه كتاب جيد ، ولكن لأنه كتاب جــرىء .. وليست الجرأة على الخوض فى أمـــر من أمور الدين بمحمودة على كل حال ، ولكنها ، انما حمدت فى هـــذا المقام ، لأنها تمثل ثورة على الجمود الفكرى ، والعقم العاطفى الذى ضربه ، حـــول الدين ، من يطيب لهم ان يسموا انفسهم رجال الدين .. فلقد جمد هؤلاء الدين ، وحجروه ، فى عصر اتسم بالسيولة ، واحتشد بالحركة ، والحيوية ، والتجديد .. فلم يبق ســبيل الى الانعتاق من أسر جمودهم غــير الثورة .. ولا تملك الثورة ان تعتدل ، وانما هو الشـــطط .. وكذلك كان كتاب الدكتور مصطفى محمود ، شططاً فى طرف التفريط وشططاً فى طرف الأفراط .. وقولا ، فى أدق أمور الدين ، بغير علم ، وانما هى الخواطر الفطيرة ، الفجة ، تسجل تسجيلا ، وترسـل ارســالا .. ولقد نشرت محتويات هذا الكتاب فى مقالات منجمة ، على مدى ثلاثة عشر أسبوعاً ، بمجلة « صباح الخير » الأســـبوعية ، مبتدئة بعدد

الخميس ، اول يناير ، من هذا العام — عام ١٩٧٠ — وكان العنوان الذى جرى تحته النشر : « محاولة لتفسير عصرى للقرآن » وفى أثناء ذلك النشر توجهت الىّ مجلة « الاضواء » السودانية بستة اسئلة ، كان أولها : « هل يملك الدكتور مصطفى محمود مؤهلات المفسر العصرى للقرآن ؟؟ » ولقد نشرت الأجابة بعدد السبت الموافق ١٩٧٠/٤/٤ ، وكان نصها : « مؤهلات المفسر العصرى للقرآن تقوم على أمرين : أن يكون المفسر ملماً الماماً صالحا بحاجة العصر ، وان يكون عالماً علماً وافيا ، ودقيقا ، بحقيقة القرآن ..

فأما حاجة هذا العصر فالى الهداية .. فأن البشرية لم تكن يوماً فى التيه كما هى اليوم .. وسمة هذا العصر هى القلق ، والحيرة ، والأضطراب .. هذا عصر الثورات : الثورة الثقافية ، والثورة الجنسية ، وثورة الشباب ، وكلها دليل على القلق ، والحيرة ، والأضطراب .. هذا عصر « الهيبيز » ..جماعات من الشباب ، من الجنسين ، يزيد عددهم كل يوم ، ويستطير شرهم كل يوم ، حتى لقد عم جميع الأقطار .. يقوم مجتمعهم على الرفض ، فهم قد وجدوا مجتمع الحضارة الغربية ، الآلية ، مجتمع انتاج واستهلاك ، فقد الانسان المعاصر فيه روحه ، وقيمته ، وحريته ، وأستحال الى آلة تنتج وتستهلك ، فرفضوه ، ورفضوا معه كل عرف ، ودين .. وفزعوا الى صور من مجتمعات الغابة ، فهم يلبسون المرقعات ، ويسيرون حفاة ، ويرسلون شعورهم ، ويبيتون على الأرصفة ، والطرقات ، ويستبيحون بينهم من العلائق الجنسية ما ظلت البشرية على صيانته حريصة خلال تاريخها الطويل .. هم يبحثون عن حريتهم ، وعن انسانيتهم ، وعن فرديتهم ، فلا يكادون يجدون غير الضياع ، وغير القلق ، وغير الاضطراب .. فهل عند مصطفى محمود ادراك واسع

لهذه الظاهرة ، واهتمام بها ، وسعى لأيجاد الهداية لها من القرآن بتفسيره العصرى ؟؟

ثم حقيقة القرآن .. ما هى ؟؟ هى العلم المطلق .. وعندما تأذن الله ان يسرع الأنسان فى معرفة المطلق نزله من الأطلاق الى القيد ، فكانت ، فى قمة القيد ، الأشارة ، وفى قاعدة القيد العبارة .. فأما العبارة فهى « الكلمة العربية » .. وأما الأشارة فهى « حرف الهجاء العربى » وأما حقيقة القرآن فهى فوق الأشارة ، وفوق العبارة .. ولقد قال تعالى فى ذلك : « حم ۞ والكتاب المبين ۞ انا جعلناه قرآنا، عربياً ، لعلكم تعقلون ۞ وانه، فى أم الكتاب،لدينا، لعلى حكيم » فأما قوله : « حم » فأشارة .. واما قوله : « والكتاب المبين » فعبارة .. وكذلك قوله : « انا جعلناه قرآنا ، عربياً ، لعلكم تعقلون .. » فأنه عبارة تفيد العلة وراء تقييد المطلق .. وأما قوله : « وانه ، فى أم الكتاب لدينا ، لعلى حكيم .. » فأنما هو عبارة ، تفيد ، بقدر طاقة العبارة ، عن حقيقة القرآن .. وحقيقة القرآن لا تعرف عن طريق القراءة ، وأنما تعرف عن طريق الممارسة فى تقليد المعصوم ، عبادة وسلوكا ، وهو ما سمى ، فى أخريات الأيام ، « بالتصوف » ..

فهل عند مصطفى محمود قدم فى التصوف ؟؟ لا !! ولا كرامة !!

ان ما أسماه الدكتور مصطفى محمود تفسيراً عصرياً للقرآن ليس بتفسير ، على الأطلاق ، وانما هو خواطر .. ولو قد كان للدكتور الفاضل قدم فى التصوف لمنعه الورع ان يخوض فيما خاض فيه من أمر الدين بهذه الخواطر الفطيرة .. ومهما يكن من الأمر ، فأن البشرية اليوم لا تحتاج الى تفسير القرآن ، وانما تحتاج الى « تأويله » .. وليس ههنا مجال الخوض فى هذا الأمر ، وأنما

موعدنا مع القراء الكرام كتاب ، هو الآن تحت الاعداد ، فى الرد على محاولة الدكتور مصطفى محمود لما أسماه بتفسير عصرى للقرآن .. » هذا ما جاء فى الرد على سؤال مجلة « الأضواء » ..

كلا !! فليس للدكتور مصطفى محمود قدم فى التصوف .. بل هو لم يتفق له ان مارسه .. بل هو لا يقدره حق قدره .. بل هو لا يحفظ له بعض ما ينبغى له من الحرمة .. اسمعه وهو يتحدث عن النبى فى صفحة ٢١ فيقول : « ولو كان محمد مؤلفاً لألف فى هاتين السنتين كتاباً كاملا . ولكنه لم يكن اكثر من مستمع أمين يسمع كما تسمع أنت تلك الكلمات ذات الموسيقى العلوية فى لحظة صفاء وجلاء فذهل كما تذهل وصعقت حواسه أمام هذا التركيب الفريد المضىء . » .. فلعمرى ، لقد كان محمد مستمعاً أميناً ، ولم يكن اكثر من ذلك ، اذا أردنا من قولنا هذا ان القرآن من عند الله ، وليس من عند محمد .. فلم يكن لمحمد فيه غير الأستماع ، والاتباع : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه ، وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » ولكنه ، مع ذلك ، لم يكن قد « سمع كما تسمع انت » لأنه كان قد أعد أعداداً فريدا ، انفق فيه خمس عشرة سنة بغار حراء ، يصوم النهار ، ويقوم الليل .. يتحنث ، ويتخضع ويتزلف .. حتى اذا استعد المكان منه لتلقى القرآن كان من اول ما نزل عليه زيادة فى الاعداد برسم طريق الصيام ، والقيام ، فقال تعالى فى ذلك : « يأيها المزمل * قم الليل الا قليلا * نصفه ، أو أنقص منه قليلا * أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا * انا سنلقى عليك قولا ثقيلا * ان ناشئة الليل هى أشد وطأً، وأقوم قيلا ..» .. يقول تبارك وتعالى لنبيه الكريم : « انا سنلقى عليك قولاً ثقيلا » .. فلكأنه يطلب منه الأستعداد لسماعه ، ولمتابعته ، حين يلقى عليه .. والأستعداد لحفظه ، ولفهم ما يفهم منه .. والأستعداد للعمل بما يجب عليه العمل

به منه.. والأستعداد لتبيين ما يجب عليه تبيينه منه لأمته، فى التشريع، وفى التفسير .. وانما يكون ذلك الأستعداد بصيام النهار ، وبقيام الليل « الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه .. » ويحضه على القيام بعد النوم ، ويرغبه فيه ، وذلك بذكر فضائله : « ان ناشئة الليل هى أشد وطأ ، وأقوم قيلا » .. « ان ناشئة الليل » ، القيام بعد النوم ، فى الثلث الأخير من الليل .. « هى أشد وطأ » .. مواطأة القلب للسان فى الأنصات للقرآن فى ساعة يصفو فيها الوقت ، باستعداد القلب للتلقى ، وبسكون الحركة التى تشغل الأذن ، وبتقييد الظلام للنظر الذى يوزع الخاطر .. « واقوم قيلا » يعنى أوضح قولا .. ولقد كانت حياة محمد سمتاً عالياً من الاستعداد الدائب لتلقى المزيد من معانى القرآن : « وقل رب زدنى علماً » فكان صواماً ، قواماً ، ساعياً فى توصيل الخير للناس ، وصادقاً فى حب الخير للناس .. وكان كلما نزل عليه القرآن استعد به لتلقى المزيد منه : « وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة ، وذكرى للمؤمنين » .. وفى موضع آخر : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ، لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا » .. ولقد جعلت هذه الحياة الثرة ، الخصبة ، العريضة ، تجسيداً لمعانى القرآن ، فى الدم واللحم ، فاصبحت مفتاحاً لمغاليق معانيه ، وهادياً فى متاهات غيوبه .. وهذا هو السر فى وضع محمد بيننا وبين الله فى الكلمة التى هى باب الدخول فى حضرة الملة : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » .. وجاء العُبَّاد ، من لدن أصحاب محمد ، والى أشياخ الصوفية ، يترسمون هذه الحياة .. يقلدونها فى السيرة ، وفى العبادة ، ما أسعفهم الوسع ، وما أمكنتهم الطاقة .. وهم يتلقون ، من واردات الفهم عن الله من القرآن ، ما قد جعلت العناية الألهية بهم إتقانهم لتقليد حياة محمد مقدمة له ، ووسيلة اليه ..

فاذا جاء الدكتور مصطفى محمود ، فى آخر الوقت ، ليقلل من كل هذه المجاهدات ، فيختصرها ، فيقول عن محمد : « ولكنه لم يكن اكثر من مستمع أمين ، سمع كما تسمع أنت تلك الكلمات ذات الموسيقى العلوية فى لحظة صفاء وجلاء ، فذهل كما تذهل ، وصعقت حواسه امام هذا التركيب الفريد المضىء » فأنما يدل ذلك على ان هناك خطأ جسيماً ، وأساسياً ، يتورط فيه الدكتور مصطفى محمود فيما يخص امر النبى وسيكون لهذا الخطأ الجسيم سود العواقب على كل ما يكتب الدكتور عن القرآن ، سواء أكتب من بعيد ، أو كتب من قريب .. وأس هـذا الخطأ الأسـاسى الذى يتورط فيه الدكتور انما هو ظنه ان أسرار القرآن تنالها العقول ، ويسبرها الفكر .. والذى عليه من أوتوا بصراً بهذا الأمر هو أن أسرار القرآن من وراء العقول ، وانه لا يشـم شميمها الا من استطاع ان يرفع عن قلبه حجاب الفكر ، وذلك بانتقان العبادة فى تقليد محمد ، فى اسلوب عبادته ، وفيما يتيسر من اسلوب عادته .. ذلك بأن العبادة وسيلة الى الفكر ، وان الفكر وسيلة الى رفع حجاب الفكر ، حيث ينتهى الادراك الشفعى ، الذى أداته العقل ، ويبدأ الأدراك الوترى ، الذى اداته القلب .. ودقائق أسرار القرآن وترية .. وانما الشفعية ، والتعددية ، فى ظواهره ، وحواشيه ..

ان غفلة الدكتور عن هذه الحقيقة هى التى ورطته فى الهلكة التى تورط فيها تورطاً موبقاً ، وذلك بأصدار كتاب يتحدث عن أدق اصول الدين بغير علم .. وهذه الغفلة ليست جديدة على الدكتور مصطفى محمود .. ولقد أتفق لى شرف التنبيه اليها منذ زمن بعيد ، وذلك فى مقال لى نشر فى صحيفة « أنباء السـودان » ، العدد نمرة ١٨٨ ، بتاريخ السبت ، ٧ فبراير ، عام ١٩٥٩ ، على أثر سؤال وردنى من احد الأخوان .. وأحب ،فى هذا الموضع من المقدمة ، أن أورد للقراء

الكرام كل ما جرى يومئذ ، لأنه شديد الدلالة على طبيعة ظن الدكتور مصطفى بأمر الدين ، وأمر القرآن ، من ثم ..

اليكم ما نشرته جريدة « انباء السودان » :ـ

(تعالوا الى كلمة سواء !!

الله والانسان ـ الخوض فى اسرار الكون

عزيزى موسى .. تحية .. وبعد فقد ارسلت الى صحيفة « انباء السودان » الغراء الرد على سؤالك الأول ، وهأنذا أبعث بالرد على سؤالك الثانى .. يسأل السيد م . ع . أ الأخ الكريم مصطفى ابو شرف ما هو آت : « أستاذى .. فقد ألتبس على الامر فى موضوع قرأته فى كتاب « الله والانسان » للكاتب مصطفى محمود ، وقد جاء فى فقرة من فقراته مايلى : ـ « ان الله الذى لا يحترم عقلا صنعه بيديه يغطينى العذر فى الا أعبده » .. ثم يستطرد السائل فيقول : « ويعلل الكاتب حديثه بحجة انه اراد بهذه الجملة تحطيم الحجة التى يلجأ اليها الفقهاء للهرب من الجدل .. حجة ان الدين فوق العقل ، وان الله فوق العقل ، وان العقل عاجز ، قاصر ، عن فض مغاليق الوجود .. ويقول أنه اراد لفت النظر الى ما فى هذه الحجة من تناقض .. فهم، بأساءتهم الى العقل، يسيئون الى أشرف ما صنعه الصانع الذى يعبدونه ، ويفتحون ثغرة نعتذر بها عن عبادته ، ونتمسك بأقوالنا ، ومعنا حجة عليهم ، وليست لهم .. ثم يستطرد السائل فيقول : « اننى عندما أقرأ هذا الحديث ينتابنى الذعر ، وتسيطر على الهواجس ، وارى ان الكاتب ، فى تعليله ، وحديثه ، قد فند كل الحجج ، وتحدى الدين ، ورجاله ، بما فى كلامه من حقائق .. ولكن الله ، فى محكم كتابه يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم » .. ان الله يأمرنا بألا نبحث فى الذات ،

وما وراء الحياة .. واريد أن اسأل : « هل أسرار الكـون ، وماوراء العقل ، يمكن ان تخوض العقول للبحث فيه ؟؟ »

« هذا هو السؤال .. وقد أوردته برمته حتى يرى القارىء مبلغ الأضطراب الذى فى عبارته .. ومهما يكن من أمر ، فأن احداً من الفقهاء ، لم يقل : ان العقل لا كرامة له ، وان الله لا يحترم العقل .. بل ان الفقهاء ليقرأون حديث النبى فى ذلك ، وهو طويل ، ويشير الى ان أول ما خلق الله تعـالى العقل ، وانه ، تبارك وتعـالى ، قال : « ما خلقت خلقاً هو اكرم على من العقـل » .. والفقهاء يعلمون ان التكليف الشرعى والأجتماعى ، الذى بفضـله تميز الأنسـان عن الحيوان ، مداره العقل .. والفقهاء يقولون مع المتنبىء :ـ

لولا العقول لكان أدنى ضيـ * ـغم أدنى الى شرف من الانسـان

فالله ، اذن ، يحترم العقل ، ويكرمه ، والفقهاء يعلمون ذلك بالبداهة .. ومن هـذا العلم البديهى يبدأون .. والا لكان اشـتغالهم بالفقه لغواً باطلا .. فاذا صح هذا ـ وهو صـحيح ـ فليس هناك اذن ما يبرر هذه القولة ، المتحذلقة ، المتعالمة ، الجـوفاء : « ان الله الذى لا يحترم عقلا صنعه بيديه يعطينى العذر فى الا أعبده » ..

ان الامور تلبست على صاحبنا فظن ان العقل لا يكون كريماً على الله ، محترماً عنده ، الا اذا خضع الله ، سـبحانه وتعـالى ، للعقل .. يدركه ، ويحيط به ، ويستنفد معانيه ، ويفك مغاليقه .. فهو ينكر على الفقهاء قولهم : « ان الدين فوق العقل ، وان اللهفوق العقل ، وان العقل عاجز ، قاصر ، عن فض مغاليق الوجود .. » ويرى ان هذا القول لا يستقيم مع احترام العقل ..

ان كل ما عناه الفقهاء هو ان الله لا تحيط به العقول ، وان الدين فوق العقل بمعنى ان العقل اذا عجز عن ادراك اسرار أوامر الدين ، ونواهيه ، فعليه أن يطيع ، وان يصدق ، وان يؤمن بما جاء به الدين ،

لأن اسرار الدين هى حكمة الله ، وحكمة الله كلما ادركت العقـــول طـرفا منها ، غاب عنها طـرف .. ولذلك يقول ، عـــز من قائل : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى .. وما أوتيتم من العلم الا قليلا .. » ..

والعقل ليس صورة ثابتة ، وانما هو نام ، مطرد النمو ، وما لا يدركه ، اليوم ، يدركه غداً .. وســـبيله الى ادراك ما لا يدرك ، اليوم ، التصديق ، وحسن النظر ، واطالة الفكر ، وارتقاب العرفان .. وهذا هو المقصود بقول الفقهاء « الدين فوق العقل » ..

ان الدين هو الانقياد ، والأذعان .. فما لا تذعن له وانت عارف به ، تذعن له وانت مؤمن به .. لأن الله ارسل رســـلا قامت الحجة على صدقهم .. والتصديق بمالا يمتنع عقلا اول مراتب العلم به .. ولذلك كان الاسلام ، فى طرفه القريب ، مجرد تصـــديق ، مع انه فى طرفه البعيد محض علم ..

والعقل يدرك صفات الله ، وافعاله ، بالتصديق به ، اولا .. ثم بطول الروية ، وحسن النظر ، ثانيا .. ولذلك فقد دعانا تعالى للنظر فى مخلوقاته : « قل انظروا ماذا فى الســـموات والأرض !! » ولكنه لا يدرك ذات الله ، فيحيط بها .. وذلك لأن العقل لا يميز الأمور الا بأضدادها .. فلا يعرف النور لولا الظلام ، ولا يعرف الحلو لولا المر .. وليس لذات الله ضد .. « ولم يكن له كفؤاً أحـــد » .. ولصفات الله ضدية ، ولأفعاله ضدية ، فى صفات العباد ، وافعالهم .. وبذلك اصبح ممكنا أن تعرف العقول الله ، ســـبحانه وتعـــالى ، باسمائه ، وصفاته ، وافعاله .. هذا هو الســـبب فى اننا منهيون عن التفكير فى ذات الله ، مأمورون بالتفكير فى مخلوقاته .. هـــل نحن منهيون عن التفكير فيما وراء الحياة ، كما يظن السائل ؟؟ كلا !! بل

نحن مأمورون بالنظر فى كل شىء ، ماعـــدا ذات الله .. ولقد جاء التوحيد فى الدين كوسيلة بها نوحد ذواتنا لنســتطيع ان ندرك ذات الله ، ادراك يقين ، لا ادراك احاطة .. فأن الأحاطة ممتنعة ، لأمتناع الوحدة المطلقة على أى ذات مخلوقة .. فالوحدة المطلقة هى حظ ذات الله وحده .. ولا يعرف الواحد الا الواحد .. ولذلك قيل : « لا يعرف الله ، الا الله .. » وقال النبى ، صلى الله عليه ، وسلم : « لك الحمد كما أنت اهله ، لا أحصى ثناء عليك ، انت كما أثنيت على نفسك » .. « هل اسرار الكون ، ومـــاوراء العقل ، يمكن ان تخوض العقول للبحث فيه ؟؟ »

الجواب نعم !! وهذا هو المطلوب ، فعلا !! غير أن العقول يجب أن تستعين على اجتلاء غوامض الوجود بالمرانة ، وطول الرياضـــة ، والصبر عن نزوات الطبع ، ودواعى الجبلة .. وهذا هو غرض المنهاج الذى اختطه الدين ، ورسمه بأوامره ، ونواهيه .. فأن كنت لا تعرف الحكمة فيما أمرت به ، ونهيت عنه ، وجب عليك التصديق بذلك ، ثم العمل كما أمرت ، حتى يكتسب عقلك القدرة على الخوض فى اسرار الكون ، وحتى يأتيك موعود الله ، فى قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .. وان الله لمع المحسنين .. » ..

ارجو أن يكون قد وضح ان كرامة العقل على الله لا تتنافى مع قول الفقهاء : « ان الدين فوق العقل ، وان الله فوق العقل » .. هذا وسيظل العقل كريماً على الله ما عرف قدر نفسه ، فلم ينف وجود كل شىء عجز عن ادراكه ..)

هذه هى نهاية المقالة التى نشرت فى يوم السبت ٧ فبراير من عام ١٩٥٩ فى الرد على سؤال اثارته عبارة وردت فى كتاب الدكتور مصطفى محمود : « الله والأنسان » ، ولقد كانت تلك العبارة هى قول

الدكتور : « ان الله الذى لا يحترم عقلا صنعه بيديه يعطينى العذر فى الا أعبده » ..

والاعتماد على العقل فى فهم اصول الدين ليس خطأ الدكتور مصطفى محمود وحده ، وأنما هو خطأ شائع قامت عليه معاهد الدين جميعها فى الأوقات الأخيرة ، وآية ذلك أهتمام هذه المعاهد بالتحصيل النظرى لقضايا الدين ، وتقصيرها فى التطبيق ، مع ان القاعدة الدينية فى فهم الأصول قول الله تعالى : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله .. » ، وقول المعصوم : « من عمل بما علم اورثه الله علم مالم يعلم » ..

يعنى من عمل بما علم من الشريعة علمه الله علم مالم يعلم من الحقيقة .. فهذا الدين دين علم ، وعمل بمقتضى العلم .. والعلم الواجب فيه يبدأ بعلم مالا تصح العبادة الا به من امور الشرع ، ويقترن هذا العلم بالعمل ابتغاء العلم اللدنى من الله فيما يخص خفايا اسرار الدين ، واصوله .. يقول تعالى فى ذلك : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .. وان الله لمع المحسنين » ..

والعقل كريم عند الله ، كل الكرامة .. سواء ، أعرف واجبه ، أم لم يعرفه .. وهو حين يعرف واجبه يكون فى مستوى ، وحين يجهل واجبه يكون فى مستوى آخر .. ولذلك فقد قال العارفون : العقل عقلان .. عقل معاش ، وعقل معاد .. فأما عقل المعاش فهو عقل قد أنشغل بالحياة الدنيا ، ووظف نفسه لتحصيلها ، ولم يرتفع الى ما هو أعلى منها .. وهو على صاحبه حجة ، وبه وجبت عليه العقوبة على التقصير عن شأو الفهم السليم .. وفى هذا العقل جاء قوله تعالى : « وقالوا : لوكنا نسمع ، أو نعقل ، ماكنا فى اصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم ، فسحقا لأصحاب السعير » ولقد كانوا يسمعون ، وكانوا يعقلون ، فى امور دنياهم ، ولكنهم لم

يكونوا يعبرون من طرف الدنيا الى بر الآخرة ، وانما كانوا يرتعون كما ترتع السوائم حين تجد المروج الخضر .. وعلم هذه العقول علم لا يغنى غناء ، ولا يفيد فائدة .. وفى هذا العلم قال تعالى : « وعد الله .. لا يخلف الله وعده ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم ، عن الآخرة ، هم غافلون .. » نفى تعالى عنهم العلم، فقال : « لا يعلمون » .. ثم اثبت لهم العلم فقال : « يعلمون » ولكنه ، حين إثبته ، لم يثبته حتى قال : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم ، عن الآخرة ، هـم غافلون .. » فلكأنه علم لا يغنى غناء ، ولا يفيد فائدة ، وانما هـو اقرب الى الضرر منه الى النفع ، وكل « علم ظاهر » ، لا يتعدى الى الباطن مضر .. فهو ، ان لم يفوت اصول الأجور ، يفوت درجات القرب .. وهذا القول ينطبق حتى على العلم بظاهر القرآن .. و « علم الظاهر » هو علم العقول .. فان كان هذا العلم فى امور الآخرة فهو مقصر ، وان كان فى امور الدنيا فهو مفرط .. وفى حالة التقصير تفوت الدرجات ، وفى حالة التفريط تفوت اصول الأجور ، وتحل العقوبات .. ثم ان عـلم العقول ، اذا كان يهتدى بالأيمان ، فأنما هو منزلة من المنازل فى طريق السير نحو علم القلوب .. فعلم العقول ايمان ، وعلم القلوب ايقان ، وبين الأيمـان والأيقان اختلاف درجة .. ومهما يكن من الأمر فأن العقول لا تعلم العلم النافع الا اذا تأدبت بأدب الشريعة ، ثم بأدب الحقيقة .. ففى حالة أدبها بأدب الشريعة فهى فى حـالة عبـادة ، وتلك اول منازل العبودية .. وفى حـالة أدبها بأدب الحقيقة فهى فى حالة عبودية .. وأنما من أجل العبودية خلق الله الخلق .. قال تعالى : « وما خلقت الجن ، والأنس ، الا ليعبدون » ظاهره عبادة ، وباطنه عبودية .. فمن وقف عند الظاهر ، ولم يتعده ، فهو فى خطر من ان يكون عمله باطلا ، وفارغاً من المحتوى .. فأن لم يكن باطلا ، وفارغاً من المحتوى ، فهو

فى الدرجات الدنيا من الثواب ..

هــذه العقــول المــؤدبة بأدب الشــــــــــــريعة ، وأدب الحقيقة ، هى العقول المروضة على الفكر الدقيق ، الذى يدق حتى يلغى وجوده ، ويرفع حجابه ، فيجوز صاحبه من « علم الظاهر » الى « علم الباطن » ، ومن الادراك « الشـــــفعى » ، الى الأدراك « الوترى » ، الذى به يتم العلم بأسرار الألوهية ، وبأصول الدين ، ذلك العلم الذى ظهر قصور الدكتور مصطفى محمود عن شأوه اشد الظهور فى كتابه هذا الذى بين أيدينا ..

ولقد يلاحظ ان اسم هــذا الكتاب كان ، اثناء نشره منجماً فى مجلة « صباح الخير » ، : « محاولة لتفسير عصرى للقرآن » .. فلما لقى الدكتور من المعارضة ما شككه فى الثقة التى كان يأنســـها من نفسه غير أسم الكتاب الى « محاولة لفهم عصرى للقرآن » وهو أسم أكثر تواضعاً من سابقه ، من غير أدنى ريب ، بيد أنه تواضع لا تزينه فضيلة التواضع ، بل انه لتواضع يكشف عن ظاهرة مؤسفة ، وهى ان الأستاذ مصطفى محمود لم يخض فيما خاض فيه من أمر أصول الدين الا برأى فطير ، والا بخواطر فجة ..

وانما بوحى من أسم الكتاب الأول : « محاولة لتفسير عصرى للقرآن » جاء سؤال مجلة « الأضواء » الســـودانية : « هل يملك الدكتور مصطفى محمود مؤهلات المفسر العصرى للقرآن ؟؟ » ولقد أوردت السؤال والأجابة عليه فى هذه المقدمة والذى يهمنى هنا هــو وعد قد قطعته للقراء لأحدثهم عن التأويل وذلك حين قلت : « ومهما يكن من الأمر ، فأن البشرية اليوم لا تحتاج الى تفسير القرآن ، وانما تحتاج الى « تأويله » .. وليس ههنا مجال الخوض فى هذا الأمر ، وانما موعدنا مع القراء الكرام كتاب ، هو الآن تحت الاعــداد ، فى الرد على محاولة الدكتور مصطفى محمود لما أسماه بتفسير عصرى

للقرآن » .. هذا هو الوعد .. ولذلك فأن حديثى التالى سيكون عن « التفسير والتأويل » .. وبأيجاز ، لنفرغ للحديث عن اصل الموضوع ..

التفسير والتأويل

للقرآن تفسير ، وله تأويل ..

وبين التفسير والتأويل اختلاف مقدار ، لا أختلاف نوع .. فالتفسير قاعدة هرم المعانى ، والتأويل قمته .. وتتفاوت المعانى ، بين القاعدة والقمة ، من صور الكثافة الى صور اللطافة .. فلكأن التأويل هو الطرف اللطيف من التفسير ..

وقمة هرم المعانى عند الله ، حيث لا عند ، وفى ذلك قال تعالى : (عن القرآن بين القمة والقاعدة) « حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربياً ، لعلكم تعقلون * وانه ، فى ام الكتاب ، لدينا ، لعلى حكيم » فأن كلمة « لدينا » هنا ، ليست ظرف مكان ،وانما هى للتناهى ، حيث ينتهى الزمان ، والمكان ، وذلك لدى عتبة الذات ، التى لا يحويها الزمان ، ولا المكان .. وبهذا المستوى فأن تأويل القرآن لا يعرفه ، عند التناهى ، الا الله ، وهذا معنى قوله تعالى : « هو الذى انزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن ام الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله .. والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا .. وما يذكر الا أولو الألباب »

ولقد اخطأ قوم فظنوا أن التأويل ، من حيث هو ، لا يعرفه الا الله .. وذلك لا يستقيم ، لأن تنزلات القرآن ، من لدن الذات ، عديدة ، وللعارفين فيها مواضع ، ولا ينقطع حظهم من المعرفة الا عند

حضرة الذات .. فأنه ، فى حضرة الذات ، مبلغ العلم الحيرة .. وفى الحيرة خير كثير .. لأن بها يعرف العقل قدر نفسه .. و « من عرف نفسه فقد عرف ربه » كما قال المعصوم .. وقد اعتصمت الذات العلية عن ان يعرفها أحد معرفة استقصاء ، واحاطة ، لأنها قد تفـــردت بالوحدة المطلقة ، فليست ذات تشابهها ، فتعرفها ، ولذلك فقد قيل : « لا يعرف الله الا الله » .. وانما ، من ههنا ، جاء قوله تبـــارك ، وتعالى : « قل لا يعلم ، من فى السموات والأرض ، الغيب الا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون * بل ادارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون » .. فالغيب هنا ، هو الله ، فى اطلاق ذاته ، فأنه لا يعلمه اهل السموات من الملائكة المقربين ، ولا أهـــل الأرض من علماء الجن والأنس .. بل استغرق علم هؤلاء علم الآخرة .. بل ، حتى هذه ، لم يستقصوها علما ، ولم يحصوها يقينا .. قال تعالى : « بل ادارك علمهم فى الآخـــرة » يعنى اجتمع ، ونفد ، فلم يستقص ، ولم يحط .. « بل هم فى شك منها » لقصور علمهم بها .. « بل هم منها عمون » .. فتلك ثلاث درجات من العلم ، كلها انحصرت فى حضرات التنزلات ، وانحسرت عن حضرة الذات .. وحضرات التنزلات كثيرة ، لا تحصى ، ولكنها جميعاً تنضوى تحت ثلاث ، فأن الذات العلية ، تنزلت من اطلاقها ، وصرافتها ، الى مرتبة الاسم ــ العلم ــ ثم الى مرتبة الصـــفة ــ الارادة ــ ثم الى مرتبة الفعل ــ القدرة ــ .. ومن هذه الثلاث جـــاء خلق المخلوقات ، فحضرة العلم احاطت بالمخلوقات ، وحضرة الارادة خصصت الصـــورة الاولى ، وحضرة القدرة ابرزتها الى الوجود الاول ، وفق تخصيص الارادة ، واحاطة العلم ، ثم باشرت ابراز تعاقب الصور فى نســـق حكيم ، وتسلسل دقيق ، تضبط منازله الارادة الرشـــيدة ، ويوجه خطوه العلم المحيط الى سدة الذات العلية فى علاها .. والسير الى سدة الذات

العلية ، فى علاها ، أنما هو تطور من الكثافة ، الى اللطافة ، أو قل من الجهل ، الى المعرفة .. وذلك هو مقصود الله حين قال ، تعـالى من قائل : « كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون » وهو مقصود المعصوم حين قال : « تخلقوا بأخـلاق الله .. ان ربى على سراط مستقيم » ..

وفى هذا التطور يقول تعالى : « يأيها الأنسان !! انك كادح الى ربك كدحا ، فملاقيه » ولا تكون ملاقاة الأنسان ربه بقطع المسافات ، وانما هى بتقريب الصفات من الصفات ــ تقريب صفات العبد ، من صفات الرب ــ وذلك هو معنى الأمر بالتخلق باخلاق الله ..

أخلاق الله

وأخلاق الله هى القرآن .. وهذا هو معنى قولنا « ان القرآن هو كلام الله » .. هذا مجمل الامر .. ولكن اخلاق الله ، لكى تفهم ، ولكى تقلد ، لابد فى أمرها من التفصيل ، وكذلك كان التفصـــيل فى القرآن .. فالله فى ذاته الساذج لا يعرف ، ولا يسمى ، ولا يوصف ، ولكنه بمحض فضله تنزل من صرافة ذاته ، الى منازل اســمائه ، وصفاته ، وافعاله .. ثم انزل القرآن ليحكى هـذه التنزلات ، لكى يعرفه عباده ، فيسيروا الى عتبة ذاته .. والتنزلات فى جملتها سبع ، تتكرر بغير حساب .. وهذه السبع سميت بالصفات النفسية ، وهى : الحياة ، والعلم ، والارادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .. هذه صفاته ، تبارك ، وتعالى ، وهى ، فى نفس الوقت ، صفات عباده . فأنه قد خلقهم على صورته .. بيد أن صفاته ، تبارك ، وتعالى ، فى مطلق الكمال ، وصفات عباده فى طرف النقص .. ثم هو ارســـل الرسل ، وانزل الكتب ، واوجب الواجبات ، ليســـير عباده اليه ليلاقوه .. ولقد اسلفنا القول بأن الســـير الى الله ليس بقطع

المسافات وانما هو بتقريب الصفات من الصفات ــ تقريب صفات العبد التى هى فى طرف النقص ، الى صفات الرب ، التى هى فى مطلق الكمال ــ وانما جاء القرآن ليعرف بهذه الصفات الألهية حتى تدركها العقول ، وليختط السير الذى به يتم تأديب العقول ، حتى تزيد ادراكاً ، كل حين ، لأفعال الله ، وصفاته ، وأسمائه ، وحتى تقوى على السير فى محاكاتها ، كل حين .. والى ذلك الأشارة بقوله : « وقل رب زدنى علماً » ..

وعن تنزلات القرآن هذه قال تعالى : « وقرآنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا » .. فالقرآن فى مقام الجمع ، والفرقان فى مقام الفرق .. وقوله « فرقناه » تعنى : فرقناه من بعد جمعية ، فعددنا وجوهه .. وتعنى أنزلناه منجماً ، ومفرقاً .. وقوله : « ونزلناه تنزيلا » .. يعنى تنزيلا من بعد تنزيل ، فى مراتب التنزلات السبع ، التى سلفت الأشارة اليها ..

وهذه التنزلات أنما هى تنزلات الذات ، من صرافتها الى مراتب الصفات .. وهذه الصفات اعلاها صفة الحياة ، وادناها صفة الكلام ، وهى مرتبة على هذا النحو : الله حى، وعالم، ومريد، وقادر ، وسميع، وبصير ، ومتكلم..وهوفذلك حى بذاته ، وعالم بذاته ، ومريد بذاته ، وقادر بذاته ، وسميع بذاته ، وبصير بذاته ، ومتكلم بذاته ، لا يقع منه شىء من هذه الصفات بجارحة على نحو ما يقع منا نحن .. فهو ، تعالى ، لا يتكلم بلسان ، ولا يبصر بعين ، ولا يسمع بأذن ، وانما يتكلم بذاته ، ويبصر بذاته ، ويسمع بذاته .. والقرآن العربى الذى هو بين دفتى المصحف الآن هو كلامه تعالى .. قال تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغه مأمنه .. ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »

ولكن يجب ان يكون واضحاً فأن هذا القرآن العربى ليس له

معنى واحد ، هو ما تعطيه اللفظة العربية ، وانما معانيه لا تحصى ، ولا تستنفد .. ولكل حرف منه معنى ، من حيث صفة الحياة ، ومن حيث صفة العلم ، ومن حيث صفة الارادة ، ومن حيث صفة القدرة ، ومن حيث صفة السمع ، ومن حيث صفة البصر ، ومن حيث صفة الكلام .. كل أولئك فى آن معاً .. وهذا معنى القول بأن الله لا يتكلم بجارحة ، وانما يتكلم بذاته .. والذات موصوفة بجميع هذه الصفات ، وفى آن معاً .. والصفة قديمة قدم الذات ، وكل صفة ، أنما هى قائمة بالذات ، وهى ، عند التناهى ، ليست شيئاً غير الذات .. والتناهى المقصود هنا ، ليس تناهى المكان ، ولا تناهى الزمان وانما تناهى العقول فى العرفان ..

والذات انما تنزلت لنفهم عنها ، وهذه العلة فى التنزل هى نفسها العلة فى كلام الله باللغة العربية .. وفى جعل القرآن عربياً .. قال تعالى فى ذلك : « حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » .. فعلة جعله قرآنا عربياً أذن هى : « لعلكم تعقلون » .. وأما حقيقته ، فأنما هى فوق اللغة العربية : « وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » .. و « لدينا » هنا ، كما أسلفنا ، ليست ظرف زمان ، ولا ظرف مكان ، وانما هى للتناهى ، حيث ينعدم الزمان ، والمكان ، وذلك حيث الذات بلا كيفية نعلمها ـ حيث لا حيث ـ وللقرآن ، فى كل منزلة ، من منازل الذات السبع ، معنى يختلف اختلاف مقدار عن سابقه .. ونحن لا نعرف الا طرفاً حتى مما يعطيه ظاهر اللفظ .. وهذا هو ظاهر القرآن ، وهو منطقة الشريعة الظاهرة .. ثم تدق معانى القرآن صعداً ، من مستوى ما يحوى اللفظ من معان ، الى مستوى ما يعطى اللفظ من اشارة .. (الأشارة التى هى فى صور الكلمات) ، الى مستوى ما تعطى الأشارة ، (الأشارة التى هى فى صور الحروف) ،

الى مستوى ما تنقطع العبارة ، والاشارة .. وهذا هـو السر فى أن القرآن افتتح تسعاً وعشرين سورة من سوره بأحرف الهجاء .. وما من مفسر للقرآن يحق له ، كمفسر ، ان يتحدث عن تفسـير الحروف ، لسبب واحد بسيط هو ان معانيها ، خارجة عن مستوى التفسـير ، وداخلة فى منطقة التأويل .. هى قمة هرم المعـانى ، فى حين تكون الكلمات قاعدة هذا الهرم .. ولذلك فأن المفسرين لم يسـعهم ، عند الكلام عن الحروف ، الا ان يقولوا : « الله اعلم بمراده » .. يعنى « ولا يعلم تأويله الا الله » .. ومن خاض فى تفسـيره ، فى معنى الحروف ، من المفسرين ، لم يأت بشىء يحسن السكوت عليه .. ولولا أن المقام هنا لا يتسع لتحدثنا عن الحروف حديثاً مفصلا ، ولكننا انما قصدنا بالحـديث فى هذا الكتاب عن التأويل ان نفى بوعدنا الذى قطعناه لقرائنا ، حين قلنا فى مجلة الأضواء : ان الأنسـانية اليوم لا تحتاج الى تفسير القرآن ، وانما تحتاج الى تأويله .. وفى النية أخراج كتيب عن القرآن بين التفسير والتأويل ، وسـتكون الفرصة يومئذ مواتية للحديث المفصل فى ذلك ، ان شاء الله ..

التأويل

قلنا فى صدر حديثنا هذا : « للقرآن تفسير ، وله تأويل .. وبين التفسير والتأويل اختلاف مقدار لا اختلاف نوع .. فالتفسير قاعدة هرم المعانى ، والتاويل قمته .. وتتفاوت المعانى ، بين القاعدة والقمة ، من صور الكثافة ، الى صور اللطافة .. فلكأن التأويل هو الطـرف اللطيف من التفسير » .. هذا ما قلناه فى صدر هذا الحديث ، ونقول الآن بعد أن عددنا مراتب تنزلات الذات ، وهى عينها تنزلات القرآن ان التفسير يتناول القرآن فيما تعطى ظواهر الكلمات العربية .. وهذا حظ مشـترك ، أو يكاد يكون مشـتركاً بين العارفين .. ثم تتفاوت

حظوظ العارفين من القرآن فى التنزلات ، من منزلة صفة الكلام ، الى منزلة صفة الحياة .. والصورة العامة لهذا التفاوت ما حكته الآية : « وفوق كل ذى علم عليم» ، الى ان ينتهى العلم الى « علام الغيوب » فى معنى الآية : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب ، الا الله » .. والتفاوت بين حظوظ العارفين من القرآن ، انما مجاله التأويل ، وليس مجاله التفسير ، على الأطلاق .. وكلما تسامت المعانى نحو القمة ، كلما قل عدد العارفين ، وكلما قصر تطاول المتطاولين .. ثم يسيرون فى الندرة حتى ينقطعوا .. فأن المجال مجال سير ، وترق غير متناه .. والغاية عند الله ، حيث لا عند .. وذلك مضمار البسير السرمدى ، والترقى السرمدى ، فى الآن ، وفى الأبد ، وفيما بعد الأبد ، من السرمد الذى يخرج عن الزمان ، أو يكاد الى من لا يحويه الزمان ، ولا المكان ..

وعندما يتناهى القرآن الى الذات ، لا يعرفه عارف ، ولن يعرفه .. وما يعرفه ههنا غير الله ، لأنه « لا يعرف الله الا الله » أو ، على غرار الآية السالفة ، : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب ، الا الله » وهذا هو مستوى التأويل ، الذى لا يعلمه الا الله ، ويؤمن به الراسخون فى العلم .. ولقد أشرنا الى خطأ اصحاب التفسير ، حين ظنوا أن التأويل ، من حيث هو ، لا يعلمه الا الله ، وما ينبغى ان يخوض فيه العارفون .. ومثل هذا الخطأ ، قد أنى له أن يصحح ، لينفتح باب التأويل امام العباد المجودين ، فأن فيه حقائق القرآن .. والتأويل ليس هواجس نفس كثيرة الخطرات ، وانما هو واردات عقل تأدب بأدب الشريعة ، ثم بأدب الحقيقة ، حتى باشر حق اليقين .. والتفسير مشمول فى التأويل ، بمعنى ان كل تأويل يجب الا يتجافى مع ظاهر النص ،وكل ما هناك ان الكلمات تنتقل الى دقيق المعانى ، ولطيفها ، بدل غليظها ، وكثيفها ..

وانما فى مضمار التأويل ، وفى أدنى منازله من التفسير ، تجىء معرفة الحكمة ، وراء النصوص ، لأن النصوص ، أنما هى وسيلة الى غاية ، وليست هى غاية فى ذاتها .. وعلى النصـــوص تقوم قوانين التعامل ، وتقوم قواعد الأخلاق .. والدين كله اخلاق ، حتى لقد قال المعصوم : « أنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .. وقال : « حسن الخلق خلق الله الأعظم » .. وما القرآن الا كتاب أخلاق .. والكلمة : « لا اله الا الله » التى هى خـير ما جاء به القرآن ، انما هى مطالبة بالتخلق بتوحيد القوى المودعة فى البنية البشرية ــ العقل ، والقلب ، والجسد ــ ولقد قلنا مراراً أن التوحيد صفة الموحد (بكسر الحاء) ، وليس هو صفة الموحد ، وسيجىء ذكر ذلك عند الحديث فى هذا الكتاب عن « لا اله الا الله » .

والقانون والأخلاق شىء واحـد فليس الأختلاف بين القانون والأخلاق اختلاف نوع ، وانما هو اختلاف مقدار .. فالقانون قاعدة الأخلاق .. والقانون يتطور من قاعدة كثيفة نحو قمة لطيفة، هذه القمة هى الأخلاق .. وكل قانون لا يتطور فهو ميت .. وكل قانون ، حين يتطور ، انما يتطور بأستلهام قضـــايا كانت قبلا فى منطقة الأخلاق ليجعلها ضمن قواعده هو ، وهـــذا العمل لا يتم الا حين نعرف نحن دقائق معانى النصوص ، ونعرف تأويل الظاهر .. واصل التأويل هو تفســير مايؤول اليه الشىء ، أى ما يرجع اليه الشىء .. وقول الله تعالى : « وأوفوا الكيل ، اذا كلتم ، وزنوا بالقســطاس المستقيم ، ذلك خير ، وأحسن تأويلا » يعنى أحسن عاقبة ، ومآلا ، ومرجعاً .. ولما كانت عاقبة الأمور جميعها الى الله ، اصبح التأويل هو معرفة الله فى تنزلاته فى مراتب القرب من العباد ليعرفوه ، حتى اذا انتهى الأمر فى عروجه الى الذات انبهمت السبل ، وظهر العجز ، ووقعت الحيرة ، وجاء معنى قوله تعالى : « ولا يعلم تأويله الا الله » ..

وبمعرفتنا للتأويل نطـــور القاعدة ، وهى الشريعة ، ونطور القمة ، وهى الأخلاق ، ويرتقى بذلك مســـتوى الجماعة ، ويرتقى مستوى الأفراد •• والسير انما هو سير من المحدود الى الأطلاق •• وليس فى مثل هذا الســـير مجال للتوقف عن الترقى فى الاطـــوار •• والقاعدة المثلى هى قوله ، تبارك ، وتعالى ، عن نفسه « كل يوم هو فى شأن » •• وهذه فى حق العبد ان يكون فى كل لحظة جديدة ، جديداً فى فكره ، جديداً فى شعوره ••

الأصـــــول والفروع

ومن معرفة التأويل تجىء معرفة أصول القرآن ، وفروعه ، من الآيات المكية ، والآيات المدنية ، وكيف أن آيات الأصول هى المقصودة بالأصالة، وآيات الفروع هى المقصودة بالحوالة•• ومعنى هذا ان الناس، لما لم يستطيعوا التكليف فى مستوى الأصول نزل بهم الى مســـتوى ما يستطيعون ، فكانت آيات الفروع •• وآيات الاصول هى الآيات المكية ، وآيات الفروع هى الآيات المدنية •• ولقـــد أعتبرت آيات الأصول يومئذ منسوخة •• واعتبرت آيات الفروع صاحبة الوقت •• وما نسخ آيات الأصول ، يومئذ ، الا ارجاء لها ليوم يجىء فيه وقتها ، وذلك حين تستعد البشرية لتطبيقها •• ولقد تحـــدثنا عن كل اولئك بتفصيل واف فى كتابنا « الرسالة الثانية من الاسلام » •• فليراجع فى موضعه •• فان فيه يظهر ما اردناه ، حين قلنا فى مجلة الأضـــواء فى الرد على سؤالها عن مؤهلات الدكتور مصطفى محمود ، ان البشرية اليوم لا تحتاج الى تفسير جديد للقرآن ، وانما تحتاج الى التأويل •• هذا ولنا الى « القرآن بين التفسير والتأويل » عودة ان شـــاء الله ، كما وعدنا آنفا ••

الفصـــــــل الأول

لا اله الا الله

ليس هذا أول فصول الكتاب ، ولكنه الفصل قبل الأخير ، ونحن انما قدمناه ، فجعلناه أول فصول الرد على الدكتور مصطفى ، لأنه فصل مخصص للحديث عن الكلمة ، « لا اله الا الله » .. وهـذه هى كلمة التقوى ، وانما يجيء اتقانه لباقى الفصول بســـبيل من اتقانه لهذا الفصل ، وانما يجيء اتقانه لهذا الفصل بسبيل من اتقانه للتقوى .. والتقوى علم ، وعمل بمقتضى العلم .. فهى ، فى أول الطريق ، علم بالشريعة ، وعمل فى العبادة .. وهى ، فى وســط الطريق ، علم بالحقيقة ، وعمل فى تصحيح العبودية .. وهى ، فى أخريات الطريق ، فناء عن العلم ، وبقاء بالحياة ــ الحياة الحية ، الواسعة ، الرغيدة ــ حياة الله ، التى تنزهت عن ان تؤوفها آفة ، أو ينقصها منقص ..

و « لا اله الا الله » هى هادية التوحيد .. والتوحيد هو العلم اللدنى ، الذى يؤخذ من الله مكافحة .. فهو لا يعلمنا اياه النبى ، الا فى معنى انه فاتح بابه ، وقدوة الســـلوك اليه .. ولقد قال النبى فى ذلك : « أنما أنا قاســم ، والله يعطى ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين .. ولا تزال هذه الامة قائمة على امر الله ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى يجيء أمر الله . » اراد بقوله « انما انا قاسم » انه معلم الشريعة ، ومعلم الطريقة ، وقدوة السلوك .. واراد بقوله : « والله يعطى » ان الله هو الذى يعلم حقائق الدين ، لا أنا .. وهذا هو معنى قوله تعالى : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » ..

والتوحيد عــلم ذوق ، فهو لا يدرك بالقـــراءة .. ومعنى « علم ذوق » انه انما يجيء عن طريق الممارســـة ، والتجربة فى العبادة .. فمن التمسه عن غير هذا الطريق سقط على الدعاوى ،

وتخبط فى متاهات الجهل .. ونحن نتهم الدكتور مصطفى محمود بأنه اعتمد على القراءة فى تحصيله للتوحيد .. وليس معنى هذا ان الدكتور لا يعبد ، ولكن معناه انه لم يتقن العبادة حتى يدخل بها مداخل العبودية ، اذ ليست مرحلة العبادة مرحلة تذوق الحقيقة ، وانما هى مرحلة اعداد لهذا التذوق .. هى مرحلة عقيدة ، فى حين ان مرحلة تذوق الحقيقة مرحلة علم .. ولا يستقيم الحديث لمتحدث عن اصول الدين قبل اتقانه مرحلة العلم هذه .. ذلك بأن الأسلام يقع على مرحلتين : مرحلة الأيمان ، ومرحلة الايقان ... فأما مرحلة الأيمان فلها ثلاث درجات : الأسلام ، ثم الايمان ، ثم الأحسان .. واما مرحلة الأيقان فلها ثلاث درجات ، ايضا : علم اليقين ، ثم علم عين اليقين ، ثم علم حق اليقين ، وبعد حق اليقين يجىء الأسلام ، الذى هو دين الله ، الذى لا يقبل غيره .. قال تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » .. وقال تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » ولا يشم أحد شميم معرفة اصول الدين قبل ان ينزل أدنى منازل الأيقان ، وهى منزلة علم اليقين ..

فمرحلة الأيمان مرحلة عقيدة ، ومرحلة الأيقان مرحلة علم .. ويتضح من كلام الدكتور مصطفى انه لم ينزل هذه المنزلة .. وخير ما يكشف لنا ذلك منه حديثه عن هذا الفصل ، « لا اله الا الله » .. ثم حديثه عن الفصل الذى يليه ، وعنوانه « مخيرأم مسير » .. فلنأخذ فى استعراض حديثه عن « لا اله الا الله » .. وأول الدلائل على ان الدكتور مصطفى لم يرح رائحة اليقين قوله من صفحة ٢٤٠ : « لا اله الا الله .. اذن لا معبود الا الله ..

« ولن يعبد بعضنا بعضا .. ولن يتخذ بعضنا بعضاً اربابا ولن نقتتل على شىء وقد ادركنا أنه لا شىء هناك ..

« ولن يأخذنا الغرور وقد ادركنا اننا خيالات ظل تموج على صفحة الماء ..

« ولن نفرح بثراء ولن نحزن لفقر ولن نتردد أمام تضحية ولن نجزع أمام مصيبة فقد أدركنا ان كل هذه حالات عابرة ..

« وسوف تلهمنا هذه الحقيقة ان نصبر على أشد الآلام .. فهى آلام زائلة شأنها شأن المسرات ..

«لن نخاف الموت .

وكيف يخاف ميت من الموت ؟؟ »

انتهى حديث الدكتور مصطفى .. وأنت ، حين تقرأه ، يخيل اليك انه يمكنك تحصيل هذا الادراك فى جلسة واحدة ، أو فى أيام قلائل ، بعدها تملك الصبر على « أشد الآلام » ..

وما هو هذا الادراك ؟؟ هو ادراكنا « اننا خيالات ظل تموج على صـــفحة الماء » !! وهل نحن حقاً خيالات ظل ؟؟ ام هل نحن خلائف الله فى الأرض ؟ ؟

و « لن نخاف الموت » يقـــول الدكتور ، ثم يردف : « وكيف يخاف ميت من الموت ؟؟ » فهل رأيت كيف يرى الدكتور انتصارنا على الخوف من المـوت ؟؟ هو يراه فى اليأس من الحياة ، وفى اليأس من القدرة على الفرار من الموت .. « وكيف يخاف ميت من الموت ؟؟ » .. والحق غير ذلك .. فأن انتصارنا على الخوف من الموت انما يجىء من اطلاعنا على حقيقة الموت ، ومن استيقاننا ان الموت ، فى الحقيقة ، انما هو ميلاد فى حيز جديد، تكون فيه حياتنا اكمل، وأتم ، وذلك لقربنا من ربنا .. وبالمـوت تكون فرحتنا ، حين نعلم ان به نهاية كربنا ، وشرنا ، وألمنا .. قال تعالى عنه : « لقد كنت فى غفلة من هـــذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد » .. وانما بالبصر الحديد ترى المشاكل بوضوح ، وتواجه بتصميم ..

وعندما أشتدت بالنبى غصة الاحتضار ، وقالت السيدة فاطمة البتول : « واكرباه لكربك يا أبى !! » أجابها المعصـــوم : « لا كرب على ابيك بعد اليوم » .. وقد سمى الله ، تبارك ، وتعالى ، الموت « اليقين » فقال : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » و « اليقين » ، ايضا ، العلم الذى لا يكاد يكون فيه شك ، والذى به تتكشـــف الحقائق المستورة وراء الظواهر .. وانما سمى الموت اليقين لأن به اليقين ، ولأن به يتم اليقين الذى يكون قد بدأ هنا عند العارفين ، وانما يكون بدؤه بالموت المعنوى الذى هو نتيجة العبادة المجودة .. وعن هذا الموت المعنوى قال المعصوم « موتوا قبل ان تموتوا » .. وقال عن ابى بكر الصديق : « من سره ان ينظر الى ميت يمشى فى الناس فلينظر الى ابى بكر » هذا هو اليقين الذى باطلاعنا عليه ، لا نتحرر من خوف الموت فحسب ، وانما به قد يكون الموت أحب غائب الينا ..

وما هو الادراك الذى به توصل الدكتور الى مثل هـــذا القول الذى قاله : « وكيف يخاف ميت من الموت ؟؟ » ؟؟

انه من غير شك الادراك الذى تعطيه العقول لحقيقة الموت ــ الادراك الذى يعطيه النظر ــ وهو ادراك قاصر ، ومخيف .. فان الموت ، كما يعطيه النظر العقلى ، هو ، عند اكثر الناس ، نهاية ، به تنقطع الحياة ، وتسكن الحركة ، ويتصلب البدن ، ويعود الى تحلل ، ونتن ، ويستحيل الى تراب .. الم يقل الدكتور نفسه فى صفحة ٢٣٧: « أين كل هذا ؟ تحت الردم .. انتهى .. اصبح ترابا .. كان حلما فى مخيلة الزمان وغداً نصبح ، انا وانت ، تحت الردم .. » ان هذا هو الموت كما يعطيه نظر العقول غير المرتاضـــة ، ولكن الموت ، كما تعطيه حقائق القلوب السليمة ، والعقول الصافية ، فهو شىء يختلف اختلافا كبيراً .. ولا عبرة بالعقول غير المرتاضـــة بأدب القرآن فان علمها ليس بعلم ، لأنه يقف عند الظاهـــر ، ولا يتعداه الى بواطن

الامور •• وقد قال تعالى فى ذلك : « وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون ❋ يعلمون ظاهــراً من الحياة الدنيا ، وهم ، عن الآخـــــرة ، هم غافلون » فهم لا يعلمون اللباب ، وانما يعلمون القشور ، « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » ولا يكون بعلم القشور تحرير من الخوف •• هذا هو مبلغ علم الدكتور ، وهو به يظن انه « لن يخاف الموت •• » ويقول ، فيما يشبه البداهة ، « وكيف يخاف ميت من الموت ؟ » ألا ترى انك قد هونت صعباً ، وأرخصت عزيزاً ؟؟ أنى لأرجو أن تحدث مراجعة لأمرك هذا ••

المعبـــــود بحق

« لا اله الا الله •• اذن لا معبود الا الله » هذا قول الدكتور ، وهو قول منقول ومأثور باضافة كلمة « بحق » بعد كلمة معبود وقد كان صحيحاً فى مرحلة عبادة الاصنام ــ مرحلة الشرك الغليظ ــ أما الآن وقد انتقل الشرك الغليظ الى الشرك الخفى فقد تطــور مفهوم « لا اله الا الله » ولم يعد : « لا معبود بحق الا الله » وانما اصبح معناها لا فاعل لصغير الاشياء وكبيرها الا الله •• الفاعل واحـــــد للكبيرة وللصغيرة ، وذلك ان الأله هو تنزل الله الى مرتبة الفعل •• فالتنزلات ثلاث : الى مرتبة الأسم ــ الله ــ والى مرتبة الصفة ــ الأحد ــ والى مرتبة الفعل ــ الواحد ــ والواحد دائما صفة الاله •• وحيث وردت صفة « لله » فانما هى الله فى مرتبة الفعل مثل قــوله تعالى : « أأرباب متفرقون خير ام الله الواحـــد القهار ؟؟ » أو •• « قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » أو « لمن الملك اليوم ؟؟ لله الواحد القهار » ووصف الاله « بالواحديه » هو ما عليه الأمر فى ساير القرآن ، ومن أمثلة ذلك : « ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا !! خيراً لكم •• انما الله اله واحد ســـــــبحانه ان يكون له ولد ، له ما فى

السموات ، وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » أو قوله : « الهكم اله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخـــرة قلوبهم منكرة ، وهـــم مستكبرون » أو مثل قوله : « وقال الله : لا تتخذوا الهين ، اثنين ، انما هو اله واحد ، فأياى فارهبون » ..

وذلك ان الناس لم ينكروا الله ، وانما انكروا الأله .. يعنى انكروا ان يكون الله هو الفاعل لكل الأشياء ، كبيرها ، وصغيرها .. فأما الأفعـــال الكبيرة فقد فعلها الله .. يعترف بذلك كل الناس .. واما الأفعال الصغيرة التى لهم فيها وهم مشاركة فهم ينســـبونها للمخلوقات ، ويذهلون عن الله .. قال تعالى فى ذلك : « ولئن سألتهم من خلق السموات ، والأرض ، وسخر الشمس ، والقمـــر ؟؟ ليقولن الله .. فأنى يؤفكون ؟؟ * الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، ان الله بكل شىء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الأرض من بعد موتها ؟؟ ليقولن الله .. قل الحمـــد لله ، بل اكثرهم لا يعقلون * وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .. قوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ؟؟ ليقولن الله » يعنى لئن سألت المشركين عن ذلك يقولون « الله » لأن هـــذه الأعمال الكبيرة لا يقع لهم فيها وهم مشاركة ، لعظمتها وجلال قدرها ، وظهـــور عجزهم ، وعجز المخلوقات الأخـــرى عن الأتيان بمثلها .. ثم قال « فأنى يؤفكون ؟؟ »

فكأنه قال فكيف يصرفون عن حقيقة هذا التوحيد عندما تدخل فى الاعتبار الأعمال الصغيرة التى تتعلق بالرزق مثلا ؟؟ فكأنه قال ان تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟؟ يقولوا الله .. وأن تسألهم : من يرزقكم ؟؟ يقولوا : كدنا ، واجتهادنا .. وههنا يقع منهم الشرك ..

وكذلك فقد أردف قوله السابق بقوله تعالى : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، ان الله بكل شيء عليم » فكأنه قال : ان الرازق للعباد ، وان خالق السموات ، والأرض ، هو واحد .. ثم هو لتوضيح كل ذلك ذهب ليقرب الأمر للعقول فقال : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟؟ ليقولن الله .. قل الحمد لله ، بل اكثرهم لا يعقلون » فههنا أشـــارة لطيفة للشرك فى أمر الرزق فى الزراعة .. فكأنهم يعتقدون ، أو يكادون يعتقدون ، ان عمل الله وقف عند هذا الحـــد ، وبدأ عملهم هم فى بذر الحب ، وتعهده بالنظافة ، والعناية ، حتى يبلغ حصاده ، فيصبح رزقا ناجزاً .. ولتوضيح هذا الخطأ يجيء القرآن فى موضع آخر ليقول : « افرأيتم ما تحرثون ؟ ❊ أ أنتم تزرعونه ، أم نحن الزارعون ؟؟ ❊ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ❊ انا لمغرمون ❊بل نحن محرومون » فيستخدم كلمات اللغة أتم استخدام باستعمال كلمة « حرث » لما يخص عمل « الزارع » ثم استعمال كلمة « زرع » لما يخص الله من فعل « الأنبات » .. ثم تجيء الآيات الباقيات لتزيد توضيح الفعل الألهى الدقيق الذى يتدخل فى أمر الرزق بصورة تجعل اللجوء اليه فى كل كبيرة وصغيرة من أوليات العلم ..

ولأهمية ترسيخ وحدة الفاعل فى أخلاد السالكين يقول تعالى : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وأياكم .. وهو السميع العليم ❊ ولئن سألتهم من خلق السموات ، والأرض ، وســـخر الشمس والقمر ؟؟ ليقولن الله .. فأنى يؤفكون ؟؟ ❊ الله يبســط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له .. ان الله بكل شيء عليم » فيحف الآية ذات الدلالة الدامغة على وحدة الفاعل وهى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؛ وسخر الشـــمس والقمر ؟؟ ليقولن الله .. فأنى يؤفكون ؟؟ » بآيتين : قبلها ، وبعدها ، كليهما فى

امر الرزق ، فيقول فى الآية التى سبقتها « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها واياكم .. وهو السميع العليم » وهذه اشـــارة الى ان الحيلة فى تدبير الرزق ليست هى سبب الرزق ، وان الله يرزق من يدبر ، ومن لا يدبر ، لأن الله هو سبب الرزق .. « الله يرزقها واياكم » ... ثم يقول فى الآية التى لحقتها « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقـــدر له .. ان الله بكل شىء عليم » فلم تغادر شيئا من وهم الواهمين الا جلته .. فان حدثتك نفسك بان الضرورى ، والكفاف من الرزق مضمون بلا تدبير ، ولكن لتوسعة الرزق لابد من سعة الحيلة ، فأعلم ان « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له » وهو ، فى هذا ، أو ذاك ، أعلم بما يصلح عباده « ان الله بكل شىء عليم » ..

ان الشرك الغليظ قد انتهى لغير عودة .. ولم يبق الا الشرك الخفى ، ولا نهاية لهذا ، فأنه يدق ، ولا ينقطع ، ولا ينتهى .. وكل الشرك سببه الرزق .. فانا نتهم الله سبحانه ، وتعالى ، عن ظنون جهالاتنا .. قال المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، ولعلمتم العلم الذى لا جهل بعده .. وما علم ذلك أحد !! قالوا : ولا انت ؟ قال : ولا انا !! قالوا : ماكنا نظن الأنبياء تقصر عن شىء !! قال : ان الله أجل ، واخطر ، من ان يحيط بما عنده احد » ومعنى هذا ان النبى ، على جلال قدره ، وكمال معرفته بربه وحسن توكله ، وتمام عناية ربه به ، حتى انه لقد قال : « أنى لست كأحدكم ، فأنى أبيت عند ربى يطعمنى ، ويســـقينى !! » . مع كل اولئك لم يكن ليستطيع ان يتوكل على الله حق توكله .. وهناك حديث فى امر الرزق ، وامر التوحيد ، يقول فيه المعصوم : « لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله ، ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم ، فاذا فعلوا ثم قالوها ، قال الله : كذبتم ، لستم بها صـــادقين » ..

« يبالوا ما نقص من دنياهم » قد تعنى حركة الخاطر بالاعتراض ، أو بالسخط على امر تتمنى النفس ان لم يكن قد كان .. وهذا من ادق الأشياء ، ولا يستقيم لأحد الخلاص منه ، بالغاً ما بلغ من صـــدق اليقين ، ومن تمام الرضا .. فان الله، جل، وعلا ، وتنزه عن أن يرضى به عبد كل الرضا ..

الكلمة الطيبة

و« لا اله الا الله » هى الكلمة الطيبة التى قال تعالى عنها .. « الم تر كيف ضرب الله مثلا : كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت ، وفرعها فى الســماء * تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها ؟؟ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ومعنى ان أصلها ثابت انها قيلت فى الأرض بلسان الحال ، وبلسان المقال .. قيلت بلسان الحال من كل ذرارى الأرض ، منذ خلق الله الأرض .. وقيلت بلســان المقال ، بالاضافة الى لسان الحال ، منذ ارسل الله الرسل لهداية الخلق .. وقد قال المعصوم « خير ما جئت به انا ، والنبيون من قبلى ، لا اله الا الله » .. ومعنى ان « فرعها فى السماء » ان موضع الثمر منها فى السماء ، وذلك عند الله ، حيث لا عند .. والعبارة « بالســـماء » ليست للمكان ، وانما لتناهى السمو .. وقد وردت العبارة عن ذلك بقوله تعالى : « شهد الله انه لا اله الا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائما بالقسط ، لا اله الا هو ، العزيز الحكيم » ..قوله «شهد الله انه لا اله الا هو » يعنى شهادته بذاته ، لذاته ، فى اطلاقه .. وشـــهد الملائكة فى السموات والأرض : وشهد اولو العلم فى الأرض : انه « لا اله الا هو » .. وقوله « قائما بالقســـط » أفاد مرتبة الفعل ، لأن القيام بالقســـط انما يعنى الحكمة ، والحكمة لا تظهر فى شىء ما تظهر فى الفعل .. وقد جاء بالفاصـــلة « العزيز الحكيم » ليفيد

الفعل .. فان « العزيز » الذى لا يغـلب .. و « الحكيم » الذى يعطى كل ذى حق حقه ، ويضع الأشياء فى موضعها الصحيح .. ولا تظهر غلبة العزيز ، ولا تظهر حكمة الحكيم فى شىء ما تظهر فى الفعل .. ولقد شهد الله لنفسه بالتوحيد ، وشهد الملائكة ، وشهد أولو العلم .. شهد الله فى اطلاقه ، كما قلنا ، وشهد الملائكة فى السموات ، وفى الأرض،وشهد اولو العلم فى الأرض، فامتدت كلمة «لا اله الا الله » شجرة سامقة ، أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء .. وثبوت أصلها فى الأرض هو أس الرجاء ، فأن جذورها نزلت ، وتغلغلت ، وأمتدت الى أسفل قريباً من امتداد فروعها الى أعلى ، فبلغت ابليس فى دياجير ظلماته ، فساقت اليه نور الوجود ، وان لم تسق اليه نور المعرفة ، فشهد بلسـان حاله انه « لا اله الا الله » .. وهو لن يلبث ، عندما يتأذن الله فيرى الآيات ، ان يشهد بلسان مقاله أيضا فتدركه الرحمة المكتوبة للمتقين .. وقوله : « تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها » يعنى ان عمـل العاملين بلا اله الا الله فى الأرض تتوجه الرحمة الالهيه فتنزل عليه امدادات الانوار ، والبركات ، من الاعالى ، فتطيب لتلك الامدادات الفروع ، والأصول جميعا .. هذه هى قيمة الشهادة فى الأعالى ، والى ذلك اشار تعالى حين قال ، جل من قائل ، : « هـو الذى يصـلى عليكم ، وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما * تحيتهم ، يوم يلقونه ، سلام ، واعد لهم أجراً كريماً » ..

والكلم الطيب ايضا

و « لا اله الا الله » هى أيضا الكلم الطيب التى قال تعالى فيها : « من كان يريد العزة ، فلله العزة جميعا ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ،

ومكر أولئك هو يبور » أسماها هنا « الكلم » على الجمع ، فى مقابل ما اسماها هناك « كلمة » على الافراد .. والكلم لا يكون اقل من ثلاث كلمات ، وعلى هذا الاعتبار فان « لا » كلمة و « اله » كلمة و « الا » كلمة و « الله » كلمة .. ومع ان اعظم كلمات القرآن ، على اطلاقها ، هى كلمة « الله » الا ان كلمة « لا اله الا الله » أعمها ، وما ذاك الا لقيمتها « التسليكية » .. فانها ، من حيث التسليك ، لا يعدلها شىء ، وذلك لكان « النفى » و « الأثبات » فيها .. وما يفيده « النفى » و « الأثبات » هو ان الحقيقة لا هى هذه ، ولا تلك ، وانما هى « بين ، بين » .. ومعنى هذا أنك ان اشركت بالله غيره فأنت ضال ، وان نزهته عن الشريك فأنت ضال ، وان كان ضلالك ، حين تشرك معه غيره ، اكبر من ضلالك حين تنزهه .. ولا يكاد تركيب فى القرآن يؤدى هذه الصورة ما تؤديها هذه العبارة ، ولكن يقرب منها بعض الآيات ، ومنها ، على سبيل المثال ، قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم .. وما رميت ، اذ رميت ، ولكن الله رمى .. وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، ان الله سميع عليم » .. فحين قال : « وما رميت » نفى الرمى عن النبى .. وحين قال : « ولكن الله رمى » اثبت الرمى لله ، بعد ان نفاه عن النبى .. ولكنه ، بين النفى والاثبات ، جاء بعبارة « اذ رميت » فوزن الامر بين النفى والاثبات ، واصبح الحق « بين ، بين » .. ومعنى « بين ، بين » فى هذا الموضع ان للشريعة حكمها ، وللحقيقة حكمها فى المقام .. فلكأن النبى رمى فى ظاهر الأمر ، ولكن ، فى باطن الأمر ، لم يرم الا الله — النبى رمى فى الشريعة ، ولم يرم فى الحقيقة الا الله — وبذلك يجرى حكم الشرع على المسىء بالعقاب ، وعلى المحسن بالثواب ، ولا يحتج مسىء ، فى هذا الباب ، بما هو فى

.حكم الحقيقة ليفلت من معاقبة الشريعة ، ولا يبالغ غيور على الدين فى معاقبة المسىء عما ورد به النص فى العقوبة المقررة فى الشريعة .للبا لردع الجناة بالقسوة عليهم ، وذلك لمكان حكم الحقيقة فى .غطيئة المخطىء ، واساءة المسىء .. وهذا هو الوزن بالقسطاس المستقيم ..

الاستقامة

وذكر القسطاس المستقيم يسوقنا الى الحديث عن الأستقامة .. والاستقامة هى الاستواء على الوسط بين طرفين ، كليهما ، اذا أخذ بمفرده ، خطأ .. وللتمثيل لهذين الطرفين نسوق الشريعة والحقيقة . .. فالشريعة اذا اخذت بلا حقيقة فهى خطأ ، والحقيقة اذا أدعيت بلا شريعة فهى خطأ ، والاستواء ، أو قل الاستقامة ، ان يكون الرجل صاحب شريعة ، وصاحب حقيقة ، فى آن معاً ، من غير تخليط فى ذلك ، فهو يعامل الخلق بالشريعة ، ويعامل الحق بالحقيقة .. والثبات على هذه الحالة من أصعب الأشياء ، فهو كقبض الزئبق ، ان لم نقل كقبض الريح .. ومن أجل هذا فأن الأستقامة أصعب الأشياء على السالكين .. ولقد قيل ان النبى قد قال : « شيبتنى هود وأخواتها » .. يشير الى قول الله تعالى منها « فأستقم ، كما أمرت ، ومن تاب معك ، ولا تطغوا .. انه بما تعملون بصير .. » ..

ولقد جاءت « لا اله الا الله » بهذه الصياغة على اتم صورة ، فهى ، من طرف ، نفى ، « لا » وهى ، من الطرف الآخر ، اثبات ، « الا» .. وليس الحق فى طرف النفى وحده ، ولا هو فى طرف الأثبات وحده ، وانما الحق برزخ بين ملتقى بحرى النفى والأثبات .. قال تعالى : « مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ، لا يبغيان » ..

والبرزخ ههنا هو كلمة « الله » فكأنه قال (لا اله ، الا الها هـــو « الله ») وانما « الله »برزخ بين المطلق فى اطـلاقه ، وبين جميع الخلائق .. وهـذا يعنى ان اول تنزلات المطلق الى القيد كان تنزله الى مرتبة الأسم ، وهو « الله » .. ولو لا أن المطلق تقيد فى مراتب الأسم ، والصفة ، والفعل ، ما عرف .. وهذا معنى قوله ، تبارك ، وتعـــالى : « كنت كنزاً مخفياً ، فاردت ان اعـــرف ، فخلقت الخلق ، فتعـرفت اليهم ، فبى عرفونى » « فبى » يعنى بتنزلى من الأطـلاق الى القيد .. واول مراتب القيد مرتبة الاســم ، واول الاسماء « الله » وهذه هى مرتبة « الذات المحمدية » ، التى هى اول قابل للتجليات الألهية .. ولذلك فكثيراً ما يقال وبحق : عن « فبى » انها تعنى « محمـداً » فلكأنه قال « فبمحمد عرفونى » .. وفى لغة الارقام مجموع حروف اسم « محمد » كمجموع حروف « فبى » .. كلاهما اثنان وتسعون ، كما هو معروف .. ومقام « الذات المحمدية » هو مقام الانسان الكامل .. ويجب ان يكون معروفاً فأن اسماء الله الحسنى هى فى حق الانسان الكامل فى المكان الأول ، وهى لا تكون فى حق الذات الصرفة ، المطلقة ، الا عند التناهى ، عندما تعجز العبارة ، وتكاد تنقطع الأشارة ، ذلك بأن الذات المطلقة فوق الأسم ، وفوق الصفة ، واعظم اسماء المطلق الأنسان الكامل ، واعظم صفات المطلق الأنسان الكامل ــ اسم الله الاعظم هو الأنســان الكامل ــ ومقامه مقام « مازاغ البصر وما طغى » .

وهناك حقيقة يجب تقريرها ، وتلك هى ان التوحيد صـــفة الموحد « بكسر الحاء » ، وليس صفة الموحد « بفتح الحاء » .. فان الموحد غنى عن توحيد الموحدين ، بعد ان وحد نفسه : « شهد الله انه لا اله الا هو » فاذا استيقنا هذه الحقيقة فقد وجب علينا السير فى

تحقيق التوحيد فى بنيتنا ، وذلك باتقان العبادة حتى تفضى بنا الى العبودية .. والعبادة المفضية الى العبودية ليست قياماً فى المحاريب فقط ، وانما هى ، الى ذلك ، حسن معـــاملة للناس فى الطرقات ، والأسواق ، وفى كل منزلة تنزلها ، أو مقام تقومه ..

وتحقيق التوحيد فى بنيتنا يقتضى الجمعية بعد التوزع ، والحضرة بعد الغفلة .. ومقدمة كل اولئك انما هى تجويد وحدة الفاعل بالاطلاع على حقيقة سر الآية : « وما تشاءون الا ان يشاء الله ، رب العالمين » بعد العمل الجيد ، الواعى ، الرشيد ، بمطلوب الآية : « لمن شاء منكم ان يستقيم » ، فان هذه آية شريعة ، وتلك آية حقيقة ، ومن عمـل بالشريعة باتقان ، وحضور قلب ، علمه الله الحقيقة .. وموعود الله فى ذلك : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » .. والاســتقامة فى آية : « لمن شاء منكم ان يستقيم » انما هى فى اول سلم السلوك ، وهى الوقوف عند اوامر الشرع ، ونواهيه .. وهذه ، من هـــذه البداية البسيطة ، تسوق ، بعناية الله ، الى الاستقامة التى هى الوفاء بأدب الوقت .. وانما من أجل الوفاء بأدب الوقت جعلت للعبادات اوقات .. فقال تعالى عن الصلاة « ان الصـــلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » .. وقال تعالى عن الصوم : « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن ، هدى للناس ، وبينات من الهدى ، والفرقان .. فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا ، أو على سفر ، فعدة من أيام أخر .. يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » .. وقال تعالى عن الحج : « الحج اشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال فى الحج .. وما تفعلوا من خير يعلمه الله .. وتزودوا ، فان خير الزاد التقوى ، واتقونى يا اولى الالباب » .. وعن الزكاة قال تعالى : « وهو الذى انشأ جنات معروشـــات ، وغير

معروشات ، والنخل ، والزرع ، مختلفا أكله ، والزيتون ، والرمان ، متشابها ، وغير متشابه .. كلوا من ثمره اذا اثمر .. وآتوا حقه يوم حصـــــاده .. ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » هذه جميع العبـادات .. ولها ، جميعاً ، اوقاتها التى تؤدى فيها ، ولكل وقت أدبه الذى يناسبه ، والذى جاءت به الشريعة .. وما ادب الوقت فى الشريعة الا وسيلة الى أدب الوقت فى الحقيقة .. وأدب الوقت فى الحقيقة هو العبودية .. وهـــو يعنى ان تكون لله كما هو لك .. وهيهات !! وانما الوفاء به هو شغل العباد ..

ومع ان الأشياء التى توزعنا عن الله ، وتســـترقنا ، فتنقص بذلك عبوديتنا له ، كثيرة ، ومختلفة ، ومتفاوتة ، الا انها ، جميعها ، يحتويها الزمان .. والزمان طاقة متحركة فى نفسها ، ولكن ليس بنفسها .. وعندما تتمركز هـــذه الطاقة المتحـركة فى نقطة معينة منها ، وتتحرك حولها بسرعة تختلف عما حولها ، يبرز لها تجسيد بصـــورة تلفت الانتباه ، وتتكون ، حينئذ ، المادة المألوفة عندنا ، والتى منها برزت الاكوان المنظورة بالعين المجردة ، وغير المنظورة .. وهـــذه الطاقة المتحركة تمثل ارادة المريد ، المتفرد بالارادة ، وتجىء هـذه الارادة الحكيمة وسطاً بين طرفين ، من اعلاها العلم ، ومن اســفلها القدرة ، وهى بذلك تمثل قوام القوة الفاعلة ..

من مادة الفكر صنع العالم

كل شىء نصـــنعه نحن لا يتم صنعه الا بعد ان يكون قد نزل ثلاث نزلات : فنزلة الى مرتبة العلم ، واخرى الى مرتبة الارادة ، وثالثة الى مرتبة القدرة .. وقد تكون هذه ثلاث النزلات منفصلة عن بعضها البعض ، ومتميزة ، وقد تكون مندمجة ، ومتصـــلة .. ولكنها موجودة ، ثلاثتها .. ذلك بأنك لا يمكن ان تصنع صنعة لا تعلمها ،

ولاأن تصنع صنعة لا تريدها ، ولا أن تصنع صنعة لا تقدر عليها .. والنزلة الى مرتبة العلم انما جاءت عـن مرتبة الفكر ، والنزلة الى مرتبة الفكر انما جاءت عن مرتبة العقل ، والنزلة الى مرتبة العقل انما جـــاءت من مرتبة الذات ، وليس وراء الذات المحدثة الا الذات القديمة .. والذات المحدثة ، فيما يصدر عنها ، وكيفية صـــدوره ، تحكى الذات القديمة .. فأن الله ، تبارك ، وتعالى ، قد خلقنا على صورته .. فصناعتنا ، فى اطوار بروزها ، تحكى صـــناعته .. وانما عنانا ، تبارك ، وتعالى ، حـــين قال : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟؟ قل الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار .. » غير ان صنعنا نحن ناقص ، وذلك لكان نقص ذواتنا ، ونقص عقولنا ، ونقص فكرنا ، ونقص علمنا ، ونقص ارادتنا ، ونقص قدرتنا .. ونحن ، الى ذلك ، عندما نصنع شيئا لا نضنع المادة التى نصنع منها ، وانما نتصرف فى مادة ناجزة .. فأن لم تكن مادة ناجزة فأننا لا نعدو أن نجمع تكوينها من اجزاء ناجزة ، لا دخل لنا فى صنعها ، وما ينبغى لنا ، وما نستطيع ..

والذات القـــديمة علمهـا قـــــديم ، وارادتهـــا قديمة ، وقدرتها قديمة .. وهى لا تعلم بعقل كأحدنا ، وانما تعلم بذاتها ، وتريد بذاتها ، وتقدر بذاتها .. وهى لم تصنع العالم من مادة سابقة وانما صنعته من لدنها .. قال تعـالى فى ذلك : « يأيها الناس اتقـــوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحـــدة ، وخلق منها زوجها » فأن هذه النفس الواحدة ، هى نفسه ، تبارك ، وتعالى ..

فالعالم هو تجسيد علم الله — هو تجسيد فكر العقل الكلى ، المحيط ، والمطلق ، فى ذلك — وانه لحق ان العالم قد صـــنع من مادة الفكر ، ومن أجل ذلك جاءت كرامة الفكر .. ولم يجعل الله هادياً فى

شعاب ظلمات العالم غير نور العقل القوى الفكر .. وانما من أجل تقوية الفكر ارسل الله الرسل ، وانزل القرآن ، وشرع الشرائع : قال تعالى : « وانزلنا اليك الذكر ، لتبين للناس ، مانزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » .. فكأن العقل ، اذا روض ، وأدب بأدب الشريعة ، وأدب الحقيقة ، (أدب الوقت) ، اصبح شديد القوى ، دقيق الفكر ، نافذه .. هكذا وصف الله العقل ، فأنه تعالى قد قال عنه : « علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى » .. و « استوى » هذه تردنا الى الاستقامة مرة ثانية ، فأن الأستواء انما هو الثبات على الجادة ، وهو نفس معنى الاستقامة .. وقد قلنا ان الاستقامة هى الوفاء بأدب الوقت ، والوقت هو اللحظة الحاضرة .. ذلك بأن اللحظة الحاضرة هى اصل الزمان ، وهى وسط بين طرفين ، كليهما ، فى حكم الحقيقة ، باطل ، وانما يعتبر وجودهما فى حكم العقل — حكم الشريعة — وذلك هو الحكم الذى به دخل ، فى الوجود ، خلق الأزواج ، قال تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون * ففروا الى الله ، انى لكم منه نذير مبين » .. فالحكمة فى خلق الازواج ، هى تمكين العقول ، من الادراك : « لعلكم تذكرون » والتذكر عملية مزاوجة بين طرفين : الذاكرة ، والخيال .. قوله « ففروا الى الله » يعنى فروا من التعدد الذى يقوم عليه حكم العقول، الى الأحدية التى يقوم عليها حكم القلوب ..

بذرة القرآن :

وأما بذرة القرآن ، فهى ليست كلمة : « لا اله الا الله » كما زعمت انت فى صفحة ٢٥٠ حين قلت : « والذى يقرأ القرآن فى تفكر وتأمل يشعر انه خرج جميعه من بذرة واحدة هى كلمة لا اله الا الله تفرعت واورقت واثمرت شجرة القرآن كله . من التوحيد نشأت كل

اعداد المعـــارف والعلوم » انتهى .. ان بذرة القرآن ، هى كلمة « الله » وهذه البذرة ، قد تنزلت من الأطلاق .. هى طرف الأطلاق القريب منا ، تجسد .. ولقد اسلفنا القول فى هذا الفصل ان كلمة « الله » هى « اعظم » ما فى القرآن ، وأن الكلمة (لا اله الا الله) هى « خير » ما فى القرآن ، وانما كان ذلك كذلك ، لأنها منهاج تسليك بها يقوى العقل على ملاقاة الله .. ولقـد قال العارفون : ان آيات القرآن كلها ، قامت فى الطرقات لتسوق الناس ، بالوعد والوعيد ، الى تحقيق « لا اله الا الله » .. ثم ان « لا الة الا الله » تسـوق الناس الى الله .. وكلمة « الله » تشير أشارة ، الى الاطلاق ، الذى منه تنزلت .. والأطلاق فوق العبارة .. فهو لا يسمى ، ولا يوصف ، ومن ثم لا يعرف .. ولولا أنه تقيد فى منزلة الأسم ، « الله » لما كان اليه من سبيل .. وانت تقول من صفحة ٢٤٩ « والله فى القرآن ذات واسماء وصفات وافعال » وهذا حق ، على شرط اعتبار مراتب القيد الذى فيه تقيدت الذات الساذج ، الصرفة ، وذلك بمحض الفضل .. ومقام القيد هذا ، هو مقام تجسيد .. هو مقام الأنسان الكامل الذى ما هو الا « الحقيقة المحمدية » .. والى هذا التجسيد فى هذا المقام ، الاشارة بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين ❊ فأن زللتم مـن بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ❊ هل ينظرون الا ان يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ، والملائكة ، وقضى الأمر .. والى الله ترجع الأمور ؟؟ » ..

وهذه الآيات مسبوقات فى السياق بآيات هى : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو الد الخصام ❊ واذا تولى سعى فى الأرض ليفســـد فيها ، ويهلك

الحرث ، والنسل .. والله لا يحب الفساد * واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالأثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد » وقد قيلت فى رجل منافق أتخذ نموذجاً للكافرين ، والمنافقين .. والنفاق اسوأ خصال الرجال .. قال تعالى فى ذلك : « ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » .. وقال عن المنافقين « ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً » فالكافرون والمنافقون قبيل واحد .. وسترد الأشارة اليهم ، فى الآيات التى نحن بصددها .. فالى تلك الآيات ــ قوله : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » يعنى الاسلام .. قوله « فأن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات » يعنى ان دخلتم فى الاسلام ، ثم زلت بكم القدم عن الطاعات من بعدما بينا لكم الحدود ، « فاعلموا ان الله عزيز حكيم » .. فى هذا القول اشارة الى امرين : الأمر الاول ، فاعلموا أنكم انما زللتم بأرادة الله ، فان العزيز لا يعصى رغم انفه .. والأمر الثانى ، فاعلموا ان الله يغفر لكم مادامت زلتكم قد جرت عليكم وانتم داخل الملة ، فأن العزيز لا يضره ان يعفو ، والحكيم يصلح بالعفو،ويصلح بالعقوبة .. قوله : « هل ينظرون ؟ » الأشارة هنا الى الكافرين ، والمنافقين ، والمعنى : ما ينتظرون .. قوله : « الا ان يأتيهم الله » يعنى « الأنسان الكامل » .. يعنى « الحقيقة المحمدية » .. قوله : « فى ظلل من الغمام » يعنى يأتيهم مجسداً ، فى الدم ، واللحم .. وتلك اشارة لمجىء المسيح .. قوله : « والملائكة » اشارة الى أعوان المسيح .. قوله : « وقضى الامر » ، اشارة لساعة مجيئه .. قوله : « والى الله ترجع الامور » اشارة الى الكمالات ، التى تظهر بمجىء المسيح ، واعوانه ، وهى الكمالات التى بها تملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً .. فأن الرجوع الى الله انما هو فى الدرجات ، لا فى المسافات ..

فالأنسان الكامل ، أذن ، هو الذات التى فى القرآن .. ولكن الذات الصرفة ، المطلقة ، فوق القرآن المرقوم .. لأنها فوق العبارة ، وفوق الأشارة .. والحديث عنها يسـوقنا الى الحديث عن اسرار الحروف ، التى افتتحت بها بعض سور القرآن .. ولقد تحدثت انت عنها فى هذا الفصل ، فى صفحة ٢٥٤ فقلت : « وكل حرف من حروف اللغة له خواصه التعبيرية ، واسراره . ونحن لم نتعلم من هـذه الأسرار الا القليل . وحينما يطالعنا القرآن بتلك الحروف المطلسمة فى بدايات السور امثال : طسم .. كهيعص ـ حم .. طس .. فانه يطالعنا بأسرار بالفعل ، وليس بمجرد حروف تشابكت كيفما اتفق ، وانما هى بعض التحديات التى تحدانا بها القرآن ووعدنا بأن يأتى تأويلها فى آخر الايام ..

ونظريات المفسرين فى هذه الحروف كثيرة ومختلفة . البعض يقول ان الله يقسم بهذه الحروف فى مطالع السور .

والبعض يقـول انها تؤلف فيما بينها اسم الله الاعظم الذى احتفظ بسره لنفسه .

والبعض يقول انها مجرد مفردات ـ يقول لنا الله انه خلق منها ومن مثلها القـرآن .. فيقدم لنا لبنات البناء وخاماته قبل ان يرينا البناء فى كماله وتمامه .. على سبيل الاعجاز .

وكلها ضروب من التخبط .

واولى بنا ان نقول : لا نعلم .

وما كان لنا ان نحيط بالقرآن فى جيل واحد أو أجيال .. وقد نزل القرآن لكل العصـور .. ليبوح بسره على مدى عمـر الدنيا فيكاشف كل مفسر بقطرة من بحره .

ومازال القرآن يعطى كل من جاهد فى تفهمه .. ومازال يفتح قلبه لكل من فتح له قلبه » هـذا ماذكرته انت عن الحـــروف التى افتتحت بها السور .. والحروف تعتبر هى مرحلة الأشارة فى القرآن، بعد أن ضاقت العبارة عن المعانى ، وهى تتسامى ، من المحدود الى المطلق ، فى شكل هـرمى ، قاعـــدته العبارة التى ، بحسب اللغة ، لا تحتمل الا وجها واحداً .. وقمته عند الذات المحدثة ــ « الحقيقة المحمدية » التى هى اول قابل لتجليات الذات الساذج .. وعن العبارة التى لا تحتمل الا وجهاً واحداً من عبارات القرآن ، جاء قوله تعالى : « هو الذى انزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات ، هن ام الكتاب ، وأخر متشابهات .. فأما الذين فى قلوبهم زيغ ، فيتبعون ما تشـــابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغـــاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله .. والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا .. وما يذكر الا أولو الألباب » .. « آيات محكمات ، هن أم الكتاب » هذه الآيات، عليها اعتمدت الأحكام ، وهى ، بحسب اللغة ، لا تكاد تحتمل الا وجهاً واحداً .. هذه الآيات ، هى قاعدة العبارة .. وعن قمة العبارة جاءت كلمة « الله » وهى ليس لها من خصـــائص العبارة الا كونها كلمة ، والا ، فهى أدخل فى الأشـــارة ، منها فى العبارة ، لأنها ، وان كانت كلمة ، فأنها غير مشتقة ، ولذلك فلا معنى لها محدود .. وهى ، من وجهها الذى يلى المحدود ، موصوفة بالأحدية ، ومن وجهها الذى يلى المطلق ، لا توصف ، ويصبح معناها فى غيرها .. لأنها اشـــــارة الى الاطلاق ..

ومرحلة الأشارة بالحروف تقع فى مضمار هذا الأسم الشريف ، بين قاعدته الموصوفة بالأحدية ، وقمته التى تتنزه عن الوصف ، والتى تظل ، سرمدياً ، مفتوحة على الأطلاق ، تستوعب فى كل جزئية زمنية

طرفاً منه ، فتقيده .. ولمرحلة الأشارة بالحروف قاعدة ، ولها قمة .. فامـــا قاعـــــدتها فهى الحـــروف الرقمية .. وامـــا قمتها فهى الحروف الفكرية .. وتقع بين هذه القمة ، وتلك القاعدة ، الحروف الصوتية .. فكأن الحروف على ثلاث مراتب : رقمية ، وهى تتكون من الثمانية والعشرين حرفاً ، التى تشتمل عليها الأبجدية فى اللغة العربية .. أولها الألف ، وآخرها الغين .. وهذه الحـــروف الثمانية والعشرون وهى بعدد منازل القمر ، منها اربعة عشر حرفاً نورانية ، وهى : أ ــ ل ــ ر ــ ك ــ هـ ــ ى ــ ع ــ ص ــ ط ــ س ــ ح ــ م ــ ق ــ ن ، وقيدها فى افتتاحيات الســـور : الر .. كهيعص .. طس .. حم .. ق .. ن ، ومن هذه الحروف النورانية ، الاربعة عشر ، افتتحت تسع وعشرون ســـورة ، على اربع عشرة تشـــــكيلة ، هى : « الـــم » .. « المص » .. « الر » .. « المر » .. « كهيعص » .. « طه » .. (طســم) .. (طس) .. (يس) .. (ص) .. « حـــم » .. « حـــم ــ عســـــق » .. « ق » .. « ن » .

ومنها اربعة عشر حرفاً ، ظلمانية ، هى بقية حروف الهجاء الثمانية والعشرين .. ومن هذه الحروف الرقمية ، النورانية منها والظلمانية ، يتألف الكلام الظاهر .. والكلام الظاهر هو لغة العقل .. ولغة العقل ابتدأت بالكلمات الصوتية ــ الكلمات التى تحكى الصـــوت ــ ثم تطورت هذه الكلمات فى المعانى ، حتى اصـــبحت تعبر عن دقائق خلجات النفس البشرية .

واما الحروف الصوتية ، فهى لا حصر لها ، وذلك لأنها تنتج عن حركات المتحركات ، وكل ذرات المادة فى حركة ما تنقطع .. ويقابل عددها فى الخارج عدد مماثل فى داخل النفس البشرية .. وهى ، فى

ذلك ، المسموع منها ، وغير المسموع ، تؤلف الخواطر التى تجيش فى العقل الواعى ، وفى طرف العقل الباطن ، ممايلى العقل الواعى ، مما تصح تسميته بالعقل شبه الواعى ..

واما الحروف الفكرية ، فهى ملكوت كل شىء .. وهى كلمات الله التى قال عنها ، جل من قائل : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى ، لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مدداً » .. ومن هذه الحروف الفكرية ، تتكون الخواطر المستكنة فى العقل الباطن .. وفى سويدائه الحقيقة الأزلية ، وعلى حواشيه الدين .. والحقيقة الأزلية « وترية » ، والى الدين تنتهى الحقيقة « الشفعية » ، وهذه نهاية ادراكات العقول ، وهى ، من ثم ، نهاية الحروف الفكرية ..

والى الحروف الرقمية ، والحروف الصوتية ، والحروف الفكرية ، وردت الأشارة بقوله تعالى « وان تجهر بالقول فانه يعلم السر ، واخفى » فالقول المجهور به يقابل الحروف الرقمية ، والسر ، المنطوى عليه الضمير يقابل الحروف الصوتية .. واما الحروف الفكرية ، فيقابلها سر السر .. ولقد تحدثنا عن سر السر فى فصل « مخير ، ام مسير » من هذا الكتاب .. ومن هذه الحروف الفكرية ما لا يسمع الا بالحاسة السابعة ، ولقد تحدثنا عن الحاسة السابعة فى مقدمة الطبعة الرابعة من كتابنا « رسالة الصلاة » ، فليراجع فى موضعه .. وللاستزادة من الحديث عن الحروف ، يمكن مراجعة الباب الخامس ، من كتابنا « الرسالة الثانية من الاسلام » .

وعند دقة الحروف الفكرية ، ولطفها ، يحصل ، الفينة بعد الفينة ، عجز العقل عن التفكير .. وعندئذ يقع الشهود الذاتى ، اذ تباشر الذات المحدثة ، الذات القديمة ، بغير حجاب بينهما ..

واما قولك : « وما كان لنا ان نحيط بالقرآن فى جيل واحد أو اجيال .. وقد نزل القرآن لكل العصور .. ليبوح بسره على مدى عمر الدنيا فيكاشف كل مفسر بقطرة من بحره » فهو قول يدل على انك تنتظر الاحاطة بالقرآن ، وتنتظر من القرآن ان يبوح بسره ، فيما بعد انقضاء عمر الدنيا ، وهو بذلك قول باطل .. فان الاحاطة بالقرآن ، تمتنع « وما يعلم تأويله الا الله » والقـــرآن انما يبوح بسره فى السرمد ، والسرمد هو الزمن المطلق ، وهذا هو ما يناسب اطلاق القرآن .. فان القرآن اوله عندنا نحن فى اللغة العـربية ، وآخره عند الله .. حيث لا حيث .. وعند لا عند .. قال الله فى ذلك « حـــم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربيا ، لعلكم تعقلون * وانه ، فى ام الكتاب ، لدينا ، لعلى حكيم » قـوله « انا جعلناه قرآنا عربيا ، لعلكم تعقلون » يعنى طرف القرآن القريب منا « وانه ، فى ام الكتاب ، لدينا ، لعلى حكيم » يعنى حقيقة القرآن .. فأن « لدى » هنا ليست ظرف زمان ، ولا هى ظرف مكان ، وانما هى عند الله فى اطلاقه .. ههنا حقيقة القرآن ، وهى حقيقة مطلقة ــ هى الذات ــ

وانت تقول من صفحة ٢٤٩ : « والسراط المستقيم هو الطريق المؤدى الى الله والى الحق والنجاة » انتهى . فما هو هذا الطريق ياترى ؟؟ فان الشريعة مؤدية الى النجاة ، ومؤدية الى الله ، فى معنى ما تؤدى الى النجاة ، فهل هذا ما تعنى انت حقاً بتفسـيرك للسراط المستقيم على هذا النحو ؟؟ انك قد هـونت عزيزاً ، ذلك بأن السراط المستقيم هو أعلى ، وأغلى مطالب الرجال .. وعندما قال النبى الكريم « شيبتنى هود واخواتها » قالوا : انما عنى فى هود قول الله تعالى ، يأمره : « فاستقم كما أمرت ، ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، انه بما تعملون بصير »

فالاستقامة هى الثبات من الجولان بين طرفين يتنازعان القلب ، وهذان الطرفان هما الماضى ، والمستقبل .. وعندما عرج النبى ، وتناهى به المعراج ، خلف جبريل عند سدرة المنتهى ، فى مقام : « قاب قوسين ، أو أدنى » وتجاوز هو منفرداً ، الى مقام جمعية بالله، تمت له فيه الوحدة الذاتية ، والوحدة المكانية ، والوحدة الزمانية ، فكانت تلك الحالة حالة استقامة .. وهى قد اتفقت له بمحض الفضل الألهى ، بفيض التجلى الذاتى ، حيث استغرقت الذات الألهية ، الذات المحمدية ، استغراقاً .. وقد جاء وصف القرآن لهذه الحالة ، بقوله ، تبارك ، وتعالى : « اذ يغشى السدرة ما يغشى * مازاغ البصر وما طغى » .. قوله « مازاغ البصر » يعنى ما اشتغل الفكر بالماضى .. قوله « وماطغى » يعنى ما اشتغل الفكر بالمستقبل .. وهذه وتلك ، تعنى لحظة توقف فكرى ــ تعنى لحظة رفع حجاب الفكر ــ حيث واجهت الذات المحدثة ــ (الذات المحمدية) ــ الذات القديمة ــ (الذات الألهية) كفاحاً ، بلا واسطة ، ولا حجاب ، فتم الشهود الذاتى ..

هذه هى الاستقامة فى قمتها .. فما ظنك بها ؟؟

والاستقامة برزخ بين طرفين هما الجناحان ، وهى القلب .. واليها ، فى المكان الأول ، الأشارة فى قوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ ، لا يبغيان » والبحران يعنيان أى طرفين عن يمين وشمال .. أو قل ، ان شئت ، أى نقيضين .. وفى فاتحة الكتاب جاء قوله : « اهدنا السراط المستقيم * سراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .. « السراط المستقيم » برزخ ، والبحران ، عن اليمين ، « الضالين » ، وعن الشمال ، « المغضوب عليهم » .. قوله « اهدنا السراط المستقيم » ..

« السراط المستقيم.» ، ادناه الاســـتقامة فى الشريعة .. الأئتمار بالاوامر ، والأنتهاء عن النواهى .. واعلاه الحياة فى اللحظة الحاضرة .. وآية هذا من كتاب الله : « مازاغ البصر ، وما طغى » .. قوله : « سراط الذين انعمت عليهم » يعنى المسلمين .. ادناهم المؤمنون ، وأعلاهم المسلمون ، الذين اسلموا وجههم لله ، لا يعترضون عليه فى سر ، ولا علن .. قوله : « غير المغضوب عليهم » هم اليهود ، وهم الذين افرطوا فى المادية .. وقوله .. « ولا الضالين » هم النصارى ، وهـــم الذين افرطـــــوا فى الروحـــانية .. وانمـا كان السراط المســـتقيم ، وســطاً بين هـــؤلاء ، وهؤلاء لأنه جمع بين خصائص الطرفين ، فلم يهمل المادة ، ولا أهمل الروح ، وانما وفق بينهما توفيقاً متسقا ، فجعل المادة وسيلة الروح .. « الدنيا مطية الآخرة » على حد تعبير المعصـوم .. وفاتحة الكتاب ، التى اختتمت بهاتين الآيتين هى ام الكتاب .. وانما بهاتين الايتين نالت منزلة الشرف ..

فاتحة الكتاب ، هى المعنية بقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » هى سبع آيات ، هكذا : « بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * اياك نعبد واياك نستعين * اهدنا السراط المســتقيم * سراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » وأنما سميت مثانى لأن لكل منها معنيين : معنى قــريبا ، ومعنى بعيدا .. فأما المعنى القريب فهو عبادة .. واما المعنى البعيد فهو عبودية .. قولك « بســـم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * اياك نعبد .. » هــذه آيات

عبادة ، وآيات عبودية ، ولكن العبادة فيها أظهر من العبودية ، وذلك لمكان الدعوى .. « واياك نستعين * اهدنا السراط المستقيم ، سراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » هذه آيات عبادة ، وآيات عبودية ولكن العبودية فيها أظهر ، وذلك لمكان التجلى عن الدعوى .. وهى «القرآن العظيم» .. لأن قمتها فى برزخيتها بين العبادة والعبودية .. وتلك هى مرتبة الفناء عن العبودية .. بمعنى ان تكون عبداً ، بدون ان تكون شاعرا بنفسك فى عبوديتك ، وانما تعيش العبودية فى بساطة ، وبدون أن تعتبر لنفسك فى ذلك فضيلة ، وانما ترى انه مقامك الحقيقى الذى ما كان ينبغى لك ان تذهل عنه طرفة عين .. مقام الفناء عن العبودية هو ، مقام العبودية الحقة ، وهو لا يتناهى ، السير فيه سرمدى ، لأنه سير مصاقب للربوبية .. ولقد توظف القرآن كله لتحقيقه ، وعلى رأس القرآن فاتحة الكتاب ، وعلى قمتها الآيتان : « اهدنا السراط المستقيم * سراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » ..

هناك ملاحظات يمكن سوقها فى بساطة عن بعض آرائك فى هذا الفصل فانت تقول عن التوكل : « والتوكل مقام عظيم لا يستطيع ان يبلغه الا متصوف ومؤمن ثابت القدم يؤمن بحق انه .. لا اله الا الله .. ولا مريد فعال مهيمن الا الله » .. هذا ما قلته انت فى صفحة٢٤٤، والذى تجب ملاحظته ان التوكل ليس مقام المؤمنين ، وانما هو مقام الموقنين ــ هو يقوم على الأيقان ، لا على الأيمان .. وفى صفحة ٢٤٨ أنت تقول : ــ (وهو قد علمنا انه قد خلق العالم باسمه الرحمن الرحيم لا بأسمه القهار الجبار .. فهو قد خلقه بالرحمة .. بل بمطلق الرحمة « والرحمن هو يسبغ مطلق رحماته على كل ما يخلق .. ما يستحق الرحمة وما لا يستحقها » فنقول فى بدء كل شىء

« باسم الله الرحمن الرحيم » لأنه باسمه الرحمن الرحيم بدأ الخلق فاوجد كل شيء رحمة لا قهراً : كتب على نفسه الرحمة ٠) هـــذا ما قلته انت فى تلك الصفحة ، والذى تجب ملاحظته هو ان رحمـة « الرحمن » تختلف عن رحمة « الرحيم » اختلاف مقدار ٠٠ فرحمة الرحمن يدخل فيها العذاب ٠٠ ورحمة الرحيم خالصة من العذاب ٠٠

وهذا يعنى ان الله خلق العالم باســمه « القهار الجبار » فى معنى ما خلقه باسمه « الرحمن » وهو قد ســير العالم اليه تحت قهره ، وجبروته ، وقال : « ان كل من فى الســموات ، والارض ، الا آتى الرحمن عبداً » ٠٠ وفى هذا المقام ، فليس هناك « ما لا يســتحق الرحمة » من المخلوقات ٠٠ والقاعدة التوحيدية تقول : ان كل مخلوق مرحوم ٠٠ قال تعالى فى ذلك : « عذابى اصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون » ٠٠ قوله : « ورحمتى وسعت كل شيء » فهذه رحمة « الرحمن » ٠٠ والعذاب داخل فيها وهو طرف منها ٠٠

قوله : « فسأكتبها للذين يتقون » فهذه رحمة « الرحيم » وهى مكتوبة خالصة من العذاب ــ فالرحمة الأولى عامة ، وتشمل الجنة ، والنار معاً ٠٠ والرحمة الثانية خاصة ، ولا تشمل الا الجنة ٠٠ القهر والجبروت فى الأولى ، وليس فى الثانية ٠٠

بهذا نختم هذا الفصل ونترك فيه كثيراً مما كان يمكن ان يقال ٠٠ وستكون لنا الى « لا اله الا الله » عودة ان شاء الله ٠٠ فان فى النفس منها ، دائما ، شيئاً ٠٠ وعلى الله قصد الســبيل ، وعليه التكلان ٠٠

الفصـــــــل الثانى

مســـــير أم مخير

هذا هو الفصل الثانى من فصول كتاب الدكتور ، وانما قـدمت عليه فصل « لا اله الا الله » لأنه يعطينا الفرصة للنظر فى مبلغ تجويد الكاتب للتوحيد .. وعلى مبلغ هـذا التجـويد تجىء الاجادة ، أو الاساءة ، فى سائر كلامه عن الدين .. فالحديث عن « لا اله الا الله » يعطى وزنا دقيقا لعقل المتحدث .. ومما بدا لنا فان الدكتور ضعيف فى التوحيد .. وسيكون ديدننا ، فى سائر فصـول كتابنا هذا ، توكيد هذا المعنى ، حتى يسـتطيع الدكتور الفاضـل أن يتدارك أمـره قبل فوات الأوان ، وحتى لا ينخـدع القراء ببهرج آراء الدكتور التى أرسلها حول آصل أصول الدين ، ارسالا ..

وهذا الفصل « مخير أم مسير » هو أول الفصول الذى يظهر فيه خلل التوحيد فى عقل الكاتب ، ولذلك فاننا سنناقشه بتوسع ..

الفلسفة والدين وصميم القرآن

وأول الوهن قول الدكتور فى صفحة ٢٦ : « وقد أوصى النبى أصحابه بعدم الدخول فى جدل . وقال لهم : اذا جـاء ذكر القـدر فأمسكوا لأنه علم أن المعضلة من المعضلات الفلسـفية العالية التى لا يتيسر الرد عليها بعلوم عصره .. وأن الجدل سوف ينزلق بهم الى متاهة يضيعون فيها .. ولذا فضل الايمان بالقلب على الثرثرة العقليه العقيمة ..

وهى وصية لاتنسحب تماما على عصرنا ، الذى دخلت فيه الفلسفة الجامعات وأصبحت درسا ميسرا يتلقاه ابن العشرين كل يوم . وبذلك أصبح السؤال مطروحا بشدة .. وفى حاجة الى جواب ورد شاف من الفلسفة ومن الدين ومن صميم القرآن ذاته » .. هذا ما قاله الدكتور الفاضل .. من تلك الصفحة من كتابه .. وأول ماتجب الاشارة اليه هو أن النبى لم يكن يرى أن مسألة القدر من « المعضلات الفلسفية العالية » .. وانما كان يراها من مسائل دقائق التوحيد .. وهو يعلم أن دقائق التوحيد لا نحصل عليها لمجرد قولنا : « لا اله الا الله » ، وقراءتنا القرآن ، وقيامنا بواجباتنا الشرعية التى هى أركان ديننا ، وانما نحصل عليها بتجويد السلوك ، وبأمر زايد عن ذلك .. فمثلا ، لقد كان النبى على شريعة فردية أوجبتها عليه نبوته ، ونحن نسميها السنة ، وقد كان فى شريعته الفردية مكلفا بما لم تكلف به أمته .. وهى أمة قد كانت على شريعة جماعية تنزلت من شريعته هو الفردية ، وذلك قد كان مراعاة لضعف الأمة ، ولقصورها عن شأو ما يطيق هو .. والله ، سبحانه ، وتعالى ، يقول : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » والنبى الكريم يقول : « نحن معاشر الأنبياء قد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » .. وهذه الشريعة الجماعية هى موضوع رسالته .. وبين نبوته ورسالته فرق ما بينه وبين الرجل من سائر أمته .. وهو فرق شاسع .. فهو فى نبوته قد كان مكلفا بقيام الليل ، قال تعالى فى حقه : « يأيها المزمل * قم الليل الا قليلا * نصفه أو أنقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .. فى حين لم تكن أمته مكلفة به .. ثم هو ، فى أمر المال ، مكلف الا يدخر رزق اليوم لغد .. قال تعالى فى حقه : « ويسألونك ماذا ينفقون ؟؟ قل العفو » .. فى حين أن أمته

لم تكن مكلفة الا باخراج الزكاة ذات المقادير المعروفة .. وآيتها من كتاب الله: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم، وتزكيهم بها، وصل عليهم .. ان صلاتك سكن لهم .. والله سميع عليم » .. وهو قد كان يواصل فى صيام التطوع ، ولما أراد بعض أصحابه أن يقلده فى ذلك نهاهم ، فقالوا : فأنا نراك تواصل يارسول الله .. قال : «انى لست كأحدكم ، فأنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى . » وهو بالطبع لا يطعم خبزا ، ولا لحما ، ولا يسقى ماء ، ولا لبنا ، وانما هى أنوار اليقين .. وهذه الأنوار هى التى هونت عليه أمر الدنيا ، ويسرت عليه أن ينفق عنه كل ما زاد عن حاجته الحاضرة ، غير عابىء برزق الغد ، وانما متوكلا على الله فى تدبير أمره .. هذه الأمور تدل على أن النبى ، حتى فى الأعمال التى يشارك فيها أمته قد كان يقوم بها على نحو يختلف عنهم .. فهو قد كان ، مثلا ، يصلى المكتوبة كما يصلون ، من حيث الأوقات ، والهيئة ، والعدد ، ولكنه ، مع ذلك ، قد كان يختلف عنهم فى الاداء ، حتى لكأن صلاته غير صلاتهم .. بل هى ، على التحقيق ، غيرها .. لقد كان هو قريبا من قمة الدين ، فى حين كانوا هم فى بدايته .. كان هو مسلما .. وكانوا هم مؤمنين .. وللدين ، بين الأيمان والاسلام ، منازل سبع ، يقع فيها السير على مرحلتين : مرحلة الأيمان، ومرحلة الايقان ... وفى كل مرحلة من هاتين المرحلتين ثلاث منازل .. ففى مرحلة الأيمان هناك الأسلام البدائى ، الذى هو عبارة عن الأنقياد الظاهرى ، والذى فيه ، حتى المنافقون ، يعتبرون مسلمين .. يليه الأيمان .. يليه الأحسان .. وهذا قصاراه .. وهذه المنازل الثلاث قد وردت فى حديث جبريل المشهور وانما توقف جبريل فى اسئلته عند الأحسان لأنه لم يجىء الا ليبين للأصحاب دينهم، كما أخبرهم عقب ذلك النبى ، « هذا جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » وقد ظن

الناس ان ديننا أنما هو الأسلام ، والأيمان ، والاحسان . والحق غير ذلك .. الحق أن هذه المنازل الثلاث انما هى مرحلة الأيمان .. واما منازل مرحلة الأيقان الثلاث هى : منزلة علم اليقين ، ومنزلة علم عين اليقين ، ومنزلة علم حق اليقين . وهذه هى المرحلة التى كان يعمل فيها النبى .. لقد كان النبى مسلما ، فى حين لم يكن أصحابه الا مؤمنين ، ولايطلق عليهم الاسلام الا فى المعنى العام ، الأولى ، واما الاسلام ، الذى هو الاستسلام ، والانقياد الراضى بالأرادة الهادية ، والذى يجىء تتويجا لمرحلة الايقان ، فلم يكونوا منه فى شىء .. وهم قد ندبوا اليه .. قال تعالى عنهم : « يأيها الذين آمنوا أتقوا الله ، حق تقاته ، ولاتموتن الا وانتم مسلمون » .. فلم يطيقوه ، وقالوا : أينا يستطيع ان يتقى الله حق تقاته ؟؟ فنزل لهم عن ذلك ، وجاءهم : « فاتقوا الله ما أستطعتم ، واسمعوا ، واطيعوا ، وانفقوا ، خيرا لأنفسكم .. ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .. ففى حين نزلوا هم الى ما يطيقون ظل هو حيث ندب ، وحيث أعد ليطيق .. وهو انما أعد باطلاعه على دقائق التوحيد المشتملة عليها عبارة « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .. ففى حين نزلوا هم الى مرحلة الايمان ظل هو فى مرحلة الأيقان .. وفى حقهم فأن الأسم الدقيق أنما هو المؤمنون .. وفى حقه فأن الأسم الدقيق انما هو المسلمون .. ولم يكن يومئذ مسلم غيره .. فهو قد كان مسلما ، وكان أصحابه مؤمنين .. ولايستطيع المؤمن ان يخوض فيما يخوض فيه المسلم ، لأنه صاحب عقيدة ، وليس صاحب علم .. ومن أجل هذا كان منعه أصحابه من الخوض فى أمر القدر .. فقال «اذا ذكر القدر فأمسكوا» ، ولم يكن السبب : « لانه علم ان المعضلة من المعضلات الفلسفية العالية » كما يظن الدكتور ..

ومشكلة القدر ليست معضلة فلسفية عالية ، على كل حال ، وانما هى مشكلة فكرية ، تدركها العقول المرتاضة على دقة الفكر ، ووضوح الرؤية .. ومن أجل رياضة العقول على دقة الفكر أنزل القرآن ، وشرعت الشريعة ، ونهض التكليف .. قال تعالى فى ذلك : « وأنزلنا اليك الذكر ، لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » فاذا تأدبت العقول بأدب القرآن ، فى مستوى شريعته بالعبادة ، وفى مستوى حقيقته بالعبودية ، فأنها سيدق فكرها حتى تحقق من دقائق التوحيد ما تستطيع به ان تفلق الشعرة ، ويومئذ تستطيع ان تدرك مشكلة القدر .. ويجب أن يكون واضحا ان ليس للفلسفة ، ولا للعلم التجريبى الحاضر ، نهج به تتأدب العقول على نحو ماهو عليه الحال فى الدين .. ولا مجال لدقائق التوحيد بالطبع عن طريق الفلسفة، ولا عن طريق العلم التجريبى ، وذلك لسبب واحد بسيط هو أن دقائق التوحيد تقع فى منطقة من وراء العقول ، فى حين ان الفلسفة ، والعلم المادى التجريبى ، كليهما ، يعتمدان على العقل ..

ان العقل وسيلة الى التوحيد ، فى أول الأمر ، ولكنه عقبة أمام كمال التوحيد ، فى آخر الأمر .. القاعدة فى ذلك من قوله تعالى : « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق، وفى انفسهم، حتى يتبين لهم انه الحق.. أولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ؟؟ » ففى مراحل الشهود الشفعى لابد من العقل .. وتلك مراحل آيات الآفاق ، وآيات النفوس (وهى تقابل شهود الله فى أفعاله ، وفى صفاته ، وفى اسمائه ، وتلك مراتب الحق ، ولذلك فقد قال « حتى يتبين لهم انه الحق » .. « انه » الهاء هنا نائبة عن الاسم «الله» .. والحق مرحلة شهود شفعى ، لأن له ضدا ، هو الباطل) .. ثم ذهب ليقول : « أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟؟ » وهذه مرحلة الشهود الوترى .. هى مرتبة

« الحقيقة » .. وهى انما كانت مرحلة شهود وترى لأن الحقيقة لا ضد لها .. وهى أنما يكون تجليها على ملكة الادراك الوترى ـ على القلوب .. ولا يكون تجلى الذات الألهية على قلب العبد الا بعد رفع حجاب الفكر ـ الا بعد أن تكون هناك لحظة توقف فكرى ـ ولا يكون التوقف الفكرى الا عندما يحار العقل ، ويعجز ، وتنبهم فى وجهه المعانى .. ولقد تقرر ان بيننا وبين الذات حجبا لاتتناهى ، ولكنها تقع ، فى جملتها ، على مستويين : مستوى حجب الظلمات ، ومستوى حجب الأنوار .. وحجب الظلمات هى حجب شهوات البطن ، والفرج .. وحجب الأنوار هى حجب العقول .. فاما حجب الظلمات فان التخلص منها قريب ، وميسور .. ولكن حجب الأنوار تستمر مع السالكين فى الطريق السرمدى ، واليها اشار النبى الكريم حين قال : « انه ليغان على قلبى حتى استغفر الله ، فى اليوم ، والليلة ، سبعين مرة » .. ثم قال : « انه غان انوار ، لا غان أغيار » .. أى حجب فكر ، وليست حجب شهوة ..

فالفرق ، أذن ، كبير جدا بين الفلسفة ، والدين .. ومثل هذا يقال عن الفرق بين العلم التجريبى المادى ، والدين ، وأيسره اعتماد الفلسفة ، والعلم التجريبى ، اعتمادا كليا ، ونهائيا ، على الفكر ، فى حين ان الدين يروض العقل حتى يتسامى على نفسه ليصل الى تجريد التوحيد ، فيلغى الشفعية ، ويخلص الى الوترية ، ويكون ساعتئذ فى لحظة توقف ، وحيرة .. وعندهم ان الحيرة تكون ادراكا ، ههنا ، لأن العقل يكون قد عرف قدر نفسه .. وقد قال المعصوم : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » يعنى من عرف نفسه بما هو عليه من العجز ، عرف ربه بما هو عليه من القدرة .. ومن ههنا قالوا : « العجز عن الأدراك ادراك » وقال

سلطان العاشقين ابن الفارض :

زدنى بفرط الحسن فيك تحيراً * وأرحم حشى بلظى هواك تسعرا

فما ظن الدكتور ، اذن ، حين يعتمد اعتمادا كليا ، فى الخوض فى أدق اسرار الدين ، وفى أصول أصول الدين ، على العقل ؟؟ وحين يجعل أمر القدر أمر « معضلة فلسفية عالية » ؟؟ ..

النظرة العلمية

والدكتور رجل عالم ، ولعل الأمر الذى يتميز به كتابه هذا ، وجميع ما انتهى الينا مما يكتب ، ان ثقافته العلمية واسعة ، ومرتبة ، غير انه لا يخلص لها ، ولا يلتزمها دائما .. ولعله ، فى هذا الكتاب بعينه ، كان يشعر بتنازع ولاء بين العلم ، والدين .. وهو ، لما كان غير مجود للتوحيد ، فقد ظلت ، فى عقله ، مناطق منفصلة ، للفلسفة ، وللعلم ، وللدين .. ولم تظفر هذه المعارف الغزيرة بفرصة جيدة لتنصهر فى بوتقة التوحيد ، حتى تظهر فى كل متناسق ، متماسك ، يكون به صاحبها مفكرا متماسكا ، له فى كل قضية رأى عتيد ، لا يضطرب ، ولايلتوى .. انظر الى هذا الاضطراب الفكرى !! هو يقول فى صفحة ٢٧ : « ومن النظرة المبدئية للعالم بما فيه من أرض وسماوات ونجوم وكواكب ترى انه يقوم على سلسلة محكمة من الأسباب والمسببات وان كل شىء فيه يجرى بنظام محكم .. وان كان لديك ورقة وقلم فأنك تستطيع ان تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب .. لأنها تتحرك حسب قانون .. وكل شىء فى الدنيا يتحرك حسب قانون ..

الا الانسان .. فانه يشعر انه يمشى على كيفه » هذا ما قاله الدكتور ، وانت ، بالطبع ، تشعر بضعف المنطق العلمى فى عبارة : « فانه يشعر » ، من جملة « فانه يشعر انه يمشى على كيفه » .. فأنها ليست فى المستوى العلمى اللازم ، لأن شعوره « انه يمشى على

كيفه » ، قد يكون شعورا واهما ، وتظل الحقيقة العلمية قائمة من وراء هذا الوهم ، وهى ، على خلاف ما قرر الدكتور ، ان الانسان لا يشذ عن بقية الموجودات ، وان أوهمه عقله غير ذلك .. والا فليحدثنا الدكتور عن شذوذ الانسان ، وهو يتطور فى اطوار الجنين فى الرحم ، من الحيوان المنوى ، الى البشر السوى فى فترة تسعة أشهر .. ما هو شذوذه فى ذلك عن جنين الأرنب ، أو جنين الشاة مثلا ؟؟ وما هو دوره ، وماهى يده فى هذا الشذوذ ، والاختلاف ؟؟ اليس هو فى الرحم خاضعا ، خضوعا تاما ، لا لبس ، ولا شك فيه ، للارادة الهادية ، الحكيمة ، التى سيرت دراري السماء ، وسددت ذراري الأرض ؟؟

ومفارقة الدكتور ، ومجافاته للنظرة العلمية ، تظهر بصورة مؤسفة حين تقرأ قوله : « لاشيء يحول بين الانسان وبين أن يضمر شيئا فى نفسه . انه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصية احلامه . ولكن هذه الحرية البكر الطليقة فى الداخل ما تلبث ان تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة فى لحظة الفعل » .. هذا حديث الدكتور .. ألا يدلك هذا الحديث على ان الدكتور انما يأخذ الانسان على انه وجد على الصورة المعاصرة من الوهلة الأولى ؟؟ ألا ترى ان الدكتور نسى تطور الانسان من بدايات هى ، فى حقيقتها ، نفس عناصر العالم الذى يعيش فيه الآن ؟؟

الحقيقة العلمية تقول : ان الانسان لبث فى رحم الحياة آمادا سحيقة قبل ان تكون له ارادة ، وقبل ان تكون له حرية .. « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا * انا خلقنا الانسان من نطفة ، أمشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعا ، بصيرا * انا هديناه السبيل .. اما شاكرا ، واما كفورا » النطفة هنا الماء الصافى ..

و « نطفة أمشاج » معناها الماء المخلوط بالطين .. هذه نشأة الانسان فى رحم الحياة وهى نشأة قد استغرقت من عمر الزمان دهرا طويلا ، ولم يكن للانسان فيها ارادة ، ولا حرية ، لأنه لم يكن له يومئذ عقل — عقل يقوم عليه التكليف وهذا هو معنى قوله تعالى : « لم يكن شيئا مذكورا » ..

وللانسان الان نشأة رحمية ثانية .. هو يتكون فى رحم الأم من « نطفة أمشاج » أيضا ، وهى ، ههنا ، ماء الرجل المخلوط ببويضة الأنثى ، ويمكث فى هذه النشأة الرحمية نحواً من تسعة أشهر ، يطوى خلالها جميع الصور التى مرت عليه فى النشأة الرحمية الأولى ، اذ يرتفع من دودة منوية ، الى بشر سوى .. وهو ، فى هذا الرحم ، كما كان فى ذاك ، لا ارادة له ، ولا حرية ، وانما هو خاضع ، تمام الخضوع ، للقانون الأزلى القديم ، الذى تخضع له الاحياء ، والأشياء ، والذى قال تعالى عنه : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات ، والأرض ، طوعا ، وكرها ، واليه يرجعون ؟؟ » هو خاضع للارادة الالهية التى لا يعصيها عاص ، ولا يشذ عنها شاذ .. هى دائما تطاع ، حتى بالمعصية .. ألا ترى ان الدكتور قد ذهل عن نظرته العلمية ، وأخذ يحدثنا عن الانسان كنتيجة ناجزة ، بل انه ليحدثنا عن الانسان المعاصر ؟؟ اسمعه يقول : « ان رغبتنا تظل حرة مادامت كامنة فى الضمير والنية .. فاذا بدأنا التنفيذ اصطدمنا بالقيود .. وأول قيد نصطدم به هو جسدنا نفسه الذى يحيط بنا مثل الجاكتة الجبس ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولا نجد مهربا من تلبية هذه المطالب .. فنجرى خلف اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع فى صراع التكسب ونفقد بعض حريتنا .. بعضها وليس كلها .. وهو ثمن ضرورى » انتهى كلام الدكتور من صفحة ٢٩ ..

بل انه لا يحدثنا عن الانسان المعاصر من حيث هو ، وانما عن الانسان المعاصر فى مجتمع بعينه ، هو فى الغالب المجتمع الذى يعيش فيه الدكتور .. والا فما رأيه فى انسان « الأسكيمو » الذى سير بحاجات جسده ، فى منطقة استغرقت حاجات جسده فيها كل وقته ، حتى أصبح كالحشرات الاقتصادية النملة ، والنحلة ، التى تستغرق حاجاتها كل وقتها ؟؟ فانسان الأسكيمو يعيش فى جدب ، وصقيع ، جعل كل سعيه مستغرقا فى حاجات معدته ، وجسده ، فهو يكدح فى الصيف ليخزن قوته فى شتاء يظل خلاله حبيس كهفه ، لا يستطيع ان يبرحه ، لظلام الأرض ، ولصقيع الجو .. ذلك بأن شتاءه ليل واحد طويل .. هل فقد هذا الانسان بعض حريته ؟؟ أم هل فقدها كلها ؟؟ وما هى حريته ، على كل حال ، وأين هى ؟؟ أم هل اختار انسان الاسكيمو ان يعيش فى هذه المنطقة العجيبة فكان له ما اختار ؟؟ وماهى حرية من لا يعرف اكثر من حاجات معدته وجسده ؟؟

واخرى !! فأن التخيير يقتضى اتخاذ موقف من موقفين ، على أقل تقدير .. أو اتخاذ موقف من عدة مواقف .. واتخاذ هذا الموقف يقتضى الوزن ، والتمييز ، وملكة المفاضلة .. وهذه تعتمد على العقل .. فكيف يكون موقف المعتوه ، أو موقف ضعيف العقل بسبب الوراثة لجيئه من أبوين معتوهين ، أو ناقصى العقل ؟؟ هل هذا مخير ، أم هل هو مسير ؟؟

أن النظرة العلمية تقول : ان الانسان مسير حتى حين يختار .. هو محاط بأختياره .. لا يملك عن هذه الأحاطة فكاكا ، ولا انعتاقا .. هو يدخل الحياة ، ولا اختيار له فى الدخول .. ويخرج من الحياة ، ولا أختيار له فى الخروج .. ويعيش ، فيما بين الدخول والخروج ،

فى بلد ليس له فيه اختيار ، وفى مجتمع ليس له فيه اختيار .. فكيف يكون مالكا لحرية « اختيار » مع كل أولئك .. فان قيل : ان انسان الأسكيمو ، وان ضعيف العقل ، وكل أحد سواهما ، فى مثل ظروفهما ، مع كل ما يلاقى ، ليس هناك على ضميره الداخلى من سلطان خارجى ، وهو ، من ثم ، يملك حرية النية ، فأن مثل هـــذا القول انما يكون خلطا بين التسيير والتخيير .. ان التسيير هــو الا تملك فى اختيار الأسباب الخارجية ما يجعل اختيارك الداخلى حرا .. ومن ذا الذى يقول أن الحجر على حرية القول لا يشكل حجرا على حرية الفكر ؟؟ وأنك حين تكون عايشا فى ظروف خوف على حيـاتك تكون مالكا لحرية النية ، وحرية الأختيار ؟؟ .. ان مثل هــذا القول يكون باطلا بطلانا ظاهرا ، ذلك بأن الرؤية لا تكون واضحة امام العقل ، فى مثل هذه الظروف ، ومن ثم ، فأن حرية النية تتأثر ، وحرية الاختيار تتأثر ، لأن الأمور تكون قد تلبست عليك ، فلا تعرف ماذا تنوى ، ولا ماذا تختـــار ..

يجب أن يكون واضحا ، فأنك لاتضمــر نية لاتعــرفها ، وانك لاتختار أمرا لا تعرفه .. فان كنت لا تملك ظروف علمك ، أوجهلك ، من حيث المواهب التى ركزت فيك ، ومقدرتها ، أو عجزها ، عن التعلم ، ومن حيث الظروف الخارجية التى تجعل التعليم ميسرا لك أو متعذرا عليك ، فانك ، من ثم ، لا تملك لا حرية النية ، ولا حرية الاختيار .. وانما انت مسير الى ان تنوى نية ناجزة ، وان تختار اختيارا ناجزا .. ولكنك تتوهم أنهما نيتك ، واختيارك ، لان التدخل فى أمر حريتك قد كان من اللطف ، ومن حسن التأتى ، بحيث لم يزعجك ، ولم يشعرك انه يتدخل فى أمورك .. وهــذه غفلة سقط فيها اكثر المفكرين .. ومنهم ، مع الاسف ، الدكتور الفاضل مصطفى محمود ..

وهـل هناك تقرير هو أبعـد من العلم من تقرير الدكتور حين قال : « لا شيء يحول بين الانسان وبين ان يضمر شيئا فى نفسه .. انه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصية احلامه . » ؟؟ أى احـلام هذه التى يريد الدكتور ؟؟ فأن كانت احلام اليقظة ، كمايبدو ، فان الجهل يحول بين الانسان وبين ان يضمر شيئا فى نفسه ، الا شيئا قد أعد له من قبل ، والقى فى نفسه ، وأوهم انه من عند نفسه .. والانسـان لا يملك من الجهل فكاكا ، ولا هو يستطيع ان يعلم مايريد أن يعلم .. وان كانت احلام المنام فان هذه لا تخضع لأرادة الانسان ، بل انها لتجيء فى وقت تكون فيه الأرادة معطلة تماما ، وهى ، على كل حال ، صور من العقل الباطن ، الموروث فى عمر الانسانية كلها ، ولا ارانى احتاج لأن اقرر أن فـردا ، من أفـراد الجنس البشرى ، ليس له اختيار فىتكوين العقل الباطن ، الموروث فى عمر الجنس كله ، والذى يؤثر على صحته ، وعلى اخلاقه ، وعلى فكره ، وعلى ضميره المحجب ..

والمشكل حقاً فى أمر الدكتور مصـطفى هو أن نهجه فى البحث ، والقوة البادية على منطقه ، ومقدرته الفكرية الكبيرة ، تجعل باطله يجوز على العقول بسرعة ، ولا يتفطن اليه الا من اوتى بصرا باصول الفكر الدقيق .. اسمعه وهو يحدثك !! « ان الانسان يعيش مضطربا بين عالمين ــ عالم ارادته الحرة بداخله .. وعالم المادة حوله الراسف المغـلول فى القوانين ..

وسبيله الوحيد الى فعل حر هو معرفة هذه القوانين ، والفطنة الى استغلالها بالوفاق معها .. وهـو دائما ممكن . » انتهى قـول الدكتور من صفحتى ٣٠ و ٣١ .. وانت حين تقرأه ، لدى الوهـلة الأولى ، لا تملك غير التسليم له .. ولكن ، لدى النظرة البعيـدة ، يظهر لك خطأه الاساسى ، الذى ينتظم كل كتاباته ، وهو عـدم الدقة

العلمية ، والفكرية .. ولقد قلت ان السبب فى ذلك ضعفه فى التوحيد وكما قلت فان ديدنى سيكون كشف هذه الناحية ، ابتغاء ان يتدارك الدكتور هذا الأمر ، فأنه بتداركه خليق .. وهو به جدير ..

اسمعه مرة أخرى !! « ان الانسان يعيش مضطربا بين عالمين .. عالم ارادته الحرة بداخله .. وعالم المادة حوله الراسف المغلول بالقوانين » فانه لكأنه يتحدث عن شيئين ، مختلفين اختلاف نوع .. « ارادته الحرة بداخله » .. و « عالم المادة حوله » .. ثم هو يتحدث ويقول : « ارادته » ، وكأنه قد قال كل شىء يمكن ان يقال .. ويقول : « المادة » ، وكأنه قد قال كل شىء يمكن أن يقال ، فلم يبق عليه هو ككاتب شىء ، وبقى على ، وبقى عليك ، من القراء ، ان نفهم عنه كل شىء .. ونحن نريد أن نتعدى الألفاظ الى المعانى التى تقوم وراءها .. فما هى الأرادة ؟؟ وما هى المادة ؟؟ وما قول الدكتور فيمن يحدثه ان الاختلاف بين « الارادة » وبين « المادة » انما هو اختلاف مقدار .. وانه ليس فى الوجود اختلاف نوع ، على الاطلاق .. وانه ، لدى النظرة العلمية ، فان الارادة مادة ، فى حالة لطافة لطيفة .. والمادة ارادة فى حالة كثافة كثيفة .. وانه ، حين اعترف لعالم المادة حوله انه « الراسف المغلول فى القوانين » ، قد كان يجب عليه ان يعرف للارادة الداخلية نفس القدر من القيود ، والأغلال ، فلا يزعم أنها حرة طليقة ..

ان النظرة العلمية التى ذهب اليها كارل ماركس من ان المادة سابقةللعقل ، وانهتابع لها ، مسير بها ، نظرة لها حظ من الصحة ما كان ينبغى ان يذهل عنها الدكتور ، وانما يجىء الخطأ لماركس من أنكاره لوجود عقل سابق على المادة ، ومؤثر فيها ، ومسير لها ، وذلك هو « العقل الكلى » المتسامى على المادة ، المتخطى لها ، المسيطر عليها .. وهو خطأ جسيم ، أخرج ماركس من مرتبة العالم المحقق ، الى مرتبة الملحد الجاهل ..

ان الأرادة البشرية مسيرة بالعالم المادى الذى حولها .. والعالم المادى انما هو مظهر محسوس للارادة الالهية التى سيرت العوالم التى نعرفها ، والعوالم التى نجهلها .. العوالم التى نراها ، والعوالم التى لا نـراها ..

وما هى هذه القوانين التى يعنيها الدكتور حين قال من عبارته التى اوردتها لك سابقا : « وسبيله الوحيد الى فعل حر هو معرفة هذه القوانين والفطنة الى استغلالها بالوفاق معها .. وهو أمر دائما ممكن » . ؟؟ هو ، بالطبع ، يعنى القوانين الطبيعية التى تحكم المادة والتى اكتشفها علماء الفيزياء ، وعلماء الرياضيات ، وعلماء الهندسة ، وغيرهم من اضرابهم .. ولكن ، ما قـــول الدكتور اذا أخبرناه ان التوحيد يقول : ان هذه ليست قوانين ، وانما هى مجـــرد ترتيب اسباب ؟؟ وانما القانون هو العقل الكلى .. واذا اراد العقل الكلى للأسباب ألا تتأدى الى نتائجها فأنها تتخلف ــ فالجاذبية لا تفعل فعلها فى الأجسام ، والنار لا تحرق ما تسلط عليه من الأشـــياء ــ والذين عرفوا القوانين التى يتحدث عنها الدكتور لا سبيل لهم الى الحرية ، وانما السبيل مفتوح للذين عرفوا العقل الذى رتب سلسلة الحوادث التى تنبعث عنه فى كل لحظة ترتيباً هو من اللطف ، ومن الدقة ، ومن الأنضباط ، بحيث ظنه الغافلون قانونا يعمل فى المادة باستقلال عن مؤثر خارج المادة ، كما حدث لماركس فى فلســـفته المادية ..

التوحيد يقول : ان ما نسميه اسباباً فى مفهوم عقولنا العادى ، وننتظر منه نتائج ، ليس ، فى حقيقته ، اسباباً تؤدى الى نتائج وانما هو ترتيب للمحل ليستعد لتلقى الفيض الألهى ، فى كل لحظة ، فتكون بذلك النتيجة المرجوة .. فكأن المحل قد يترتب ، أو قل الأسباب قد تتخـــذ باتقان تام ، ثم ، ان لم ينبعث الأذن من الله ، لا تكـــون

النتيجة التى يقوم فى عقولنا أنها لا تتخلف .. فنحن قد نعد النار على أحسن ما تكون ، ونستيقن أنها ستشوى اللحم الذى نعرضه لها ، ولا يقوم فى مألوف علمنا انها قد تتخلف ، ولكن التوحيد يقول : ان كل الذى فعلناه نحن بأعداد النار على خير ما تكون للأحراق هو ان المكان استعد لتلقى الاذن الألهى بالاحراق ، فأن لم ينبعث الأذن لا يقع الاحراق ، وتتخلف النار ، بغير سبب نعرفه ، عن مألوف عادتها عندنا .. اكثر من هذا ، فان التوحيد يقول : من ظن ان النار تحرق ، ولا تتخلف عن الاحراق ، بعد ان اعددناها نحن ، على خير ما نعلم ، فأنه مشرك بالله .. أو ضعيف فى توحيده ، على أحسن حالاته ..

أما النمروذ ، صاحب ابراهيم الخليل ، فقد ظن انه سيكيد لأبراهيم كيداً لا قبل له به حين سفه آلهته ، فأمر ، فبنى حظيرة ، وجمع فيها نارا عظيمة ، ثم وضعوه فى المنجنيق ، مغلولا ، فرموا به فيها ، فظهر له جبريل ، وهو على وشك ان يلقى به فى النار ، فقال : هل لك من حاجة ؟؟ فقال ابراهيم : أما اليك فلا !! فقال جبريل : فالى ربك ، فقال : علمه بحالى يغنيه عن سؤالى .. فورد الخطاب القدسى الى النار : « يا نار !! كونى برداً ، وسلاما ، على ابراهيم » .. فكانت كما أمرت ، ولم تحرق منه غير وثاقه .. وأنما كان ذلك لأن ابراهيم عرف رب النار ، ولم يلق بالا الى القانون الذى ألفه الناس عن النار .. أم هل ترى انه كان يجد حريته التى وجد ، لو فعل كما يريد له الدكتور مصطفى محمود أن يفعل ، حين قال : « وسبيله الوحيد الى فعل حر هو معرفة هذه القوانين والفطنة الى استغلالها بالوفاق معها .. وهو أمر دائما ممكن .. » ؟؟ أم هل ترى ان الدكتور كان يريد من القوانين هذه القوانين التى تحدثنا عنها نحن ، ويريد بقوله : « والفطنة الى استغلالها

بالوفاق معها » الاستسلام الراضى بالله ؟؟ ذلك أمـر بعيد !! بعيد !! وانما هو يعنى القوانين الطبيعية المألوفة ..

هذا ختام نقاش نظرة الدكتور العلمية لهذا الموضوع فلناخذ فى نقاش نظـرته الدينية ..

النظرة الدينية

أول ما تجب الأشارة اليه هنا هو اضطراب الدكتور الواضح ، فى أمر التخيير ، والتسيير .. فهو يقول فى صفحة ٤٩ : « فأنت تشـاء ولكن قدرتك على أن تشاء وتختار هى منحة من الله ومشيئة عليا .. حريتك ذاتها منحة وعطية ومشيئة ألهية .. ومـن هنا كانت الآية .. وما تشاءون الا ان يشاء الله .. هى تقرير للحقيقة .. وليست كلاما متناقضا .. فهى تقـرر انك حر ولكن حـريتك منحة وعطية وهبة ومشيئة من المعطى » هذا ما قرره الدكتور .. فان كان الأمر كما قرر فهو يرى ، اذن ، التسيير ، لا التخيير .. لأن الذين يرون التسـيير لايرون أمرا غير هذا .. هم يرون انه مادامت « حريتك منحة وعطية وهبة ومشيئة من المعطى » فانت مسير من المعطى الى مايريد هو ، وان ظهر لك ، وهماً ، أنك تسـير الى ماتريد أنت .. ذلك انه ، فيما يظهر لهم ، قد أودع التسيير فى المنحة ، ولكنه أودعه بصورة خفية ، تناهت فى الخفاء ، واللطف ، حتى جاز عندك وهم أنك حر ، ومخير ..

والخطأ الجسيم الذى ما كان ينبغى لمفكر فى مستوى الدكتور ان يتورط فيه يجىء فى صدر بحثه ، فى رأى القرآن ، فى الموضوع ، وذلك فى صـفحة ٣٢ ، فهو يقول : « ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة فإنه يكتفى بالومض والرمز والاشارة واللمحة فيقرر أولا ان حرية الانسان كانت بمشيئة الله ورغبته ومراده .. وان مايجرى من حرية الانسان لا يجرى اكراها للخالق ولا اكراها للمخلوق ، وانما

بهذا قضت المشيئة » .. اقرأ مرة أخرى قوله .. « وان مايجرى من حرية الانسان لا يجرى اكراها للخالق ولا اكراها للمخلوق » .. ان هذا القول يقتضى ، ليكون صحيحا ، ان تكون حرية المخلوق مصاقبة ، ومساوية لحرية الخالق ، أو قل لمرضاة الخالق ، فهو لايقع منه مايوجب مصادرة حريته ، حتى يجرى عليه الاكراه .. وهذا أمر لا يقول به عاقل .. وهو أمر لايقول به الدكتور ، أيضا ، بهذه الصورة .. فلم يبق الا ان الدكتور لم يتصوره بدقة كافية ، ويكفى ان يقال فى دحضه ان الانسان جاهل ، والله عالم ، والله هو الذى يعلم الانسان مالم يعلم : « علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » .. ولايمكن الا ان يكون الجاهل مكرها ، فى بعض الاحيان ، على تعلم ماينفعه : « كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا ، وهو شر لكم ، والله يعلم ، وانتم لا تعلمون .. » ولكن هذا الذى قررناه غير فائت على الدكتور وهو حين تورط فى قوله : « وان مايجرى من حرية الانسان لا يجرى اكراها للخالق ولا اكراها للمخلوق » لم يكن يقدر ما قدرنا ، وانما كان مشغولا بأمر آخر ، هو ان حرية الانسان مطلقة فى منطقة ضميره ، وسريرته .. اسمعه يقول !! (ان السريرة هى محل الابتلاء ومحل المحاسبة والسريرة هى السر المتجاوز للظروف والمجتمع والبيئة والتربية كما اسلفنا فى شرحنا المسهب .. فهى المبادرة المطلقة .. والابتداء المطلق الذى اعتقه الله من كل القيود .. انها روحك ذاتها وهى الكاشفة عن حقيقتك بمثل ما تكشف بصمة اصبعك عن فرديتك . وروحك فيها من حرية الله لأنها نفخة منه « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ولان فيك ذلك القبس من الله ولانه كرمك بحرية الارادة

فانت محاسب على هذه الحرية . وهذا منتهى العطاء الألهى .. ومنتهى العدل أيضا) هذا ما قاله الدكتور فى صفحتى ٣٩ و ٤٠ ..

ان الدكتور مشغول بأمر الحرية المطلقة : « المبادرة المطلقة والابتداء المطلق الذى اعتقه الله من كل القيود » .. والشىء الواضح هو ان الدكتور قد لبس عليه فى هذه الامور ، من الدقائق العرفانية .. وأول ما تجب الاشارة اليه هنا هو ان الله لم يعتق من « كل القيود » غير نفسه — غير ذاته الساذج — وحتى الذات الساذج ، انما جاء عتقها ، من كل القيود ، من قبيل انها غنية عن الاغيار .. والا فانه ، تبارك ، وتعالى ، قد قيد ذاته ، بمحض الفضل .. قيدها بالاسم « الله » .. وقيد الاسم « الله » بالصفة : « الرحمة » .. فقال : (الله « الرحمن » « الرحيم ») .. وقال تعالى عن قيد ذاته العلية « بالرحمة » : « قل لمن ما فى السموات والأرض ؟؟ قل لله !! كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم الى يوم القيامة ، لاريب فيه .. الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون » .. وهذه الرحمة الواسعة التى قيد بها تعالى نفسه انما هى رحمة « الرحمانية » .. وهى ، لسعتها ، يدخل فيها حتى العذاب ، لأن وراءه حكمة .. ورحمة « الرحمانية » هذه قيدها أيضا فجاءت عنها رحمة « الرحيمية » .. قال تعالى : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، انه من عمل منكم سوءا ، بجهالة ، ثم تاب من بعده ، وأصلح ، فأنه غفور رحيم » وعن رحمة « الرحمن » الواسعة ، التى خصصت بالقيد ، فاصبحت رحمة « الرحيم » ، قال تعالى : « عذابى اصيب به من اشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء .. (هذه الرحمانية) فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون » .. هذه ، من قوله تعالى « فسأكتبها للذين يتقون » والى قوله تعالى : « بآياتنا يؤمنون » ،

انما هى رحمة « الرحمن » المقيدة ، والمتنزلة بهـذا القيد ، الى منزلة رحمة « الرحيم » .. ومعلوم ان كل تنزلة من تنزلات الذات تتقيـد بالتنزلة التى سبقتها .. فالعلم ، مثلا ، مقيد بالذات . والارادة مقيدة بالعلم ، والقدرة مقيدة بالارادة ..

ومعلوم أيضا ، عند أهل التمكين ، ان الانسان انما هـو تنزل الذات الى مقام التجسيد .. والانسان الكامل هو أول قابل لتجـلى الذات الألهية المطلقة .. هو قيد الذات المطلقة .. وهو ، لما كان فى صيرورة مستمرة ، وتكوين مستمـر ، يطلب الذات المطلقة ، أصبح صـاحب نصيب فى الاطلاق بما يؤول اليه أمره ، ولكنها أيلولة فى السرمد .. فهو ، اذن ، ساير الى المطلق، ولن يبلغه ، وذلكلسببواحد بسيط هو ان المطلق لا يبلغ ، والا لما كان مطلقا .. وكل ما هناك ان الانسان كلما ترقى نحو الاطلاق أدخل طرفا من الاطلاق فى القيد ، وظل الاطلاق فى اطـلاقه ..

والانسان الكامل فى الملكوت .. ونحن نحـاول ان نحققه فى الأرض ، وذلكمقدر لنا ، لأن فينا «جرثومته» .. فنحن نسعى ، سعيا حثيثا ، للوصول اليه : « يأيها الانسـان انك كادح الى ربك كدحا ، فملاقيه » .. والانسـان الكامل ليس مطلقا ، وانما هو منفتح على الاطلاق .. وهو ، انما لم يكن مطلقا ، لانه محتاج الى المطلق ، وذلك معنى انفتاحه على الاطلاق .. فاذا كان الانسان الكامل ، فى كماله ، فى ملكوته ، لم يعتقه الله من كل القيـود ، فما ظنك بالانسـان فى الأرض ، وهو لم يشم شميم الحرية الا لان فيه « جرثومة » الانسـان الكـامل ؟؟

ان الانسان مقيد ــ وهذا نفسه هو معنى قولنا ان الانسـان مسير ــ الانسان مقيد بشتى القيود ، وهو يتحرر مـن القيود كلما

علم ، وارتقى فى درجات القرب من الله .. وهو لن يكون حرا مطلق الحرية ، لان الله هو قيده الأخير ، وذلك قيد سرمدى .. وهذا المعنى هو المشار اليه فى قول الله ، تبارك ، وتعالى ، حين قال : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ، الا ان تتقوا منهم تقاة .. ويحذركم الله نفسه .. والى الله المصير » .. فبعد ان حذر من موجبات القيود فى المنازل القريبة ، جاء ليحذر من موجباتها فى المصير : « ويحذركم الله نفسه » .. ثم ليدل على السرمدية غير المتناهية التى يظل هـذا التحـذير قائما فيها قال : « والى الله المصير » .. وذلك مصير لا تنقضى صيرورته .. وفى نفس هذا المعنى ، ورد ، فى مقام آخر ، قوله ، تبارك ، وتعالى : «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .. وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا .. ويحذركم الله نفسه .. والله رءوف بالعباد» . ومعنى قوله ، تبارك ، وتعالى : « والله رءوف بالعباد » انه ، تعالى ، فتـح قلوبهم على الاطلاق ، ويسر لهم ان يحيطوا ، كل حـين ، بشىء منه ، به يزيد كمالهم كمالا .. « ولا يحيطون بشىء من علمه ، الا بما شاء » .. وهو يشاء لنا ، بمحض فضله ، ان نحيط بشىء من علمه كل لحظة .. وعن هذه المشيئة وردت الاشارة ، فى قوله تعالى : « كـل يوم هو فى شأن » .. وانما شأنه ابداء ذاته المحجبة لعباده ليعرفوه .. وليس يومه اربعا وعشرين ساعة ، وأنما هو « زمنية » ابداء الذات ، وتلك زمنية تتناهى فى الصغر حتى لتكاد ان تخرج عن الزمان ..

وفى معنى مايحذرنا الله ، تبارك ، وتعالى ، نفسـه ، يحذرنا أنفسنا .. فأنه ليس هناك ، غيرها ، قاطعا لنا عنه .. ونفس كل منـا نفسان : نفس دنيا ، ونفس عليا .. فأما النفس الدنيا فهى الحيوان .. وأما النفس العليا فهى الانسان الكامل ، الذى قلنا ان فينا «جرثومته»

.. وما ترقينا الا رفع أنفسنا الدنيا نحو أنفسنا العليا .. ونفسنا العليا من نفسه ، تبارك ، وتعالى ، فذلك معنى قوله : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .. فأن هذه النفس الواحدة هى نفسه ، تبارك ، وتعالى .. ونفسنا الدنيا من نفسنا العليا ، وذلك معنى قوله : «وخلق منها زوجها» ، من سياق الآية السابقة نفسها .. « يأيها الناس !! اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » .. فمن نفس الرجل العليا خلقت نفسه الدنيا فى تنزل .. وذلك ما اشارت اليه الآية الكريمة : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه اسفل سافلين » .. ومن نفسه الدنيا خلقت زوجته ــ امرأته ــ فى تنزل هو انبثاق عنه خارجه .. فالمرأة زوجه فى الخارج .. ونفسه الدنيا زوجه فى داخل بنيته .. والسياق السالف من قوله تعالى : « وخلق منها زوجها » يتسع للمعنيين ، وانما يخصصه بالمرأة قوله تعالى ، فى مواصلة السياق : « وبث منهما رجالا كثيرا ، ونساء » ، وذلك حين يكون المعنيون الرجال الحسيين ، والنساء الحسيات .. وسياق الآية فى تمامه هو : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ، ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به ، والارحام .. ان الله كان عليكم رقيبا » وتنزلات النفوس هذه هى التى جعلت كل نفس عليا تسيطر على النفس التى دونها .. والقاعدة العرفانية هى « لكل لطيف سلطان على كل كثيف » ، ذلك بأن كل لطيف انما هو أحدث عهداً بربه من كل كثيف .. وهناك قولة تقول « للعارف على الجاهل ولاية طبيعية » وهى مأخوذة من سيطرة اللطائف على الكثائف .. وهذه السيطرة هى السر فى قوامة الرجال على النساء ، حيث قال ، جل من قائل : « الرجال

قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم » ..

النفس السفلى

ولما انحطت النفس السفلى عن النفس العليا ذهبت الى أقصى درجات الانحطاط ، وهو عندنا ابسط صور المادة ، وتلك هى ذرة غاز الهايدروجين .. وعن انحطاطها ، الى أقصى درجات الانحطاط ، وردت الاشارة فى قوله تعالى : « ثم رددناه اسفل سافلين » .. ثم هى ، من تلك الدرجة البعيدة ، اخذت تستأنف سيرها راجعة الى الله بمحض الفضل الالهى ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى ، بعد الآية السالفة الذكر : « الا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات .. فلهم أجر غير ممنون » .. وهذا الأجر غير الممنون انما هو تعلق النفس السفلى بالنفس العليا .. وقد ظهر هذا التعلق فى هذه المرحلة من مراحل الرجعى فى صورة العقل .. فالعقل هو الزمام الذى به تقود النفس العليا النفس السفلى .. أو، قل بعبارة أخرى ، ان العقل هو وسيط تطوير النفس السفلى نحو النفس العليا ، لأن عليه قام التكليف بشريعة النهى والامر ، والحرام والحلال .. فهو ، بالتزامه جانب الحلال ، وحمله اياها عليه ، واجتنابه جانب الحرام ، وازعاجه اياها عنه ، يتسامى بها عن تسفلها نزوعا الى العلا .. وهو ، حين يتجافى عن الحرام ، ويزعجها عنه ، انما يضطرها لكبت بعض رغائبها الخاصة استجابة لنداء الواجب ، الصادر من النفس العليا ، التى هى فى اتصال مع الله ..

ان صورة الامر ، ببساطة ، هى ان النفس السفلى نفس حيوانية حافزها للسعى هو اللذة ، من حيث هى لذة ، فلما هبط عليها العقل من جهة النفس العليا انما هبط عليها ليسوس شهوتها ، فلا يسمح لها منها

الابما لايعوق تساميها نحو النفس العليا .. وهذا هو الغرض وراء التكليف بشريعة الامر ، والنهى ، والحلال ، والحرام .. ولقد لبثت النفس السفلى تتطور عن طريق الجسد ، قبل ظهور العقل ، زمنا سحيقا ، وردت اليه الاشارة فى قوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟؟ » .. وهذا الزمن السحيق هو الذى تمت خلاله التسوية المعنية فى قوله تعالى : « فاذا سويته » .. فلما تأذن الله للنفس السفلى ان تتحرك بسرعة نحو النفس العليا ركب فيها العقل ، وأمره بسياسة شهوتها .. وهذا العقل هو روح الله المنفوخ ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « ونفخت فيه من روحى » وذلك من الآية الكريمة : « واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة ، كلهم ، اجمعون * الا ابليس ، أبى ان يكون مع الساجدين » .. ولم يكن سجود الملائكة له سجود عبادة ، وانما هو سجود تسخير لأعانته على البر ، والخير .. ولما أبى ابليس ان يكون مع الساجدين انما كان ذلك اشارة الى تخذيله الأنسان عن الخير ، والبر ، ومن ثم ، عن التسامى نحو النفس العليا ، ابتغاء تسفيله ، وجذبه الى اسفل سافلين ، حيث كان آنفا ، وحيث موطن ابليس الآن ..

العقل

العقل اذن هو الوسيط بين النفس العليا والنفس السفلى ، وهو الذى به سير الله النفس السفلى نحو النفس العليا لتتم هدايتها الى موطنها الأول ، حيث مشارق الانوار .. قال تعالى فى ذلك : « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما انا عليكم بوكيل » ..

قوله : « من اهتدى فأنما يهتـدى لنفسه » يعنى لنفســـه العليا .. وقوله : « ومن ضل فانما يضل عليها » يعنى يضل فى نفسه السفلى بالسير فى ظلمات سراديب الشهوة .. قوله : « قـد جاءكم الحـق » يعنى « الحق » سبب الهداية ، وهو العقل ، فى المكان الأول ، والشرع ، فى المكان الثانى .. وقد اسلفنا القول ألى ان العقل ، ليسـير النفس السفلى نحو النفس العليا ، قد سيطر على شهواتها بميزان الحرام والحلال ، فكبت بعضها ، وسرح بعضها يمارس نشـــاطه .. ووقع الكبت فى منطقة مابين اعماق النفس السفلى ، حيث مركز الشهـوة ــ القلب ــ ومابين اعلاها ، حيث مركز السيطرة ــ العقل ..

والعقل ، لما كان ممـدودا بالوحى ، فقـد أصبح مفتوحـا على النفس العليا .. وهو ، لما كان مقيدا بالشرع ، فقد أصبح مسيرا الى النفس العليا .. والكبت ، فى منطقة مابين العقل والقلب ، يقع فى سبع طبقات ، هى ماسميت بالنفوس السبع .. أدناها للقلب الامارة .. فاذا سارت شـــوطها الى ان ردها العقل ، وحـال بينها وبين تنفيذ أمرها بالسوء ، انكسرت موجتها ، فاخذت فى طريق العودة .. وهو طريق غير طريقها الذى سلكته أولا ، ولكنه مواز له .. وعند انكسارها ، راجعة ، تكون فى مرتبة النفس اللوامـة .. ثم هى ، اذا وصلت الى حاشية القلب تكون قد قطعت مراحل الملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، واصبحت فى موازاة النفس الامارة ، غير أن منزلتها هى منزلة النفس الكاملة .. ومع ذلك ، فهى ليست فى سـويداء القلب ، وانما هى على حواشيه .. وتطلب فى ترقيها زيادة كمالها ، كل حين ، وهى ، كلما كملت ، قربت من سويداء القلب .. وفى السويداء كمالها المطلق .. وسيرها الى كمالها المطلق سير سرمدى ، لاينقضى .. وكمال النفس المطلق فى وصـــولها عائدة الى نفس الله ، حيث تنزلت أول

امرها .. وفى سويداء كل القلوب ذات الله ، قلوب الاحياء ، وقلوب الجمادات ـ مراكز ذرات المادة ـ

الضمير والسريرة

عندما يتحدث الدكتور عن الضمير ، وعن السريرة : يظهر الخلط فى حديثه بصورة تدل على عدم الدقة فى المعانى .. فهو يقول من حديثه الذى اسلفنا ايراده من صفحتى ٣٩ و٤٠ : (ان السريرة هى محل الابتلاء ومحل المحاسبة والسريرة هى السر المتجاوز للظروف والمجتمع والبيئة والتربية كما اسلفنا فى شرحنا المسهب .. فهى المبادرة المطلقة والابتداء المطلق الذى اعتقه الله من كل القيود .. انها روحك ذاتها وهى الكاشفة عن حقيقتك بمثل ماتكشف بصمة اصبعك عن ترديتك .. وروحك فيها من حرية الله لأنها نفخة منه ..

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ولأن فيك ذلك القبس من الله ولأنه كرمك بحرية الارادة فانت محاسب على هذه الحرية . وهذا منتهى العطاء الالهى .. ومنتهى العدل أيضا » هذا ما قاله الدكتور !! فماهو الحق فى امر السريرة ؟؟ أول ماتجب الاشارة اليه هو أن السريرة هى منطقة كتمان السر .. وكتمان السر عكسه الجهر بالسر .. وكل سر ، دونه سر أدق منه ، تكون له منطقة أدق ، فى السريرة ، تقابله .. قال تعالى فى ذلك : « وان تجهر بالقول فأنه يعلم السر ، وأخفى » ههنا اشارة الى الجهر ، وهو التعبير عن السر بالقول ، واشارة الى السر ، وهو حديث العقل دون الجهر ، واشارة الى ماهو أخفى من السر : « السر وأخفى » .. وتتفاوت منازل الخفاء حتى تصل الى منطقة النفس الكاملة .. فليست للانسان سريرة واحدة ، وانما له سرائر كثر ، قال تعالى فى ذلك : « فلينظر

الأنسان مم خلق ؟ * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * انه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر * فماله من قوة ولا ناصر » .. لكل منزلة من منازل النفوس سريرة تقابلها ، وتلك سريرة تدق كلما علت مرتبة النفس فى درجة الكمال ، فهناك السريرة فى مرتبة النفس اللوامة .. وهذه الاسم الغالب عليها هو الضمير .. وهناك السريرة فى مرتبة النفس الملهمة .. وهذا هو الاسم الشائع عندما نتحدث عن السريرة باعتبارها مكان السر ، والى ذلك الاشارة فى قوله تعالى : « قالوا : ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل .. فأسرها يوسف فى نفسه ، ولم يبدها لهم ، قال : انتم شر مكانا ، والله اعلم بما تصفون . » .. والسرائر ، عندما تتداعى الى النفس الكاملة ، تكون قد قطعت طبقات العقل ، وهو مرحلة الادراك «الشفعى» واطلت على القلب ، وهو مركز الادراك « الوترى » .. وقد وردت الاشارة الى السر فى طبقات العقل ، حيث الادراك الشفعى ، والى السر فى سويداء القلب ، حيث الادراك الوترى ، فى قوله تعالى : « واسروا قولكم ، أو أجهروا به .. انه عليم بذات الصدور * الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » .. قوله « واسروا قولكم » ، اشارة الى الاسرار فى منازل السريرةالمختلفة فى مقابل منازلالنفوس .. قوله « انه عليم بذات الصدور » اشارة الى سريرة السرائر ، التى لا يعلمها الا الله ، والى هذا السر الدقيق فى سريرة السرائر ، والذى لا يعلمه الا هو وردت الاشارة من الآية الثانية « ألا يعلم من خلق وهو ، اللطيف الخبير ؟ » .. فأن لطف السر ، ههنا ، يقابله اسم الله اللطيف، فانه هو كفؤه ، بل هو هو .. فانت حين تتحدث عن السريرة التى تبتلى ، فى قوله : « يوم تبلى السرائر » ، لا تعدو أن تكون متحدثا عن السر فى طبقات العقل ، لأن هذا السر هو مجال الأيمان ، ومجال

النية ، اللذين لا يكون عمل صالحا بغيرهما معـا .. والسر فى منطقة العقول ليس معفيا من القيود ، فانه انما سمى العقل عقلا لأنه معقول ، ومقيد .. هو مقيد بعجزه عن الادراك فى منطقة الوترية .. ومن ثم ، فأن قولك : « ان السريرة هى محـل الابتلاء ، ومحل المحـاسبة ... والسريرة هى السر المتجاوز للظروف والمجتمع والبيئة والتربية كمـا اسلفنا فى شرحنا المسهب .. فهى المبادرة المطلقة والابتداء المطلق الذى اعتقه الله من كل القيود » ، قول يتناقض مع بعضه ، فى المكان الأول، ثم انه غير دقيق، الدقة العرفانيةالكافية، فى المكان الثانى .. كأنكتريد سر الأسرار فى سويداء القلوب ، وهذا ليس هو الانسان ، وانما هو ذات الله ، وهو المقيد للانسـان ، والمسـير له .. والى ذلك التسيير الاشارة بقوله تعـالى : « يأيها الانسـان انك كادح الى ربك كدحا ، فملاقيه » .. واليه أيضا الاشـارة بقوله تعالى : « ان كل مـن فى السموات ، والأرض ، الا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » ..

من خصـائص القرآن

ان الانسان مسير ، مافى ذلك أدنى ريب ، وهذا الأمر هو أصل التوحيد .. والقرآن كله موظف لتوكيده ، ولكن فهمه يحتـاج الى اطلاع على دقائق اسرار القرآن.. وانت فى ذلك تقول من صفحة ٣٢ : « ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفـة فانه يكتفى بالومض والرمز والاشـارة واللمحة . »

فكأنك تريد أن تقول ان القرآن لو كان كتاب فلسفة لأستقصى هذا الأمر استقصاء ، ولكنه ، لما كان كتاب دين ، لم يكن ذلك مجاله.. والقرآن ليس كتاب فلسفة ، مافى ذلك أدنى ريب ، وانه ليتنزه عـن

ذلك لأنه فى معـارفه يعطى منطقة الفلسفة ، ويتجـاوزها الى منطقة وراءها ، حيث تنتهى قوة الادراك الشفعى ـ العقل ـ وتبتدىء قوة الادراك الوترى ـ القلب ـ ..

ولأن القرآن كتاب دين ، وليس كتاب فلسـفة ، فانه قد ركز على تحصيل العلم عن طريق الممارسـة ، وليس عن طريق القراءة ، والاطلاع .. ومراده من توكيد الممارسـة ـ العبادة والمعاملة ـ ترويض العقل ليتخلص من أوهام ماتعطى ظواهر الأشياء ، كى ينفذ الى ماعليه الامر فى بواطنها .. وهو ، لكى يصل الى غرضه هذا ، يتخذ الظواهر مجازا الى البواطن، فهو لا يعارض ماتعطى بدائه الحواس، ولا ماتعطى بدائه العقول.. فاذا كان النظر يعطى ان الأرض مسطحة فأن القرآن لايصادم هذه البداهة المرئية ، وانما يسـير فى أتجاهها ، فيقول : « والسـماء بنيناها بأيد .. وأنا لموسـعون * والأرض فرشـناها ، فنعم الماهدون » ويقول : « الذى جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وانزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمـرات رزقا لكم .. فـلا تجعلوا لله اندادا ، وانتم تعلمـون » ويقول : « والله جعل لكم الأرض بسـاطا * لتسلكوا منها سـبلا فجاجا » .. فانت لا تجد مايزعجك حـين تقـرأ عبارة : « والأرض فرشناها » .. أو عبارة : « جعل لكم الأرض فراشا » .. أو عبارة : « جعل لكم الارض بساطا » .. لان كل هذه العبارات تستقيم مـع ماتعتقده الحق فى أمـر الأرض كمـا يعطيك نظرك .. وانما انت لم تنزعج لأن القرآن قد جارى وهم حواسك ، ريثما يخلصك من هذا الوهم بتسييرك من ظواهر الأمور الى بواطنها .. وبواطنها ، فى هذا الأمر ، هى ما تعطيه العقول ، بعد غربلة معطيات الحواس .. ثم ان للعقول وهما ، كما للحواس وهم ، بيد أنه ادق واخفى .. والقـرآن

يجارى وهم العقول ، كما يجارى وهم الحواس .. ووهم العقول يتمركز فى توهم الأرادة ، ذلك بأن العقول تسيطر على حركاتنا الارادية ، فمدت لها هذه السيطرة الى ان توهمنا أننا نملك ارادة مستقلة ، بها نفعل ، أو نترك الفعل ، ويجىء القرآن فى هذا الباب متمشيا مع هذا الوهم ، ريثما ينقلنا منه ، نقلا وئيدا ، من خلال ممارسة العبادة .. فهو يقول ، مثلا ، فى ذلك : « لمن شاء منكم ان يستقيم » .. وعلى هذه الآية ، وما تقرر ، قام التكليف ، وشرعت الشريعة ، واصبحنا مامورين ، ومنهيين .. فاذا نهضنا بعبء تكليفنا بتشمير ، وجد ، أدانا ذلك التشمير ، والجد فى العبادة ، الى ان نستيقن ، بفضل تجويد التوحيد ، ان الأرادة لمريد واحد ، وان المشيئة لمشيء واحد .. وحينئذ يخاطبنا القرآن فى مستوى جديد فيقول : « وماتشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين » .. قوله : « لمن شاء منكم ان يستقيم » ، آية شريعة .. وقوله : « وما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين » ، آية حقيقة .. والشريعة ظاهر ، والحقيقة باطن الشريعة .. والحكمة فى نهج القرآن هذا النهج هى ان القرآن كتاب عقيدة فى التوحيد .. والعقيدة فى التوحيد ، فى حد ذاتها ، عقبة على المدعوين اليها ، فلم يرد الحكيم ان يضيف الى عقبة الدعوة الى التوحيد عقبة أخرى بمعارضة أوهام الحواس ، وأوهام العقول ، من البرهة الأولى .. وأهم من هذه ، ان بواطن الأمور ليس اليها من سبيل ، الا سبيل اعتبار ظواهرها .. والله تعالى يقول فى ذلك : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق .. أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟ » .. فآيات الآفاق ظواهر ، وادراكها عن طريق الحواس الظاهرة ، وعن طريق العقول التى تستمد مدركاتها من معطيات هذه الحواس .. وآيات النفوس

بواطن ، وهى انما تدرك بالعقـول المروضـة بأدب الشريعة ، وبأدب الحقيقة ــ بأدب القرآن ــ هذا النهج الحكيم من القرآن يقـوم على أسلوبين : اسلوب طردى ، واسـلوب عكسى •• فاما الأسـلوب الطردى فيبدأ بتعليمنا من الخارج ، ويمشى نحو الداخـل ، حتى اذا وصل بهذا النهج الى اعمـاق نفوسـنا ــ وتلك هى مرتبة النفس الكاملة ــ بدأ بالاسلوب العكسى ، وهو تعليمنا عن كوننا الخارجى من داخلنا •• ذلك بأنا نكون،حينئذ، قد بلغنا مشارف الحقيقة الازلية المركوزة فى سويداوات قلوبنا •• وهو يقول فى ذلك ، بصورة تشبه التوبيخ ، من الآية السـالفة : « أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟؟»فقولك ، اذن ، ان « القرآن كتاب دين، وليس كتاب فلسفة»، لايجد تبريره الا فى أعتبار ان القرآن كتاب تسليك ، وانه يختط السير من ظواهر الأمور الى بواطنها برسم اسلوب العبادة ، واسلوب المعاملة •• والقاعدة فى تعليمه البواطن عـن طريق الظواهر قوله تعـالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » •• وقول المعصوم : « من عمل بما علم ، أورثه الله علم مالم يعلم » •• فهو يعنى هنا : من عمل بما علم مـن ظاهر الشريعة ، علمه الله ما جهل من بواطن الحقيقة ••

ثم ان القرآن مثان •• قال تعالى فى ذلك : « الله نزل احسـن الحديث ، كتابا ، متشابها ، مثانى •• تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله •• ذلك هدى الله يهدى به من يشاء •• ومن يضلل الله فماله من هاد » فهـو يسـوق معانيه : معنيين ، معنيين •• معنى بعيدا عند الرب ، ومعنى قريبا تنزل لأدراك العبد •• والمعنى البعيد هو المعنى الباطن ، والمعنى القريب هو المعنى الظاهر •• أو قل ، انشئت ، ان المعنىالبعيد هو الحقيقة ؛ وان المعنى القريب هو الشريعة •• والشريعة ، حين تمارس ، فى التطبيق ،

وفى المعاملة ، تكون مجازا ، وطريقا ، يؤدى بالسالك الى الحقيقة .. قال : « ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم » ، فاقام الجلود مقام الظاهر ، واقام القلوب مقام الباطن ..

ان خصائص القرآن كثيرة ، وما اوردناه هنا يكفى للدخول على فهم الآيات التى أوردتها انت فى فصل « مخير أم مسير » من كتابك هذا الذى نحن بصدده الآن ..

فهم القرآن

ومن خصائص القرآن انه لايفهم عن طريق اللغة وحدها ، وانما يفهم عن طريق التوحيد .. واللغة انما تأخذ مدلولاتها من المعانى التى يفيضها التوحيد على من جودوا التوحيد .. ومن أجل التمثيل على ذلك نذكر « علم » الله الذى كثيرا مايرد فى تفسيرك للآيات .. فانا عندما نكون ضعافا فى التوحيد نقيس علم الله بعلمنا نحن .. ونحن انما نعلم بالجارحة ــ بالعقل ــ وعلمنا قد يتخلف عن التنفيذ ، وذلك لمكان نقصه .. فنحن قد نعلم شيئا ثم لا نملك تنفيذه .. وعلم الله يختلف عن ذلك ، فهو تعالى لا يعلم بجارحة ، وانما يعلم بذاته .. فاذا قال : « والله يعلم ماتصنعون » فان معنى هذا : ان اللهيصنع لكم ماتصنعون لأنفسكم .. وهذا يسوق الى وحدة الفاعل .. وفى تنزلات علم الله يجىء علمه باسمائه ، بعد علمه بذاته ، ثم يجىء علمه بصفاته ، ثم علمه بأفعاله .. أى العلم فى منازل الذات ، والأسماء ، والصفات ، والافعال .. فهو تعالى قد يتراخى تنفيذ علمه فى مراتب التنزلات ، ولكنه ، فى منازل المعارج الى الذات ، ينفذ ، من غير ادنى ريب .. وههنا يدخل عنصر الزمن ..

قال المعصوم : « ان الله لا يعجل بعجلة احدكم » .. وقال تعالى فى ذلك : « انهم يكيدون كيدا * واكيد كيدا * فمهل الكافرين .. امهلهم رويدا » وقال تعالى : «فلا تعجل عليهم، انما نعد لهم عداً » .. وليس شىء خارجا عن ملك الله ، فان له الدنيا ، والآخرة .. قال تعالى : « ان علينا للهدى * وان لنا للآخرة ، والأولى » فمن لم يؤمن اليوم فهو مؤمن غدا ، لامحالة ..

فاذا استقر هذا فى الأذهان فأن خطأ فهمك للقرآن يتضح فى قولك : « لقد رفض الله ان يكره الناس على الأيمان كان هذا فى امكانه ولكنه اراد للانسان ان يكون حرا مختارا يختار الأيمان أو الكفر كما يشاء » .. وقد كان هذا القول منك فى صفحة ٣٢ ، وكان تعليقا على الآية الكريمة : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض ، كلهم ، جميعا ، افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » .. فأن الفهم الحق يقضى بان الله قد شاء لمن « فى الأرض كلهم، جميعا » ان يؤمنوا ولكن فى المآل ، وليس فى الحال .. ومثل هذا يقال عن قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » .. وقياس الدكتور علم الله بعلمنا نحن يظهر جليا فى قوله من صفحة ٣٧ وصفحة ٣٨ : « فقد علم مسبقا وسلفا بأن الانسان سيفسد فى الأرض وسيسفك الدم ويظلم نفسه ويظلم الآخرين .. ويستحق بذلك درجات متفاوتة من العقوبة .. كل هذا كان فى سابق علمه . وليس هذا بالجبر ولا بالحتم .. ولكن .. كما يحدث ان تتوسم فى احد أبنائك حب العلم والتحصيل فتمده بالتسهيلات والتيسيرات وتبعثه الى الخارج فى بعثة .. وترى فى الآخر العكوف على الفساد وصحبة السوء فتكتفى بماله من حظ محدود من التعليم فى بلده .. ولو فعلت عكس ذلك لكنت ظالما .. ولأكرهت ابناءك على غير طبائعهم ..

كما ان هذا التوسم المسبق ليس فيه عنصر اكراه ولاجبر ..
انما هو مجرد سبق علم .. فانت تعلم مسبقا من اخلاق ولدك بأنه سوف ينصرف الى اللعب ويهمل كتبه .. فاذا انصرف الى اللعب بالفعل واهمل كتبه فان ذلك لايكون اكراها منك ولاجبرا ولاغنوة وانما لأن هذه طبيعته التى سبق علمك اليها .. وانما تأتى التجربة فتكشف له نفسه .. وبذلك يحق عليه العقاب صـدقا وعدلا .. فقـد علم من نفسه مالم يكـن يعـلم » ..

أما نحن فقد أسلفنا القول الى خطأ هذا القياس .. فأن ماعلمه الله فعله ، ان لم يكن فى العاجل ، ففى الآجل .. والله تعالى يقـول عن فعله : « انا كل شىء خلقناه بقدر ❊ وما أمـرنا الا واحدة كلمح بالبصر » .. فأما أمره فهو علمه بالذات ، وأما قدره فهو تنزل علمه فى مراتب الاسماء ، والصفات ، والافعال .. والعلم انمـا نزل لهـذه المراتب لينفـذ فى الزمان ، والمكان .. ومن الزمان والمكـان ، الدنيا والآخرة .. والعلم بالذات خير محض ، وهدى لاضلال فيه .. ومن ثم ، فمصير كل ضال ، اليوم ، الى الهـداية ، غدا .. كان ذلك على ربك حتما مقضيا .. وفى ذلك يقول تعالى : « ان علينا للهدى ، وان لنا للآخرة ، والاولى » .. ههنا اشـارة الى القضاء ، والقدر .. اشار الى القضاء بقوله : « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » .. واشار الى القدر بقوله : « انا كل شىء خلقناه بقدر » .. والقضـاء هو سر القدر ، وهو خير محض ، ما للشر اليه من سبيل .. والقدر هو تنفيذ القضاء فى الزمان ، والمكان .. وهو قد اتسع للخير ، وللشر ، لأنه ، بدخوله فى الزمان والمكان ، قد دخل منطقة الثنائية ، وهى منطقة التعليم ، ومنطقة تذكير العقول بما نسيت .. قال تعـالى فى ذلك : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ..

وبين القضاء والقدر منازل عـلم الله فى التنزلات ، بين الذات ، والاسماء ، والصفات ، والأفعال .. فهل يخطر ببال أحد ان علم الله لاينفذ ، وانما يكون مجرد « سبق علم » ؟؟

والدكتور يقول : (حينما تقضى اللحظـة ان تختار فانت تختار نفسك بالفعل « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » .. وفى لفظ « اما » يبدو عنصر الأختيار واضحا محـددا) .. هذا ما قاله الدكتور ، فى صفحة ٤٤ .. فهو يفهم من الآية : ان الانسان أوقف فى مفترق طريقى الشكر ، والكفر .. وقيل له : أيهما تختار ؟؟ والفهم الواضح ان الانسان الواحد هدى سبيلى الشكر ، والكفر .. فهو ، تارة ، شاكر ، وهو ، تارة ، كافر .. وهذا يؤخذ من طبيعة النشأة .. وهو أيضا أس كمال النشـــأة .. قال المعصـوم ، فى ذلك « ان لم تخطئوا ، وتستغفـروا ، فسيأت الله بقوم يخطئون ، ويستغفـرون ، فيغفر لهم » .. فالانسان ، بجبلته ، خطاء ، وأوتى القابلية ليتعلم من الخطأ .. والخطأ يقابل ، من الآية ، كلمة « كفورا » ، والتعلم مـن الخطأ يقابل منها كلمة « شاكرا » .. فهو مسير الى الخطأ ، مسير الى الصواب ، من غير أن يشعر بهذا التسيير ، وذلك لمكان لطف التدخل فى حريته .. فالانسان الواحد هو شاكر فى آونة ، كفور فى أخرى .. فمن غلبت حالات شكره حالات كفره فهو مهتد .. ومن غلبت حالات كفره حالات شكره فهو ضال .. هذا لايمنع أن يكون فى الناس كفور لايعرف الى الشكر بلسان المقال سبيلا .. ولكن هـذا الكفور ، فى الحال ، سينتهى به الكفر الى الشكر ، فى المآل .. فأنك ، ان تزعم غير ذلك ، فقد ينتهى بك القول الى أن الشر أصـل فى الوجود ، كالخير تماما ، وهذا قول يرفضه التوحيد رفضا تاما .. فلم يبق الا أن الشر فرع ، والخير أصل .. وهذا يعنى ان من سار فى طريق الشرباختياره ،

كما تزعم أنت ، انما سير فيه تسييراً ، من غير أن يدرى أنه مسير ، فأن الطريق فى « الحقيقة » واحد ، ولكنه فى « الشريعة » طريقان ..

وأنت تقول من نفس الصفحة (« ونفس وما سـواها فألهمها فجورها وتقواها » أى فتح أمامها سبيل الخير والشر وتركها أمام الطريقين لتختار .. ولهذا قال فجورها وتقـواها ، ولم يقل « أو » تقواها ، لأنه فتح الطريقين معا ليجعل للنفس الاختيار ولم يجبرها على أحد الطريقين .. ولذلك أردف موضحا : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » ، فرد الفـلاح والخيبة للنفس المخـيرة ، وفى آية أخرى يوضح الأمر أكثر فيقول : « وهديناه النجدين » أى هـديناه الى مفترق طريقين يختـار أيهما .. ان النية حرة والسريرة حـرة فى اضمار ماتشاء .. أما الفعل فهو حر ومقـدور فى ذات الوقت) .. هذا ما تقوله أنت ، وهو قول يدل على أنك ترى أن التقوى والفجور طريقان ، مختلفان أصلا .. وترى أن من أتخذ طريق الفجور سيلج به الفجور الى غير نهاية .. هذا يفهم ، بالضرورة ، من قولك : « ولم يقل أو تقواها لأنه فتح الطريقين معا ليجعل للنفس الاختيار ولم يجبرها على أحد الطريقين » .. والخطأ ، فى مثل هذا الزعم ، هو ، كما أسلفنا القول ، انه يجعل طريق الفجور أصلا ، كطريق التقوى تماما .. وهذا أمر مختل فى ميزان التوحيـد ..

وليس هناك حجة لك فى ما أوردت من قوله تعالى : « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .. وزعمت أنه رد : « الفـلاح والخيبة للنفس المخيرة » .. فأنه انما رده الفلاح هنا يتمشى مع ظاهر الشريعة فقط .. فهـو الذي يسر الفلاح للنفس المفلحة ، وما كان لها منه بد .. وهو الذى يسر الخيبة للنفس الخائبة ، وساقها اليها ،

وما كان لها منها بد .. ثم هو نسب الفلاح للنفس المفلحة ، ونسب الخيبة للنفس الخائبة .. وما كان لأيهما يد بالفلاح ، ولا بالخيبة .. فأن كل نفس قد هديت فجورها ، وتقواها .. فهى فاجرة تارة ، ومتقية أخرى ، فمن غلب فجوره تقواه فهو الذى خاب ، ومن غلبت تقواه فجوره فهو الذى أفلح .. والله ، من وراء هذا وذاك محيط .. وقول الله تعالى : « وهديناه النجدين » شديد الوضوح ، فى ذلك .. اقرأ : « ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين » فالعينان مجعولتان ، والشفتان مجعولتان ، والنجدان مهديان .. فهو لا يملك امتناعا على أن تكون له عينان ، أو أن تكون له شفتان ، أو أن يكون له نجدان ، على حد سواء .. أما قولك فى فهم هذه الآية : « أى هديناه الى مفترق طريقين يختار أيهما » ، فانما هو قول أملته عليك رغبتك المسبقة فى أن يكون المعنى ملائما لما تريد أنت .. وأما قولك « والسريرة حرة فى اضمارها لما تشاء » ، فهو قول واضح الخطأ .. وأول ما تجب الاشارة اليه هو أن السريرة لا تضمر ، وأنما الذى يضمر هو العقل .. ويكون مكان الاضمار فى السريرة .. والعقل ليس حرا فى اضمار مايشاء ، مادام عاجزا عن أن يعلم مايشاء .. والله تعالى يقول : « ولا يحيطون بشىء من علمه ، الا بما شاء » .. فأصبحت مشيئة العقل فى أن يضمر فى السريرة مقيدة ، ومسيرة بمشيئة الله ، وهذا هو التسيير ، لا التخيير .. أما قولك : « أما الفعل فهو حر ومقدور فى ذات الوقت » ، فهو قول لايستقيم ، الا لدى النظرة الأولى ، فانه لدى النظرة الدقيقة ، وعند تمديد الأمور الى نهايتها المنطقية ، لابد أن يظهر أن الحرية محاط بها ، وأن القدر هو الأصل ، وذلك للسبب البسيط الذى ذكرناه ، وهو أن العقل لا يملك أن يعلم ما يريد ، فهو لا يملك ، اذن ، ان يكون حرا ، لا

فى الفكر ، ولافى الفعل .. وأنت تقول فى متابعة هذه الأفكار ، من صفحة ٤٥ : (وكل واحد منا له نصيبه من حرية الفعل .. والذى يقول بالجبرية سوف يقع فى مأزق حينما نسأله كيف يميز بين يده يحركها فى حرية ويكتب بها ما يشاء .. وبين يده وهى أسيرة ترتعش قهرا فى رجفة الحمى .. هنا أمامنا حالتان واضحتان ، حرية فى حالة الصحة ، وجبرية فى حالة المرض ولو كانت الجبرية التى يقول بها صحيحة لما أمكن ان يميز بداهة بين الحالين .. ولما أمكن ان تقوم الحالتان أصلا .. ان حرية الفعل اذن حقيقة .. والقدر أيضا حقيقة .. والمشكلة هى ان نحاول ان نفهم هذا الازدواج وكيف لا يلغى الواحد منه الآخر .. كيف لا يلغى القدر الحرية .. وكيف لاتلغى الحرية القدر .. وهذا أمر نستشفه من الآيات استشفافا .. فهى تلمح ولا تصرح ، حتى لا تلقى بالناس فى بلبلة . يقول الله فى كتابه «ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » ..

لو شاء لفعل ولكنه لم يفعل .. لأنه لم يشأ ان يقهرنا على ايمان فتنتفى بذلك حرية الاختيار التى جعل منها جوهر وجودنا .. فقد اراد لنا ان نكون أحرارا ، نؤمن أو نكفر .) هذا ما قلته أنت .. أما أنا فلست ارى هذا « المأزق » الذى تزعم ان من يقول بالجبرية يقع فيه حينما تسأله : « كيف يميز بين يده يحركها فى حرية ويكتب بها مايشاء .. وبين يده وهى أسيرة ترتعش قهرا فى رجفة الحمى ؟ » ..

فالأمر جد بسيط .. فان الحالتين من بعضهما .. فاليد ، قبل الحمى ، لم تكن حرة ، وانما هى مقيدة ، وكل ما هناك ان اسباب القيد لم تبرز لنا فى وضوح الا بعد الأصابة بالحمى .. فنحن قد كنا فى غفلة عن القيد ، وهو خفى ، فأتتبهنا من غفلتنا عندما صار القيد

ظاهرا للعيان .. وأنت ، كطبيب ، لابد تعلم ان كل جسم مهيأ للاصابة بالحمى ، وان جرثوم الحمى قد يكون كامنا فى أى جسم ، يترقب فرصة الظهور .. وقد نكون نحن غافلين عن كمونه ، ولاننتبه من غفلتنا الا بعد ظهور الحمى .. فهل تنفى غفلتنا هذه كون الجسم فى الحالتين ــ حالة الكمون ، وحالة البروز ــ مصابا بالحمى ؟..

ان الاختلاف اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع .. ههنا يظهر جليا ان الذى ساقك الى الخطأ هو الحركة الارادية فى اليد .. وحركاتنا الارادية هى التى سولت لأنفسنا ان تزعم ان لها ارادة .. والحذق يقضى بالا ننساق وراء هذا الوهم ، لأننا ، على ايسر تقدير ، نعلم ان هناك ، فى أهابنا ، حركات لاتخضع لأرادتنا .. وانت ، كطبيب ، تعلم أنه لا سيطرة لك على ضربات قلبك ، وتعلم ان الدم الذى يضخه قلبك يغذى الدماغ ، وفى الدماغ مراكز الحركات الارادية التى تظهر على اليد مثلا .. فكيف يجوز لك ان تتخيل ان حركة اليد حرة بعد كل هذا ؟؟ وأما قولك : « ان حرية الفعل اذن حقيقة .. والقدر أيضا حقيقة » ، فهو قول لا عبرة به ، لأن الحقيقة واحدة .. وأما قولك : « والمشكلة هى ان نحاول ان نفهم هذا الازدواج ، وكيف لا يلغى الواحد منه الآخر .. كيف لا يلغى القدر الحرية .. وكيف لاتلغى الحرية القدر ؟ » ، فقول صحيح ، ولكنا لا نجد انك اهتديت ، فيما قلت فى كتابك هذا ، أو هديت ، الى فهم الأزدواج .. واسوأ من هذا !! فأنك قد ضللت عنه .. فأنت ، عندالحديث عن آية : « ومارميت اذ رميت ، ولكن الله رمى » ، قلت : « يأتيك النصر بيدك وبيد الله فى ذات الوقت فتكون يدك لحظة الانتصار هى يد الله ورميتك رميته ومشيئتك مشيئته » وهذا القول لا يوضح الأزدواجية ،

وانما يمحقها .. والقـول الذى يوضـح الازدواجية فى الآية : « وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى » ، هو أن يقال : وما رميت ، فى « الحقيقة » ، اذ رميت فى « الشريعـة » ولكن الله رمى ، فى الحالتين .. فاليد التى رمت هى يدك انت فى ظاهر الأمر ، ولكنها يده هو فى باطن الامـر .. فالازدواجية انما هى بين « الشريعة » و « الحقيقة » .. فأنا ، فى حكم الشريعة ، نستقل بأرادة تفعل ، ونحاسب على الفعل ، وفى حكم الحقيقة ، الفاعل انما هو الواحد ..

وعلى هذا القياس فأن حرية الفعل التى تزعمها أنت انما هى حرية ظاهرة ، وهى ، فى الحقيقة ، محاط بها ، ومسيرة الى ما يريد المحيط .. فينتهى بها الأمر الى أن تكون تسييرا لا حرية ، وانما خفى الأمر علينا لأن الله ، تبارك ، وتعالى ، انما يسـيرنا عن طريق عقولنا ، ويتدخل ، فى هذا التسيير ، فى لطف بالغ ، حتى لقد جـاز علينا الوهم انا مخيرون .. وهاك آيات ، هن آية ، فى لطف تدخل الارادة الالهية فى الارادة البشرية لتسيرها ، من غير ان تزعجهـا : « اذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب اسفل منكم ، ولو تواعدتم لأختلفتم فى الميعاد .. ولكن ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا .. ليهلك من هلك عن بينة .. ويحيـا من حى عـن بينة .. وان الله لسميع عليم * اذ يريكهم الله ، فى منامك ، قليلا.. ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم فى الامر .. ولكن الله سلم .. انه عليم بذات الصـــــــدور * واذ يريكمـوهم ، اذ التقيتم ، فى اعينكم ، قليـلا ، ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمـرا كان مفعولا ، والى الله ترجع الامور » .. فالله هو الذى أحكم اللقاء بين الفريقين ، وما كان لهما ان يلتقيا من عند انفسهم : « ولو تواعدتم لأختلفتم فى الميعاد » .. لماذا أحكم الله لقاء الفريقين ؟؟ « ليقضى الله

أمرا كان مفعولا !! » والله ، ليقضى هذا الأمر ، يرى نبيه ، فى منامه ، اعداءه قليلا ، فيصمم على قتالهم .. ولو أراهموه كثيرا ما صمم .. « ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر .. » .. وانما كانت تلك الرؤيا ليصمم النبى على القتال و « ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .. ثم ان الله يرى النبى وأصحابه اعداءهم قليلين فى أعينهم ، فيصمموا على قتالهم .. وهو يرى المشركين المؤمنين قليلين فى أعينهم ، فيصمموا على قتالهم أيضا .. لماذا كل اولئك ؟؟ « ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور » .. يجرى كل اولئك ، على المؤمنين ، وعلى المشركين ، من غير ان تنزعج ارادة فرد من الفريقين بتدخل الارادة الالهية فى تصميمه .. ذلك تجليه باسمه اللطيف ..

أما قولك فى فهمك لآية : « ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية ، فظلت اعناقهم لها خاضعين » .. « لو شاء لفعل ولكنه لم يفعل » فقول ينقصه العلم بدقائق الفعل الالهى ، فأنه قد شاء ، وقد فعل ، ولكن فعله انما ينفذ على مكث ، وتلبث .. وسيجىء زمن فيه تنفذ المشيئة بالفعل ، وتنزل الآية ، وتظل الأعناق خاضعة لها ، ولكنه خضوع العقول وسيلته .. فتلك الآية ستكون وضوح الرؤية التى تسوق اصحابها الى الأيمان .. وانما يكون وضوح الرؤية ، بزيادة ظهور البرهان ، وبزيادة أستعداد العقول لأدراك البرهان .. هذا كائن ، لا محالة .. اقرأ ، ان شئت ، قوله تعالى : « ان كل من فى السموات ، والأرض ، الا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم ، وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » .. وما يكون يوم القيامة ليس غائبا اليوم ، وما الأختلاف بين ما هو كائن اليوم ، وما يكون ، يومئذ ، الا اختلاف مقدار ..

وانت تورد الآية : « وأعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه ، وانه اليه تحشرون » .. وتورد بعدها قولك : « ومعنى هذا ان الله يدع القلب حرا فتكون لكل انسان سريرة هو حر فيها . ولكنه يقيم سلطانه بين المرء وقلبه ، فهو يحول بين المرء وقلبه بالتمكين والاحباط لطفا ورحمة ليقى احباءه السيئات .. وليقدم التيسيرات لكل حسب ضميره ونيته ومبادراته .. أما لليسرى واما للعسرى .. ثم تكون الرجعة فى النهاية اليه يوم القيامة فيحاسب كل انسان على وفق سريرته .. فقد كان كل منا حرا فى سريرته وهو عنها مسئول .. بهذه الكلمات التى تضىء كالومض الخفى يعطى القرآن المفتاح لأكبر المشكلات استعصاء فى الفلسفة .. مشكلة الجبر والاختيار » .. هذا ما قلته أنت ، فى صفحتى ٤٩ و ٥٠ ، وبه أختتمت هذا الفصل الذى هو أهم فصول الكتاب .. فلعمرى !! ان القرآن ليعطى المفتاح لمشكلة الجبر والأختيار ، ولكن على أن يفهم على غير ما فهمت .. ان آية « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه ، وانه اليه تحشرون » ، هى آية فى الدلالة على التسيير .. ولكنك طففتها ، وصرفتها عن وجهها ، لتؤيد بها حجة أقامها فى ذهنك الوهم .. اقرأ ، مرة أخرى ، قولك : « ومعنى هذا ان الله يدع القلب حرا فتكون لكل انسان سريرة هو حر فيها . ولكنه يقيم سلطانه بين المرء وقلبه » .. وارد ان النبى قال يوما : « اللهم !! يامقلب القلوب ، ثبت قلبى على دينك » .. فقالت السيدة عائشة : « حتى انت ؟؟ » فقال : « نعم !! حتى أنا ، فأن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء .. » .. والله تعالى يقول : « وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ، بالغداة ، والعشى ، يريدون وجهه ، ولاتعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا .. ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان امره فرطا » ..

أبعد هذا ، وذاك ، يصح قولك : « ان الله يدع القلب حـرا » ؟ .. وأى عبرة لقولك : « ولكنه يقيم سلطانه بين المرء وقلبه » ؟.. ومـن هو المرء ؟؟ وما قلبه ؟؟ واذا حصل التوزيع بين المرء وقلبه ، فأى حرية يحرزها القلب ؟؟ وأى حرية يحرزها المرء ؟؟ الا يكفى هـذا التمـزق الداخلى ، فى حد ذاته ، للذهاب بالحرية كلية ؟؟

الأنسان مسير وليس مخيراً

فى القرآن حل مشكلة الجبر والاختيار ، ما فى ذلك أدنى ريب .. ولكن القرآن لاتفهمه الا العقـول التى تأدبت بأدب القـرآن ــ أدب شريعته ، وأدب حقيقته ــ وكون الانسان مسيراً هو أصل التوحيد .. فأنه ، ان يكن مخـــيراً ، فان اختياره ، امـــا ان يكـــون نافذاً ، فى جميع الحالات ، فيكون ، بذلك ، مشـــاركا للخالق فى فعله ، أو يكون معطلا ، فى بعض الحالات ، فيكون ، بذلك التعطيل ، مسيرا الى أمر لم يختره ، فهو ، بذلك ، وفى نهاية المطاف ، مسير .. ان الخالق لواحد .. وان الفاعل ، وراء كل فاعل ، لواحد .. والوهم هو الذى طوع لأنفسنا نسبة الأفعال لغير الفاعل الاصلى .. قال تعالى فى ذلك : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ؟؟ قل الله خالق كل شىء .. وهو الواحد القهار » .. قوله : « خـلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم .. » ، هذا هو موطن الداء ، ومجال التلبيس .. والتوحيد انما هو وضوح الرؤية التى بها يقع التمييز بين المتشابهات .. وعن هذا الوهم الذى تورطنا فيه ، فزعمنا لأنفسـنا ارادة مستقلة عن ارادته ، حرة ، متفردة ، بالعمل ، أو بالترك ، يحدثنا تعالى فى هاتين الآيتين اللتين هما آية فى دقة كشف حجاب الوهم .. قال تعالى : « هو الذى يســـيركم فى البر ، والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم ، بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح

عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله ، مخلصـــــين له الدين ، لئن انجيتنا من هـــذه لنكونن من الشاكرين .. * فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق .. يأيها الناس !! انما بغيكم على أنفسكم .. متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم ، فننبئكم بما كنتم تعملون » ..

وسبب الغفلة سعة الحيلة ، والشعور بالاستغناء : « كلا !! ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » ..

وحيلتنا فى البر أوسع من حيلتنا فى البحر ، وبخاصة اذا هاجت العواصف على البحر .. « جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا انهم احيط بهم » .. ههنا تنفد الحيلة ويكون اللجـأ الى الله ، ويعرفه من كان قبلا من الجاحدين ويتوجه اليه من كان قبلا من الغافلين : « دعوا الله ، مخلصـين له الدين ، لئن انجيتنا من هـذه لنكونن من الشاكرين » .. هذا هو حال من تقطعت به الأسـباب ، وقعدت به الحيلة ، وأفاق من غفلته باستشعاره الحاجة الملجئة .. هذا هو حالى ، وحالك ، عندما يلح علينا الوهم .. ثم أنه ، سـبحانه ، وتعالى ، يحكى حالة أخرى : « فلما انجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » .. فعندما وطئوا البر استشعروا القـدرة على الحيلة ، والتدبير فعاودتهم الغفلة من جديد .. فورد الخطاب مـن الحـق : « يأيها الناس انما بغيكم على انفسكم ، متاع الحياة الدنيا .. » .. يعنى ان غفلتكم لن تجـد فرصتها الا خلال الحياة الدنيا .. اما فى الحياة الأخرى فأنكم تواجهون مشكلتكم ، كـل لحظة .. فهى تلح عليكم الحاحا ، وتسلط عليكم تسليطا ، فلا تجدوا فرصة للغفلة .. وهذا هو معنى قوله تعالى : « ثم الينا مرجعكـم ، فننبئكم بما كنتم

تعملون » .. يومئذ لن تكون هناك فرصة لتوهم التخيير ، وانما هو التسيير .. لالبس فيه ولا غمـوض ..

والله ، تبارك ، وتعالى ، يريد لنا أن نستيقن هذا التسيير ، منذ اليوم ، ولذلك هو يعلمنا ان الذى يسيرنا فى البحر ، حيث لا حيله لنا ، هو نفسه الذى يسيرنا فى البر ، حيث نتوهم الحيلة .. قال تعـالى : « هو الذى يسيركم فى البر ، والبحر » ثم اسمعه فى موضع آخر،وهو يسوق الحجج الدوامغ ضد وهمنا ، ابتغاء تخليصنا منه :« واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا أياه ، فلما نجاكم الى البر اعرضتم .. وكان الانسان كفورا * أفأمنتم ان يخسف بكم جانب البر، أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لاتجدوا لكم وكيلا ؟؟ * أم أمنتم ان يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح ، فيغرقكم بما كفرتم ، ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا ؟؟ » .. هذه حجج ، فى غاية القـوة ، ضد الغفلة التى تستولى علينا عندما نستشعر القدرة ..

الأنسان بين التسيير والحرية

ان التسيير هو مذهب التوحيد .. وسوق الانسان الى استيقان ذلك التسيير هو وظيفة الكلمة : « لا اله الا الله » ، التى هى روح الاسلام .. والاسلام يقرر هذا التسيير بصورة لاتدع مجالا للشك ، قال تعالى ، فى ذلك : « أفغـير دين الله يبغـون ، وله اسـلم من فى السموات ، والأرض ، طوعا ، وكرها ، واليه يرجعون ؟ » .. ولقـد سير الانسان فى مراتب ثلاث ، بوسائل ثلاث .. سير وهو فى مـرتبة المادة غير العضـوية ، وذلك منذ ان كان ذرة هايدروجـين ، والى ان اصبح خلية حية ، تسييرا مباشرا بواسـطة الارادة الالهية المسيطرة ، والهادية .. ثم سير فى مرتبة المادة العضوية ، منذ أن كان خلية حية ، والى أن اصبح حيوانا سوياً، تسييراً شبه مباشر، وذلك بارادة الحياة..

ثم سير تسييرا غير مباشر ، منذ أن اصبح انســانا بدائيا ، والى يوم الناس هذا ، وذلك عن طريق ارادة الحرية •• وارادة الحرية معنى زائد عن ارادة الحياة •• ارادة الحرية قيمة ، وهى قد دخلت،بدخول العقل فى المسرح •• وفى هذه المرحلة اصبح التسيير من وراء حجاب العقل •• هذا ما عنيناه بقولنا ان التسيير ، ههنا ، قد أصبح غير مباشر •• ولقد تحدثنا ، آنفا ، عن لطف تدخل الارادة الالهية فى الارادة الانســانية ، حتى انها لم تنزعج ، ولم تستشعر سلبا لحــريتها •• وانما كانَ ذلك كذلك لأن الارادة الالهية انما تتدخل فى الارادة البشرية عن طــريق العقل •• وهو تدخل من اللطف بحيث يشعر العقل البشرى انه صاحب المبادرة، فيما يأتى، وما يدع، من الأمور •• فهو، ان ضل، فانما هو قد اختار ان يضل •• وهو لايرى الضــلال فى ذلك ، وانمــا يرى انه مهتد •• قال تعالى ، فى ذلك : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ؟؟ فأن الله يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء •• فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ••• ان الله عليم بما يصنعون •• » •• فهــو قد « زين له سوء عمله فرآه حسنا » •• والحكمة ، كــل الحكمة ، فى دقة التسيير وردت فى عبارة « فرآه حسنا » ••

وهو ، ان اهتدى ، فأنما هو صــــاحب المبادرة فى الهداية ••

ولا يرى لغيره فضلا فى هدايته ، الا قليلا •• ويذهل عن الحقيقة التى تشتمل عليها هاتان الايتان : « واعلموا ان فيكم رســــول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم •• ولكن الله حبب اليكم الأيمان ، وزينه فى قلوبكم •• وكره اليكم الكفر ، والفســوق ، والعصيان •• أولئك هم الراشــدون ※ فضــــلا من الله ، ونعمة •• والله عليم حكيم » ••

فقد يبدو ، اذن ، ان التسيير لا ينافى الحـــزية ، لأن عنصر الاختيار فى العمل ، قائم •• والحرية ، فى ابسط صـــــورها ، هى مسئولية ، والتزام ، وتصرف وفق شريعة يكافأ فيها المحسن باحسانه ، ويجازى فيها المسىء بأساءته •• وهذا هو ما عليه الأمر فى التسيير ، فانه يقع على مستويين : مستوى القانون العام ، ومســتوى القانون الخاص •• فأما القانون العام فأن به تم تسيير المادة غير العضوية ، وتسيير المادة العضوية ، الى ان بلغت هذه أدنى منازل العقول •• والقاعدة القانونية فيها قوامها : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً ، يره ❋ ومن يعمل مثقال ذرة شراً ، يره » ••

واما القانون الخاص فقد دخل مسرح الحياة بعيد ظهور العقل •• والقاعدة القانونية فيه قوامها « الحلال ، والحرام » •• وهــو محــاكاة محكمة للقانون العام ، فأنه فى مقابلة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً ، يره ❋ ومن يعمل مثقال ذرة شراً ، يره » ، قد جاء بقوله : « وكتبنا عليهم فيها : ان النفس بالنفس •• والعين بالعين •• والأنف بالأنف •• والاذن بالاذن •• والسن بالسن •• والجروح قصاص •• فمن تصـــدق به فهو كفارة له •• ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون » ••

والقانون الخاص نفسه يقع على مستويين : مستوى الشريعة العامة ، ومستوى الشريعة الخاصـة •• فأما الشريعة العامـة فهى للمجتمع •• واما الشريعة الخاصة فهى للأفراد •• وهـذه الأخيرة ادخل فى القواعد الخلقية ، منها فى القواعد القانونية •• وهى ، بذلك ، تتسامى ، وتوكل بالتجويد ، والأحسان •• والتسيير فيها ، من ثم ، ينفتح على التخيير ، وذلك بفضل الله ، ثم بفضل العلم الذى عصم الأفراد الذين يعيشون فى مستواها ، (الأخـــلاق) ، عن التورط فى

مخالفة القواعد القانونية التى ترعى حقوق الجماعة فى مضـــمار الشريعة العامة .. ولتوضيح مقام الشريعة الخاصـــة ، من الشريعة العامة ، يحسن ان نضرب مثلا بسنة النبى ، ، فى خاصة نفســـه ، وشريعته ، لعامة أمته .. فأنه كنبى ، قد كان فرداً .. مســـتوى تكليفه أعلى من مستوى تكليف أمته ، وذلك لمكان علمه بالله .. وهو ، لما كان مجاله مجال الشريعة الفردية ، قدكان أدخل فىمنطقة التخيير ، منه فى منطقة التسيير .. نخرج من هذا التقرير الى ان التسيير انما هو بالقانون ، والقاعدة فيه ان تعامل الناس كما تحب ان يعاملوك ، .. « كما تدين تدان » .. والحكمة وراءه ان يسلمك الى التخيير ، حين تحسن التصرف فى حريتك الفردية .. وكلما زاد احســانك فى التصرف ، كلما زادت حريتك اتساعا ، وعمقا .. والقاعدة فى ذلك : « هل جزاء الأحسان ، الا الأحسان ؟؟ » ..

القــدر وسر القدر

هناك القضاء ، وهناك القدر .. وقد وردت الاشارة اليهما فى قوله تعالى : « انا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا الا واحــدة كلمح بالبصر » ..

« الأمر » الذى ورد فى قوله : « وما أمرنا الا واحــدة كلمح بالبصر » يقع على مستويين : مستوى خارج الزمان ، عند الذات .. ومستوى داخل الزمان ، مما يلى الذات ، حيث يدق الزمان .. والى هذا الأخير وردت الأشارة بالتشـــبيه : « كلمح بالبصر » .. وأما « القدر » الذى ورد فى قوله : « انا كل شىء خلقناه بقدر » ، فهــو واقع فى الزمان ، على تفاوت درجاته .. فأما القضاء ، الذى هــو خارج الزمان ، فيسمى سر القدر .. وما القدر الا تنفيذ هذا السر

فى حيز الواقع ، منجماً ، وعلى مكث .. والتنفيذ يجرى فى مضمار ما تحدثنا عنه آنفا من القانون العام ، والقانون الخاص ..

هناك ما يسمى بالسابقة ، وما يسمى باللاحقة ، فأن لكل انسان سابقتين ، ولاحقة : سابقة فى سر القدر ، حيث لا حيث .. وسابقة فى القضاء الذى تنزل الى طرف الزمن ، مما يلى الذات .. وقد أشرنا اليه آنفاً .. وهذه منطقة مشتركة بين القضاء ، والقدر .. هى أدخل فى منطقة القدر ، منها فى منطقة القضاء ، لأنها تتسم بالثنائية ، فى حين ان القضاء الذى هو سر القدر منطقة وحدة مطلقة .. فأما السابقة التى هى فى سر القدر فهى خير محض ، وهداية بلا غواية ، وعلم بلا جهل ، وحرية بلا قيد .. وهذه السابقة مكتوبة لكل انسان من حيث انه انسان ، يبلغها فى المآل ، مهما كان حظه فى الدنيا من الهدى ، أو الضلال .. وأما السابقة التى هى فى القضاء المتنزل ، أو قل فى منطقة القدر ، مما يلى القضاء ، فهى اما خير ، واما شر — أما هدى ، واما ضلال .. فمن كتب له فيها الهدى فلا يخرج من الدنيا الا وقد أهتدى .. ومن كتب عليه فيها الضلال فلا يخرج من الدنيا الا وقد ضل .. والى ذلك الأشارة بقولة تعالى : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل ، فلن تجد له ولياً مرشداً » ..

والسابقتان مغطيتان ، الا على الذين أوتوا العلم .. وأما اللاحقة فهى قد كشفت بالشريعة ..

وبكشف اللاحقة بالشريعة انقطعت حجة المحتج بالسابقة ، بمعنى ان الذى يتوزط فى شرب الخمر ، مثلا ، لا يقبل منه ان يعتذر بأن ارادة الله هى التى ساقته الى الشرب ، ويؤخذ بالشريعة ، وقد لزمته الحجة ، ذلك بأنه يعلم شريعة الله فى تحريم الخمر ، ولا يعلم

ما سبق له فى قضاء الله من هدى ، أو ضلال .. وعن القضـــاء : (سر القدر الذى هو خارج الزمان) ، وعن القضاء المتنزل الى طرف الزمان ، وعن القدر ، وردت الاشـــارة فى قوله تعالى : « يمحو الله ما يشـــاء ، ويثبت .. وعنده أم الكتاب » .. قوله : « يمحو الله ما يشـــاء ، ويثبت » ، حكاية عن تقليب الصور ، فى منطقة القدر ، تنفيذاً لأمر القضاء .. « وعنده ام الكتاب » ، يعنى القضـــاء ، فى منزلتيه .. فاذا كان القدر هو تنفيذ سر القدر ، فأنه ، لا محـــالة ، نافذ ، حيث توجه ، ولا راد له .. وبذلك يكون الانسان مسيرا .. ومسيراً الى الخير المطلق ، فى ذلك ، — الى الحرية المطلقة — ومن دقائق اسرار الألوهية ان يكون الأنسان مسيراً الى الحرية ، ثم انه ، فى التسيير ، يشعر انه حر .. ولقد أشرنا الى ذلك السر عندما ذكرنا ان التسيير انما يجرى عن طريق العقل .. يعنى عن طـــريق قانون المعاوضة .. فأن العقل قد كفلت له حرية الخطأ ، والصواب .. فهو يعمل بحرية ظاهرة ، فاذا أخطأ عوقب ، واذا أصاب اثيب .. وهو ، حين الخطأ ، وحين العقاب ، يتعلم من خطئه كيف يصيب .. وهو بين الخطأ ، والصواب ، انما يمارس حريته فى العمل : « اعملوا ما شئتم!! أنه بما تعملون بصير » .. وبتصحيح الخطأ فى العمل تنمو الحرية ، بزيادة العلم بكيفية العمل وبصحة وجوه العمل .

فتكون الحكمـــة وراء العقـــوبة ، اذن ، هى ان يزيد علمنا ، فتتسع حريتنا .. فالعقوبة هى ثمن الحرية ..

هل الأنسان مخير ؟؟ أم هل هو مسير ؟؟ هو مسير الى التخيير .. هو مسير فيما يجهل ، ليكون التســـيير وسيلته الى العلم ، حيث ، بفضل الله ، ثم بفضل العلم ، يصبح مخيراً ..

بأيجاز !! هو مسير اذا جهل ، مخير اذا علم .. وأى علم هـــذا الذى يجعل المسير مخيراً ؟؟ هو العلم بأسرار الربوبية ، فى مستوى

حـق اليقين ، حيث يتم التأدب ، مع الربوبية ، بالأدب الواجب لها على العبودية ــ حيث يتم السـير خلف الربوبية ، لا أمامها ، فأنه بذلك يتم حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة ــ ومن كان حسن التصرف فى الحرية الفردية المطلقة لا يقع منه ما يوجب مصـادرة حريته ، فأنه ما على المحسنين من سبيل ••

الخلاصـــــة ؟؟

أن الله قد سير الانسان تسـييرا تاما •• فأما فى منطقة العناصر فقد سيره تسييرا مباشرا ، وذلك بالقهر الأرادى الذى انصهرت تحت جبروته جميع الأشياء •• واما فى منطقة الحياة فهو قد سيره تسييراً شبه مباشر ، وذلك عـن طريق ارادة الحياة ، فأن الحى قـد فطر على حب الحياة ، ومن ثم ، فهو يسعى للأحتفاظ بها ، فيفر من كل مايؤذيه ، والى كل ما يلذه •• وقانونه ، فى هذه المرحلة البدائية من مراحـل النشأة ، السعى الدائب لتحصيل لذة البطن والفـرج •• فلما قطـع الانسان هذه المرحلة ، ودخل مرحلة البشرية (وهو قد فعل ذلك بعد زمن طويل ، ممعن فى الطول : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟؟ ») ، فقد جرى تسيير الله أياه بصورة غير مباشرة ، وذلك عن طريق ارادة الحرية •• فأنه ، منذ دخـوله هـذه المرحلة ، قد نما عقله ، وبرزت ملكة التعلم فيه بصورة واضحة ، وزاد على لذتى البطن والفرج ، لذة ثالثة ، هى لذة المعرفة •• وأصـبح تسيير الله اياه ، ههنا ، بواسـطة عقله •• اصبح الله معلمه ، فهـو يلقى فى عقله ، فى لطف لطيف ، وخفـاء بالغ ، مـا يريد له أن يعلم ، وما يريد له أن يعمـل •• « اقرأ باسـم ربك ، الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ •• وربك الاكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم » •• وأصبح الانسان ، فى هـذه

المرحلة ، لايشعر بتدخل ارادة الله فى ارادته ، وانما هو يتحرك حركات ارادية ، بارادة يشعر بانبثاقها من عقله ، فقام فى وهمه انه مريد .. وهو لما كان فى منطقة الحركات الارادية يتصرف بارادة مستقلة ، فهو يقوم ، ويمشى ، ويقف ويرفع يده ،ويرفع رجله .. ولكنه ، مع ذلك ، يعجز عن أن يرفع رجليه مثلا ، ويستقر فى الهواء .. ويعجز عن أن يسيطر على ضربات قلبه ، وحركات رئتيه ، ورمش عينيه .. فقد قام فى وهم بعض العقلاء ان الانسان مسير ، ومخير .. هو مسير الى أعماله غير الارادية ، مخير فى أعماله الأرادية .. والتحقيق الدقيق يقرر ان الانسان مسير فى كلتا حالتيه .. وكل ما هناك من فرق انما هو فى المقدار ، لا فى النوع ، يعنى أنه مسير ، فى أعماله الارادية ، بواسطة عقله الواعى .. مسير ، فى أعماله غير الارادية ، بواسطة عقله الباطن .. والله من وراء كل أولئك محيط ..

والله لا يسيرنا الى الخطأ ، وانما هو يسيرنا الى الصواب .. ولكنه جعل ممارستنا للخطأ وجها من وجوه الصواب ، ذلك لأن الجهل أنما هو آمر نسبى .. فليس هناك جهل مطلق ، وليس هناك خطأ مطلق .. ان الله خير مطلق .. ليس للشر الى ذاته سبيل .. وانما الشر فى ارادته .. وارادته حكمته ..

والله ، تبارك ، وتعالى ، يسيرنا الى ذاته بأرادته ، وذلك عن طريق ارادتنا .. وارادتنا مخلوقةلنا ..وهو قد قال ، تبارك ، وتعالى، فى ذلك ، فى حديث قدسى لداؤد : « يا داؤد !! انك تريد ، وأريد .. وانما يكون ما أريد .. فأن سلمت لما أريد ، كفيتك ما تريد .. وان لم تسلم لما أريد ، أتعبتك فيما تريد ، ثم لايكون الا ما أريد .. » ..

وانما دخل الخير والشر فى ارادته لحكمة تعليمنا .. فأن عقولنا لاتدرك الأشياء الا باضدادها .. وفى ذلك قوله تعالى « ومن كل شىء خلقنا زوجين .. لعلكم تذكرون » .. وقوله تعالى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » .. وقد أمرنا تعالى ان نستعمل ارادتنا فى السير اليه .. وقد شرع لنا منهاج السير اليه .. وهو منهاج يقوم على العلم ، والعمل بمقتضى العلم .. ويبدأ بالعلم بالشريعة ، فى الأمر ، والنهى ، ويوجب ان نسير انفسنا فى طريق أمره ، وان كرهت السير فيه .. قال المعصوم : « لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ، وذلك أخذا من قوله تعالى : « قل ان كان آباؤكم ، وابناؤكم ، واخوانكم ، وازواجكم ، وعشيرتكم ، واموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، احب اليكم من الله ، ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بامره .. والله لا يهدى القوم الفاسقين » .. فالنهج يقوم ، من الوهلة الأولى ، على أن نعلم ما عند الله ، ونسير انفسنا فى طريقه .. والجهل حاضر ، وانما المجاهدة ، كل المجاهدة ، فى سبيل التخلص منه .. وما السير الى الله بقطع المسافات ، وانما هو بالتخلص من الرعونات ، والجهالات ، وبتسيير النفس فى هذا الطريق ، ليتم تقريب صفاتها من صفاته .. وذلك دائما بالعلم ، والعمل بمقتضى العلم .. فليس العلم غاية فى ذاته ، وانما العلم وسيلة الحياة .. والحياة الكاملة هى التى تعلم العلم الكامل ، وتتخلق بمقتضاه .. واكمل العلم ما يسوق الى التخلق بالحرية ، وانما ، من أجل الحرية ، جعل الله ، بحكمته ، طريق تعلمنا يمر بمنطقة الأختيار فنحن نتعلم بين الخطأ والصواب .. وهو يعلمنا دائما .. حين نصيب ،

وحين نخطىء .. وقد جعل تعلمنا عن طريق الخطأ بالعقوبة التى نجدها مترتبة على الخطأ .. فنحن نتمتع بارادة نشعر بحريتها ، ولا نشعر بتوجيه الله أياها .. وقد أمرنا ، فى الشريعة بأن نسير بحريتنا هـذه فى اختيار ما يختار هو لنا .. ولما كنا أحرارا،فيما نشعر، فقد قام التكليف على أننا نتحمل مسئولية خطأ تصرفنا ، حين نخطىء ، أثناء مانحن ندبر أمر انفسنا .. فاذا عجزنا عن هذا التدبير ، وعظمت علينا مسئولية حرية التصرف ، لجأنا اليه ، فى عجز ، وضـــعف ، به نستيقن ، بعـد الممارسة، ان ارادته حقيقية، وان ارادتنا متوهمة .. فاذاوقع لنا ذلك اسلمنا له ، وانقدنا ، ورضينا .. وحين نفعل ذلك نسير خلفه ، بتسليم ارادتنا لأرادته .. وفى تلك اللحظة يكون التسيير قـد وصـل بنا الى التخيير .. ونكون قد خرجنا من منطقة الخير والشر ، ودخلنا منطقة الخير المطلق ، حيث لا مكان للشر .. وفى حـــديث داؤد : « فان سلمت لما أريد ، كفيتك ما تريد » .. ثم قال « وان لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد » .. وفى هذا حكمة العذاب .. فأنه هو ثمن حرية التصرف .. فأن الحرية لا بد لها أن تتميز عن الفوضى ، وقـد تميزت بأن يتحمل الحر مسئولية عمله .. فأنه ، عن طريق تحمل مســئولية العمل ، يتم التعليم ، وتتم التربية.. والعقوبة هى الأمر الوحيد الذى يرسخ العلم ، ويجعله علم يقين ، بعد ان كان مجرد علم نظرى ..

ان العذاب هو ثمن الحرية .. هو مسئولية الحر ، الذى يتصرف كرشيد ، له ثواب صوابه ، وعليه عقوبة خطئه .. وهو قد يتعلم من الخطأ أضـــعاف ما يتعلم من الصواب ، حتى لقد قال ابن عطاء الله السكندرى ، فى حكمه : « رب معصية أورثت ذلا ، وانكسارا ، خير من طاعة أورثت عزا ، واستكبارا » ..

والذى ضلل الناس عن الحكمة وراء العذاب أمران : ظنهم ان الله لا يسيرنا ، وظنهم أن العذاب لاينتهى ، وانما هو دائم ، ومستمر بلا انقطاع .. فأصبح كأنه انتقام ، وعن هذه ، وتلك ، تعالى الله ، علوا كبيرا ..

ان العذاب انما هو كلام الله أيانا بلغة النفس .. ذلك بأنه تعالى يكلمنا بلغة العقل ، وبلغة النفس .. فأما كلامه أيانا بلغة العقل فأن اللغات مثل له واضح .. وأما كلامه أيانا بلغة النفس فانه صور محسوسة ، وشكول ، والاحلام مثل له واضح .. ويدخل فى هذا الباب الألم واللذة .. فاذا قال الله : « كلوا ، واشربوا، ولا تسرفوا»، فأن هذا كلام منه واضح ، موجه الى العقول .. فأن نحن خالفناه ، واسرفنا فى الأكل ، فأصيبت معداتنا بالآلام فان هذه الآلام هى الكلام الذى تفهمه النفس ، لتطيع خطاب العقل فى السلوك المقبل ، استفادة من التجربة الماضية ..

فاذا قال : « يأيها الذين آمنوا اركعوا ، واسجدوا ، واعبدوا ربكم، وأفعلوا الخير..لعلكم تفلحون ..»،فأنما هذا كلام منه واضح ، وموجه الى العقول ، فأن هى لم تطع يجىء الكلام الموجه الى النفوس والذى تفهمه النفوس .. وهو محكى هكذا : « يوم يكشف عن ساق ، ويدعون الى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ، ترهقهم ذلة .. وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون » .. قوله : « يوم يكشف عن ساق » اشارة الى يوم العذاب .. وقوله : « ويدعون الى السجود فلا يستطيعون » ، أشارة الى فرط الآلام التى يجدونها ، فى مفاصلهم ، وفى ظهورهم ، مما يجعل السجود مستحيلا .. وقد أشار الى سبب ذلك : مخالفتهم الأمر الشرعى ، حين كانوا يطيقون طاعته : « وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون » ..

وأبلغ صورة ، من صور كلام الله أيانا بلغة النفس ، محكى هكذا : « أصلوها ، اليوم ، بما كنتم تكفرون ❊ اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ❊ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ❊ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ، فما استطاعوا مضيا ، ولايرجعون ❊ ومن نعمره ، ننكسه فى الخلق ، أفلا يعقلون ؟؟ » .. اذا عصت النفس خطاب العقل بالأمر والنهى ظهرت عليها آثار المعصية صوراً محسوسة، فكانت جزاءها على المعصية .. وهى ما نسميها العذاب .. ولقد قال تعالى عن الآثار المحسوسة لمعصية الأمر والنهى : « فلما عتوا عما نهوا عنه ، قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .. فكانوها ، بدون أدنى ريب .. فالعذاب، اذن ، هو تكليم الله أيانا بلغة النفس .. وهو كلام ضرورى لتعليمنا فى مرحلة بعينها ، فاذا ماقطعناها ، واصبحنا نتعلم بسرعة ، وذكاء ، رفع عنا أصر العذاب .. قال تعالى ، فى ذلك : « ما يفعل الله بعذابكم ، ان شكرتم ، وآمنتم ؟؟ وكان الله شاكرا عليما .. » ..

فان قلت : فلماذا لا يعلمنا بغير حاجة منا الى العذاب ، مادام هو مسيرنا ؟ قلنا : انه لوعلمنا بدون ان يعطينا فرصة الخطأ فأنه يكون قد هزم حريتنا .. والحرية أهم من العلم ، اذ ما العلم الا وسيلة ، بها نحسن التصرف فى الحرية .. والملائكة مسيرون الى الصواب تسييرا لايملكون معه ان يخطئوا : « لايعصون الله ما امرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .. ولكننا ، نحن ، مع كل ذلك ، بل من اجل كل ذلك ، اكمل منهم ، لأننا نخطىء ، ونصيب ، ونشعر فى خلال ذلك بالحرية التى حرمت عليهم هم .. وهذا هو معنى قول المعصوم : « ان لم تخطئوا ، وتستغفروا ، فسيأت الله بقوم يخطئون ، ويستغفرون ، فيغفر لهم » .. هذا هو أس كمالنا ..

فأن ظننت انت : ان الله يسيرنا الى الخطيئة ، والى الجهل ، فأنت مخطىء .. فأنه لايسيرنا الا الى الصواب ، والا الى العلم .. قال تعالى فى ذلك : « هو الذى يصلى عليكم ، وملائكته ، ليخرجكم من الظلمات الى النور .. وكان بالمؤمنين رحيما »

هو يسيرنا الى ذاته فى اطلاقها .. ويقول عن نهاية سيرنا اليه: « وأن الى ربك المنتهى » .. ومن ثم فهو يسيرنا الى العلم المطلق ، والكمال المطلق والحرية المطلقة .. ومن أجل هذه دخل الثواب ، والعقاب ــ دخل العذاب ــ لأن الحرية لاتعلم ، وانما تمارس ، وتعاش .. وأدنى الحرية هى حرية الخطأ .. وهى تعنى : ان يعمل الانسان ، فيصيب ، ويخطىء .. فاذا أخطأ تعلم من خطئه ، وذلك انما يتم بتحمل مسئولية عمله ، وفق شريعة رشيدة .. ووفق حقيقة .. « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا ، يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا ، يره » ..

فان قلت : فكيف يكون تسيير ، وتكون حرية ، مع ذلك ؟؟ قلنا ههنا سر اللطف الالهى .. سر أسم الله اللطيف : « ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم » ..

ومن دقائق اللطف الالهى انه حين يكلمنا الكلام المتوجه الى نفوسنا « ــ كلام الصور المحسوسة ، والشكول البارزة ــ العذاب ــ » يؤقلمنا أيضا بصورة تلطف العذاب ، وتعدنا له من جميع الوجوه .. اقرأ قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين ، والمؤمنات ، يسعى نورهم ، بين ايديهم ، وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار ، خالدين فيها .. ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون ، والمنافقات ، للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم .. قيل : ارجعوا وراءكم ، فالتمسوا نورا .. فضرب بينهم بسور ، له باب .. باطنه فيه الرحمة .. وظاهره من قبله العذاب » .. قوله قيل : « ارجعوا وراءكم

فالتمسوا نورا » ، اشارة الى تكليم الله النفس .. ولما كان التكليم ، ههنا ، بلغة الصور فأن فيه اشارةالى ردهم فىسلم الترقى الى حيوات احط من الحياة البشرية ، وفى هذه المستويات تكون الأقلمة على العذاب قد تمت .. وفى مثل هذا يقول تعالى : « يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا ، مصدقا لما معكم ، من قبل ان نطمس وجـوها ، فنردها على أدبارها .. أو نلعنهم ، كما لعنا اصـــحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » .. قوله : « من قبـل ان نطمس وجـــوهاً فنردها على ادبارها » يعنى : يردها راجعة فى سلم التطور ، الى حيوات بدائيةفى صورها فتتأقلم على العذاب .. وعن اصحاب السبت قال تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا ، لما بين يديها ، ومـا خلفها ، وموعظة للمتقين » .. قوله « كونوا قردة خاسئين » ردة فى ســـلم التطور ، ولعنة ، وبعد عن الله ..

اما بعد ، فأن الحـديث عن التخيير ، والتسيير ، حـديث طويل ، ولا يكاد ينقضى منه الوطر .. وهو أصـل التوحيد .. ومهما يكن الرأى ، فى أمر العذاب ، فأن من يقل أن للانسان تخييرا فهو ناقص فى توحيده .. الا تخييراً يبلغه بالعلمالذى يجعلهيسير خلف الله ، فى رضا بالله تام ، وأتباع للرضوان بغـير اعتـراض ، ولاتسخط .. « فانقلبوا بنعمة من الله ، وفضل ، لم يمسسهم ســوء .. واتبعوا رضـوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .. ههنا يكون التخيير .. وهو تخيير نحن اليه، بمحض الفضل الالهى ، مسيرون ..

الفصـــــــل الثالث

قصـــــــة الخلق

ان قصة الخلق فى القرآن ، لهى اكمـل ، وأتم ، مما هى فى أى فكر نعرفه ، حتى اليوم .. وقضية التطور ، فى القـرآن ، تذهب الى بدايات ، وتسير الى نهايات ، أبعد ، فى الطرفين ، مما يدخل فى ظن عالم من العلماء الذين تعرضوا لنظرية التطور ، مـن دارون الى آخر مـن كتبوا فى هـذا العلم ..

فى القرآن الوجود لولبى ، وهو ، على كل حال ، وجود ليست له بداية ، ولن تكون له نهاية .. وكل الذى بدأ ، وكل الذى ينتهى ، هو مظهر الصـور الغليظة ...

فى القرآن ، الوجود هو الله ، تنزل من أطلاقه ، فظهر فى صور المادة المحسوسة ، وهو انما ظهر ليعرف .. ليعرفه من ؟؟ ليعرفه الذى هـو مثله ـ الانسان ـ و « ليس كمثله شىء » ...

الخلق فى القرآن ، هو الارادة الألهية جمدت ، وتجسدت .. فهو قد تنزل من الأطلاق ، فى معنى ماتنزلت الأرادة .. وهو الى الاطلاق راجع .. لان الارادة ، فى التحليل الأخـير ، انما هى الاطلاق .. قال تعالى : «ولله مافى السموات، ومافى الأرض، والى الله ترجع الامور» .. والخلق ، فى القرآن ، ليس كائنا ، وانما هو مستمر التكوين ..

فى القرآن ، الخلق فى ثلاثة عوالم ، عالم الملكوت من أعلى ، وعالم الملك من أسفل ، وعالم البرزخ قد توسط بينهما .. فعالم الملكوت ،

عالم لطائف ــ عالم مادة لاتتأثر بها حواسنا ــ عالم ارواح ــ ... وعالم الملك ، عالم كثائف ــ عالم مادة ، مجسدة ، تتأثر بها حواسنا ــ وهو ، من ثم ، عالم أجساد .. وعالم البرزخ هو عالم المزج بين اللطائف والكثائف ــ عالم العقول التى ركبت على الأجساد لتصهر كثائفها بنار المجاهدة ، فتحيلها الى لطائف .. وهذا هو عالم الانسان .. والاختلاف بين العوالم كلها اختلاف مقدار .. فالوحدة هى السلك الذى ينتظم الاشياء ، من الخلايا التى تكون الاجسام الحية ، والى الذرات التى تكون المادة الصماء ــ فالاختلاف ، اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع .. بل انه ، فى التوحيد ، اختلاف النوع يمتنع .. هذا مايراه القرآن ، فى حين ان مايراه اصحاب نظرية التطور ــ داروين واشياعه ــ هو أن انواع الحيوانات انحدرت كلها من أصل واحد ، تباين ، واختلف الى فروع من الفصائل ، والأنواع ، نتيجة تباين الظروف والبيئات .. ..

فى القرآن ، المخلوقات ، كلها ، أتباع دين واحد ، مايعقل منها ــ بأقيستنا نحن ــ وما لايعقل .. قال تعالى ، فى ذلك : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات ، والأرض ، طوعا ، وكرها ، واليه يرجعون ؟؟ » ولايتوهمن متوهم ان « من » هنا انما هى لخطاب العاقل .. يقول الله تعالى ، فى موضع آخر : « ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها ، وللأرض : ائتيا طوعا ، أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين »

والقرآن يتوجه بخطابه لغير العاقل (بأقيستنا نحن) كما يتوجه به للعاقل : « قلنا يانار !! كونى بردا ، وسلاما ، على ابراهيم » .. وفى موضع آخر قال تعالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى .. وقيل بعدا للقوم الظالمين » .. ومن أدق مافى هذا الباب ، قوله تعالى ، عن أم موسى ، وعن النيل ، وعن فرعون : « ولقد منا عليك مرة أخرى * اذ

أوحينا الى أمك مايوحى ❊ ان أقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل •• يأخذه عدو لى ، وعدو له ، والقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى » فقد صدر الأمر ، وفى سياق واحد ، الى أم موسى ، والى اليم ، والى فرعون ، ونفذ الأمر فى الحالات الثلاث ، بلا تخلف ، ولا اختلاف •• وهذه ، فى القرآن ، من دقائق الاشارات الى الوحدة ، التى شملت الخلق بأسره ••

وعن العوالم الثلاثة التى ذكرناها آنفا ترد الاشارة هكذا : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ❊ ثم رددناه أسفل سافلين ❊ الا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات •• فلهم أجر غير ممنون » •• قوله : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » •• أشارة الى « عالم الملكوت » •• وقوله : « ثم رددناه أسفل سافلين » •• اشارة الى « عالم الملك » •• وقوله :«الاالذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غيرممنون»•• أشارة الى « عالم البرزخ » •• فأنه أشار بالأجر « غير الممنون » الى الوشيجة التى ربطته ، وهو فى أسفل سافلين ، بنشأته الكاملة فى علم الله ، ثم فى ارادة الله ، وذلك ماتفيده كلمة « الملكوت » ، التى عبرنا بها قبل حين •• وهذه الوشيجة قد استنقذته ، من أسفل سافلين ، الى عالم البرزخ ، حيث يحقق كماله المقدور له ، فى علم الله •• وهذا الكمال يتمثل فى رفع الجسد الترابى ، بفضل الله ، ثم بفضل العقل ، الى جسد ملكوتى •• (الى جسد روحانى) ••

بدء الخلق

لقد برز الخلق عن الوحدة •• فالسموات ، والأرض ، نشأت من سحابة واحدة •• قال تعالى فى ذلك : « أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض ، كانتا رتقا ، ففتقناهما ، ، وجعلنا من الماء كل شىء

حى ؟؟ أفلا يؤمنــون ؟؟ ❊ وجعلنا فى الأرض رواسى ان تميــد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا ، لعلهم يهتدون ❊ وجعلنا السماء سقفا محفوظا، وهم عن آياتها معرضون ❊ وهو الذى خلق الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر •• كل فى فلك يسبحــون » •• السمــوات ، والأرض ، كانت سحابة واحدة ، مرتوقة فانفتقت وكانت هذه السحابة من بخار الماء •• قال تعالى فى ذلك : « ثم استوى الى السماء ، وهى دخان ، فقال لها ، وللأرض : ائتيا ، طوعا ، أو كرها •• قالتا : أتينا طائعين » •• وهــذه السحابة ، قبل ان تكون بخار ماء ، قد كانت من غاز الهايدروجين •• وذرة غاز الهايدروجين هى أول مظاهر تجسيد الارادة الالهية ••

وعلى هذا الاعتبار ، فأن قولك ، فى صفحتى ٦٠ و ٦١ : « فاذا جئنا الى مبدأ الكون كله •• بنجومه وشموسه وكواكبه فنحــن أمام اجماع من علماء الفلك بأن كل شىء نشــأ من الهواء من سحب الغــاز والتراب الأولية » فقول يحتاج الى مراجعة ••

قولك من صفحتى ٦٥ و ٦٦ : « فهو مرة يذكر ان الحياة خلقت من الماء ومرة يذكر أنها خلقت من تراب ثم يعود فيخصص ويقول مــن الطين أو على وجه الدقة الماء المنتن المختمر المختلط بالتراب وهو اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ١٤٠٠ سنة » •• فأنه قول يفوت الحكمة من وراء تنويع العبارة ، فى الآيات : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ، و : « والله خلق كل دابة من ماء » ، و: « أكفرت بالذى خلقك من تراب ؟؟ » ، و : « واذ قال ربك للملائكة : انى خــالق بشرا مــن صلصال من حمأمسنون » •• فأن المقصود من تنويع العبارة انما هو الاشارة الى الوحدة التى تنتظم المظاهر المختلفة فأن المــاء ، والتراب ، والصلصال من الحمأ المسنون ، كلها ، أصلها بخار الماء •• وهى ، وان

بدت لنا مختلفة اختـــلاف نوع ، فهى ، فى الحقيقة ، لا تختـلف الا اختـلاف مقـدار ..

قولك من صفحة ٦٦ : (وفى هذه الآية يحدد أن خلق الانسان تم على مراحل زمنية : « خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم » والزمن بالمعنى الالهى ، طويل جدا «وانيوماعند ربككالفسنة مماتعدون ») فقول غير دقيق .. فأن خلق الانسـان ، وتصـويره ، واسجاد الملائكة له ، لم يتم، وانما هو مستمر، ولن ينفك، انهسرمدى .. « خلقناكم » تعنى احطنا بكم علما ، وهذه مستمرة ، ولن تنفك .. « وصورناكم » ، تعنى قلبناكم فى الصور المتتالية فى ســـلم التطور ، وهذه مستمـرة ، ولن تنفك .. « ثم قلنا للملا كة اسجـدوا لآدم » ، أشارة الى صورة التطور فى الذبذبة بين الخير ، والشر ــ بين الخطأ ، والصواب ــ وهذه مستمرة ، ولن تنفك .. وليس صحيحا « ان الزمن بالمعنى الالهى طويل جدا » ، على اطلاق العبارة .. فأنه أيضا قصـير جدا ، لأنه قد جاء من « اللازمن » ، ويخرج الى « اللازمن » .. فهو فى طرفى المجىء ، والذهاب ، موصوف بالقصر ، وبالطول .. فأنه فى قوله تعالى : «كليومهو فىشأن»، قصير قصراً يكاد يخرجه عن الزمن .. فالزمن ، على كل حال ، قيمة نسبية ، وهو يختلف باختلاف الأمكنة .

قولك ، من صفحة ٦٧ : (« وقد خلقكم اطوارا » .. ومعناها : أنه كانت هناك ، قبل آدم ، صور ، وصنوف من الخلائق ، جاء هو ، ذروة لها ..

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟؟ » أشارة الى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الانسان يســـاوى فيها شيئا يذكر) .. فأنى ما أحب لك فيه ، عبارة : « معناها انه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخـلائق جاء هـو ذروة لها » فأن الدقة

تقضى بان تقول : ان آدم ، نفسه ، هو هذه الصور ، متطورا فى الأزمنة ، فقد مر وقت كان فيه آدم ذرة « غاز هايدروجين » ، ثم تقلب فى الصور ، ولايزال ، ولن ينفك .. وليس صحيحا قولك من هذه الصفحة نفسها : « حتى بلغت ذروتها فى آدم » .. ذلك بان آدم ، هو مرحلة نحو الانسان ــ آدم مشروع أنسان ــ وهو مشروع ذروته الله .. أقرأ ، ان شئت « وان الى ربك المنتهى » ولا منتهى !!

واما قولك فى صفحة ٧٠ (« لقد خلقنا الانسان فى كبد » أى فى مكابدة مستمرة وصراع وعناء . ولهذا أسجد الله له الملائكة وسخرهم لخدمته ومعونته لأنه علم سريرة ذلك المخلوق الذى له جسم الطين وروح الله . واستحقاقه للرعاية فى كل اطواره) ، فهو قول شديد الدلالة على ضعف تصورك لمصير الانسان .. ذلك بأنه يخرج من الحاجة الى الاستغناء .. وسينتهى وجود الملائكة ، ولاينتهى وجود الانسان .. والطور الذى تراه فيه فى حاجة للرعاية ، انما هو طور مرحلى فليس صحيحا ، اذن ، ان الله سخر لخدمته الملائكة ، لأنه مستحق « للرعاية فى كل اطواره » ، كما قررت أنت ..

قولك من صفحة ٧١ (« والجان خلقناه من قبل من نار السموم » ونار السموم هى النار الصافية بلا دخان أو من الطاقة الخالصة ذاتها)، قول غير صحيح .. فان النار الصافية ، وأنت تعبر عنها بـ « الطاقة الخالصة ذاتها » ، لم يخلق منها ابليس ، وانما خلق من النار ، المخلوطة بسواد الدخان .. وعبارة القرآن تقول : « من نار السموم » فمن أين جئت انت بـ « النار الصافية بلا دخان .. والطاقة الخالصة ذاتها » ؟؟ ان الملائكة هم الذين خلقوا من الطاقة الخالصة .. وهذا هو السر فى انهم لم يعصوا الله ما أمرهم ، وانما جاءت المعصية لأبليس لأنه لم يخلق من الصافى ، وانما خلق من المخلوط ــ من نار السموم .. وأنا اعرف

أن بعض المفسرين قد ذكر مسألة صفاء النار من الدخان وهو خطأ قد أنسقت اليه أنت ، أيضا ، فالذين يخلقون من الصافى ، لا يعصون ..

واما قولك ، فى صفحة ٧٢ (« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين » .. « واسفل سافلين » هى هاوية التيه المادى .. الى طين المستنقعات .. هذه المرة الى مجرد جرثومة ، فى طين الأرض . الى نقطة بدء أولى .. من الصفر . وكان على آدم ان يخرج من هذا التيه المادى فى انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا وعبر مراحل واطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا صعداً الى الاسفنج والرخويات والقشريات.. الخ .. الخ .. فى رحلة قاسية وعبر صراعات دامية مع بيئات متعددة تكافح فيها الحياة الوليدة بالمخلب والناب ») فهو قول غير دقيق، أيضا.. أولا ، فأن مسألة خمسة الآلاف مليون سنة، لاتعطيها علوم البيولوجيا، وانما تعطيها علوم الفلك .. وهى تقدير ، على كل حال ، للزمن الذى يفصل بيننا ، وبين بدء انفصال الأرض عن الشمس ، حيث كانت معها (هى واخواتها ، الكواكب السيارة الأخرى) فى سحابة واحدة ، هى من بخار الماء .. ولقد كانت ، من قبل ، من غاز الهايدروجين .. وثانيا ، فأن نقطة « طين المستنقعات » ، ليست نقطة « الصفر » ، وانما هى حلقة متقدمة جدا فى سلسلة التطور .. أن اسفل سافلين انما هى « ذرة غاز الهايدروجين » .. هذا ليس مايعطيه العلم المادى فقط ، وانما هو ما يعطيه العلم الروحى، أيضا .. هناك أمر ورد فى هذه الصفحة بخصوص الأمانة ، وقد وردت ، من قبل ، فى فصل « مخير ، أم مسير » ، وقلت عنها ، هناك فى صفحة ٣٤ : (« انا عرضنا الامانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبين ان يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان .. انه كان ظلوما ، جهولا » ..

لقد جهل الانسان تبعة هذه الامانة ، واهوالها ، ومهالك الغرور التى سيتعرض لها بحملها .. وكيف انه سيظلم بها نفسه ، وغيره .. ولكن الله كان يعلم بهذه المحنة الهائلة .. وكان يعلم ان هذه المحنة سوف تزكى الانسان ، وتطهره وتربيه : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ؟؟ ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟؟ قال انى اعلم مالا تعلمون » .. ولا نعرف كيف تم هذا العرض على الانسان بأن يكون حرا أو لايكون ؟؟ ولا متى تم هذا العرض .. هل حدث فى مبدأ الخلق مع آدم ؟؟ أم مع الأرواح قبل نزولها الى الأرحام؟؟ فهذا غيب مطلق.) وقلت ، فى صفحة ٧٢ : (« انا عرضنا الأمانة على السموات ، والأرض ، والجبال ، فأبين ان يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الانسان .. انه كان ظلوما جهولا » ، والانسان لم يدرك مخاطر هذه الأمانة لجهله فظلم نفسه بحملها ، ولان الله كان يعلم مخاطر حمل هذه الأمانة .. وكان يعلم انها سوف تلقى الانسان فى مهالك الغرور .. فأنه لطفا منه ورحمة .. أمره بالطاعة، وبالاسلام لكلمة الله بألا يأكل من الشجرة لتدوم له الجنة « جنة الطاعة والاسلام للناموس الالهى » ..

ولكن الانسان اختار أن يكون حرا مسؤولا وان يخرج على الأمر الالهى « بأغراء أبليس » فيأكل من الشجرة .. وهكذا وقع عليه التكليف وأصبح محاسبا منذ تلك اللحظة .. وحق عليه العقاب .. وكان العقاب هو الطرد والاهباط من تلك الجنة الى الأرض والنزول الى التيه المادى) .. هذا وذاك هما ماقلته انت فى صفحتى ٧٢ و ٣٤ . ويهمنى هنا بشكل خاص قولك ، من صفحة ٣٤ : « ولا نعرف كيف تم هذا العرض على الانسان بان يكون حرا أو لا يكون ، ولا متى تم هذا

العـرض ؟؟ هل حـدث فى مبدأ الخلق مع آدم ؟؟ أم مع الأرواح قبل نزولها الى الارحام ؟؟ فهذا غيب مطلق » فأنما هو قول يشـمل اعترافا صريحا ، ومقبولا ، بالجهل بأمر الأمانة .. وفى الحق ان مجرد هذا الاعتراف يحرمك الحق فى الخوض فى مسألة دقيقة ، غاية الدقة ، كأمر الجبر والاختيار فى الاسلام .. وانى ارشح لك مقدمة الطبعة الرابعة من كتابى « رسالة الصلاة » ، فأن فيها معالجة موجزة لهذا الأمر ، منها يتضح ان الانسان لم يكن مخيرا فى حمل الامانة ، أو تركها ، وانما كانت مفروضة عليه فرضا لا يملك عليه امتناعا .. ثم ، من الذى قال ان هذا الامر ــ أمر عرض الأمانة ــ « غيب مطلق » ؟؟ ان عبارتك هذه لشديدة الدلالة على ضعفك فى التوحيد فان الغيب المطلق هو ذات الله ، وحدها .. قال تعالى، فى ذلك : « قل لا يعلم من فى السموات، والأرض، الغيب الا الله .. وما يشعرون ايان يبعثون ؟ * بل ادارك علمهم فى الآخرة، بل هم فى شك منها .. بل هم منها عمون » .. هذا هو الغيب المطلق.. وهو لا يعلمه الملأ الأعلى ، ولا الملأ الأسفل .. « من فى السموات والأرض » .. لا يعلمه الا الله .. وهذه هى القاعـدة التوحيدية التى تقول : «لا يعرف الله الا الله» .. اما أمر الأمانة وتساؤلاتك عنها، فهى مما يدخل فى علم ، الراسخين فى العلم .. وانت ، على كل حال، مدعو، ومرجو ، ان تجد الأجابة على تساؤلاتك هذه فى أمر الأمانة .. وليس لك الى ذلك من سبيل غير تجويد التوحيد ، وذلك عن طريق ممارسة العبادة فى اتقان تقليد المعصوم.. وبومها سينكشف لك ، ان شاء الله، ان الانسان مسـير ، وان آدم ، حين عصى ، « وعصى آدم ربه فغوى » فأنه لم يعص الأمر التكوينى ، وانما عصى الأمـر التشريعى .. والأمر التكوينى محيط بالأمر التشريعى ، وفى الأمر التكوينى لاتدخل المعصية، وأنما هى الطاعة .. فمن عصى ، فأنه فيه قداطاع ، فى معنى ماقد عصى ..

هذا وانك لشديد الاصرار على أمر التخيير .. ويجيء في صفحة ٧٦ قولك: (يفطن الانسان الى أنه لايملك الا ضميره « قدس الأقداس الذى تركه الله حرا بالفعل » فيسلمه خالصا لله ويتجه به مختارا طائعا .. وقد وكل أمر نفسه الى خالقه وخضع لنواميسه .. يفعل هذا وقد ادرك ان مشيئة الله واقعة ان طوعا وان كرها .. وان الله هو الخالق المهيمن على جميع الاسباب وانه هو الوحيد الذى يملك الهداية والعلم والقدرة) وتواصل الى ان تقول :ـ (وعلى آدم الأرضى هذا ان يكافح ليحقق لنفسه التكامل الأول وان يعود الى أحسن تقويم « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ») ..

فاما أنا ، فما أرى لك سبيلا الى القول بالتخيير وانت تورد فى نصك الأول : « يفعل هذا وقد ادرك ان مشيئة الله واقعة ، ان طوعا ، وان كرها .. وان الله ، هو الخالق المهيمن ، على جميع الاسباب .. وانه هو الوحيد ، الذى يملك الهداية ، والعلم ، والقدرة » .. وتورد فى النص الثانى الآية : « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا ، فملاقيه » تامل هذه الآية ، فأنها تقول : ان ملاقاة الله واقعة ، اردت ، أيها الانسان، أم لم تترد!! فأنه ما من الله بد .. أم لم يقل: «اليه مرجعكم جميعا ، وعد الله ، حقا .. انه يبدأ الخلق ثم يعيده » ..

وفى صفحة ٧٧ جاء قولك : (« واذ أخذ ربك ، من بنى آدم ، من ظهورهم ، ذريتهم ، واشهدهم على انفسهم .. ألست بربكم ؟؟ قالوا : بلى !! شهدنا !! ان تقولوا يوم القيامة : انا كنا عن هذا غافلين .. أو تقولوا : انما اشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك نفصل الآيات ، ولعلهم يرجعون » .. ان الله يفصل لنا فى هذه الآيات واقعة غريبة .. يفهم منها اننا كنا فى حضرة

الله ، قبل النزول الى الارحام « فى عالم المثال والملكوت » ربما كأرواح .. لا أحد يدرى .. وان الله أشهدنا على ربوبيته ، وأخذ منا ميثاقا بهذا الشهود ، حتى لا نعود فنكفر ، ونبرر كفرنا ، بأننا ضحية الآباء) انت ، فى هذا ، تعترف بأنك لاتدرى ما يفصـــله الله فى هذه الآيات الكريمات ، وهو اعتراف محمود ، على كل حال ، ولكنه اعتراف يسلبك الحق فى ان تخوض ، بمثل هذه الجرأة ، فى أدق أسرار الدين .. وانت ، حين تعترف بأنك لا تدرى ، يطيب لك ان توكد ، لنفســـك ان أحدا لا يدرى ــ ما تجهله انت جهلهمبرر عندكبأن الآخرينيجهلونهأيضا.. تقول (يفهم منها اننا كنا فى حضرة الله قبل النزول الى الارحام .. « فى عالم المثال والملكوت » ربما كأرواح لا أحد يدرى) ..

ولكننا نقول لك : ان هذا الذى جهلته يقع فى العلم القريب مـــن علوم الذين أوتوا العلم .. و « حضرة الله » ، التى وردت فى عبارتك ، هى ، اما حضرة اطلاق ــ حضرة ذات ــ ، واما حضرة قيـــد ــ حضرة اسماء ، وصفات ، وافعال .. وقد كنا ، نحن ، فى جميع هذا الحضرات .. كنا فى حضرة الأطلاق ، ثم تنزلنا الى حضرة القيد ــ حضرة العلم ، فحضرة الارادة ، فحضرة القدرة .. فأما حضرة الذات ، فهى حضرة لاهوت ، واما حضرة العلم ، وحضرة الأرادة ، فهى حضرة ملكوت ، واما حضرة القدرة ، فهى حضرة ملك .. وحضرة الملكوت حضرةأجساد لطيفة ، تتفاوت فى اللطافة ، بين حضرة العلم ، وحضرة الارادة .. واما حضرة القدرة فهى حضرة اجساد كثيفة ، تتفاوت فى الكثافة ، بين قمة ، وقاعدة .. ولقد أشـــهدنا ، تبارك ، وتعالى ، على عبوديتنا ، وعلى ربوبيته ، فى جميع حضرات اللطافة ــ فى حضرة الذات ، وفى حضرة العلم ، وفى حضرة الارادة ــ وقد شهدنا الشـــهادة .. ولكننا ، عندما تنزلنا الى عالم الكثافة ، وبعد خروجنا من الأرحام كســـفت كثافة

الاجساد لطافة الارواح ، وانسينا ما كان منامن شهادة ، ومن اقرار على انفسنا بالعبودية ، فتكفل الله بتذكيرنا بشهادتنا .. وهو ، من اجل هذا التذكير ، خلق الازواج .. وقال ، تبارك من قائل : « ومن كل شيء خلقنا زوجين .. لعلكم تذكرون » ثم انه ، من اجل هذا التذكير أيضا ، أرسل جميع رسله بشهادة : « لا اله الا الله » .. وانزل القرآن على نبينا .. ويسره لتذكيرنا بتلك الشهادة ، فقال ، تبارك من قائل : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟؟ » ..

ويؤخذ من هذا ، أيضا ، اننا نحن لانتعلم شيئا جديدا على الاطلاق .. ولكننا ، حين نتعلم ، انما نتذكر علما ، قديما ، ازليا ، نسيناه .. قال تعالى ، فى ذلك : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فاذا هم مبصرون » .. قوله : « اذا مسهم طائف من الشيطان » ، يعنى : اذا جهلوا .. قوله : « تذكروا » ، يعنى : ذكروا اسم الله .. « فاذا هم مبصرون » ، يعنى : انقشعت عنهم الجهالة .. فأنه ، تعالى ، قد وصى نبيه فى الآية السابقة التى اوردناها آنفا ، فقال « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله .. انه سميع عليم .. » قوله : « فاستعذ بالله » ، يعنى : لذ بالله ..

وأحب ان الفت نظرك ، بصورة خاصة ، الى اننا فى تجسيدنا ، فى الأرحام ، لم ننس شهادة العبودية للربوبية ، لأننا ، انما كنا مسيرين ، ولا توهم لنا فى تخيير .. ولكننا انما نسيناها بعد أن برزنا من الأرحام الى حيز الوجود الخارجى ، حيث أصبحنا نمارس حركات ارادية ، مدت لنا فى توهمنا اننا مريدون ، ونستقل بارادة .. وهذه الأرادة هى عنوان نسيان الشهادة .. قال تعالى عن الارادة ، فى حديثه لداؤد ، وقد سبق أن أوردناه آنفاً وهو : « ياداؤد !! انك تريد ، وأريد ، وانما يكون ما اريد .. فان سلمت لما

اريد ، كفيتك ماتريد ، وان لم تسـلم لما اريد ، اتعبتك فيما تريد ، ثم لايكون الا ما اريد » •• هذه صورة من تسليم الارادة المتوهمة ، الى المريد الأصيل •• وهذه الارادة هى الامانة •• والله تعالى يقول : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل •• ان الله نعما يعظكم به،ان اللهكان سميعاً بصيراً» •• و « العدل » هو اعطاء كل ذى حق حقه •• وعن عدم توهم الارادة ، ونحن فى الأرحام ، جاء قول ابن عربى :ـ

دخلوا فقراء على الدنيا * وكما دخلوا ، منها خرجوا

يعنى : فقراء مـن الارادة •• والى خلوة الرحـم التى كان فيها الجنين يرمى الصوفية بدخولهم الخلاوى ، فهم يريدون من خلواتهم ان يتمرسوا على ترك الارادة للمريد ، على نحو ماكان الجنين فى الرحم •• •• ذلك مثلهم الأعلى ، على شرط واحد ، هـو أن يكونوا ، فى تركهم للارادة ، مدركين لذلك الترك ، موقنين به ••

آدم وحـــواء

وفى صـفحة ٨٠ عن الشـجرة أنت ترى : « انها رمز للجنس ، والموت ، اللذين تلازما فى قصة البيولوجيا •• حينما أخذت الكائنات الحية ، بطريقة التلاقح الجنسى ، تتكاثر ، فكتبت على نفسها ، طارىء الموت •• ولم تكن الكائنات قبل ذلك تموت ، بل تتجدد ، وتعود الى الشباب بالانقسام الذاتى : كان التلاقح الجنسى ، هو الشجرة المحرمة، التى أكلت منها الحياة ، فهوت من الخلود الى العـدم •• وبالمثل كان زواج آدم وحـواء ، هو زواج أثنين ، من الخـالدين فى الجنة •• وفى مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح ، والتلاقح الجنسى •• فالخلود حقيقة قائمة ، ولاحاجة للنسـل ، لأستمرار الحياة •• وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هى ايذان ببدء الموت ، والطرد من جنة

الخالدين •• فكذب على آدم ، وسول له أنها شجرة الخلود بعينها •• وأغراه بأن يخالط زوجه بالجسد » ••

انت تقول هذا بعد أن تعرضت ، فى صفحة ٧٩ ، لرفض رأى الذين يقولون : أنها شجرة المعرفة •• حيث تقول : (يقول بعض المفسرين أنها شجرة المعرفة وأنها رمز •• وهو تفسير غير مقبول •• فالله لم ينه الانسان عن طلب المعرفة بل هو على العكس كان يحضه على طلب العلم •• « وقل ربى زدنى علما » ••

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »)

ونحن نرى معك أن الشجرة هى العلاقة الجنسية ، ولكننا لانرى رفض القول بان الشجرة هى المعرفة ، ذلك بان الله لم ينه عن العلاقة الجنسية ، وانما نهى ان تكون تلك العلاقة بغير شريعة •• ان آدم هو زوج حواء فى الحقيقة ، لانها انبثاق نفسه السفلى ، عنه خارجه •• ولكن الله اراد له ان تكون زوجه فى الشريعة •• والتكليف الذى وردت اليه الاشارة فى الآية التالية ، حين قال ، تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » ، انما هو بدء الشريعة •• قال تعالى : « ويا آدم اسكن ، انت وزوجك ، الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى من سوآتهما •• وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة ، الا ان تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور •• فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة •• وناداهما ربهما : الم انهكما عن تلكما الشجرة ؟؟ واقل لكما : ان الشيطان لكما عدو مبين ؟؟ * قالا : ربنا !! ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا ، وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين * قال : اهبطوا !! بعضكم لبعض عدو •• ولكم فى الأرض

مستقر ومتاع الى حين ﴿ قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » .. فكأن القول بأن الشجرة هى شجرة المعرفة يستقيم مع القول بان الشجرة هى اللذة الجنسية .. فاللذة الجنسية غير محرمة داخل الشريعة ، وانما هى محرمة ، خارجها ــ هى غير محرمة اذا اخذت بحقها ــ وحقها يقتضى معرفةالحرام ، والحلال.. والذى يسمع قولك : « ولم تكن الكائنات قبل ذلك تموت بل تتجدد وتعود الى الشباب بالانقسام الذاتى » .. الذى يسمع هذا القول يشعر بأن مرحلة التجدد بالانقسام الذاتى ، أكمل من مرحلة الموت ، وهذا خطأ جسيم .. وقولك : « كان زواج آدم وحواء هو زواج أثنين من الخالدين فى الجنة .. وفى مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسى فالخلود حقيقة قائمة ولاحاجة للنسل لاستمرار الحياة » ، يدل على جهل بحقيقة وظيفة النكاح ، اذ يجعل النسل هو همها الأول ، والحق ان اتساع حياة كل من الزوجة والزوج ، بممارسة اللذة التى بها يتسامى الحب ، هو الوظيفةالاساسية للزواج .. فأنه ، ان يكنكما زعمت ، يكن الفرد وسيلة للجماعة .. وهذا أمر يضع العربة امام الحصان .. ذلك بان الفرد هو غاية الحياة .. وما الجماعة الا وسيلتها الى انجاب الفرد ، الحر ، الكامل .. ان صورة الأمر كله هكذا : خلق الله خلقا هم عقول بلا شهوة ، وهؤلاء هم الملائكة .. وخلق خلقاً هم شهوة بلا عقول ، وهؤلاء هم الأبالسة .. وخلق خلقا هم شهوة ركبت عليها العقول لتسوسها بشريعة الحرام ، والحلال ، وهؤلاء هم البشر .. وحين نقول : ان الشجرة هى اللذة الجنسية ، أو نقول : أن الشجرة هى معرفة الحلال ، والحرام ، انما نحن نتحدث عن شىء واحد ، يختلف أختلاف مقدار .. فالمعرفة وسيلة الممارسة الصحيحة ، وانما ذكرنا العلاقة الجنسية فى هذا الباب ، لأنها أعمق اللذات ، وأقربها

من لذة الحياة نفسها .. والا فأن الشجرة تعنى ، فى التنزلات ، أى رغبة نفس ، فى قضاء لبانة من لباناتها .. وكل لبانة لا تقضى باسم الله ، وفى سبيل الله ، فهى حرام .. قال تعالى ، فى أمر الحلال ، والحرام : « فكلوا مما رزقكم الله حلالا ، طيبا .. وأشكروا نعمة الله ، ان كنتم اياه تعبدون * انما حرم عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به .. فمن اضطر ، غير باغ ، ولاعاد ، فان الله غفور رحيم * ولاتقولوا لما تصف السنتكم الكذب : هذا حلال .. وهذا حرام .. لتفتروا على الله الكذب .. ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » فالحرمة انما هى حكم شرعى ، وليس شىء هو حراما فى عينه .. وعند العارفين ، الحرام من الكسب ما أخذ من غير يد الله ، مهما كان حله فى الشريعة .. اذا اخذت ، ولم تر يد الله ، وانما حجبت عنها بيد الواسطة ، فقد اخذت حراما .. هذا هو ما دلت عليه الآية الأولى : « فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا .. واشكروا نعمة الله ، ان كنتم اياه تعبدون » .. فالحكمة من شريعة الحرام والحلال هى رؤية يد الله فى كل شىء .. ومعنى هـذا : أن كل عمـل ، نعمله أو ندعه ، لا يكون اعتبار مرضاة الله فيه هو دافعنا للعمل ، أو للترك ، فهو عمل باطل .. قولك : « وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هى ايذان ببدء الموت والطرد من جنة الخالدين فكذب على آدم وسول له انها شجرة الخلود بعينها وأغراه بان يخالط زوجه بالجسد » قول يعطى الشيطان فضيلة ليســـت له ..ان الشيطان لم يكن يعلم ، وانما كان يجهل .. ولولا انه كان يجهل لما عصى الله .. هذا لاينفى عن الشيطان مطلق العلم ، وانما ينفى عنه العلم النافع .. فقـد كان يعلم بظواهر الاشياء فقط ، ولذلك يقول الصوفية: ان علم الظاهر وحده علم شيطنة، وهو لا يورث التقوى .. وكذلك كان ابليس .. كان عالما بغير تقوى

•• والتفاصيل التى وردت فى الفقرة التى اقتبسناها لك آنفا لايعرفها الشيطان •• وهو ، انما أضل آدم ، لجهله هو لا لعلمه ، والى ذلك الاشـــارة بقوله تعالى : « فدلاهما بغرور » يعنى : خفض درجتهما ، بنصيحته الجـــاهلة ••

هذا ما تيسر ، فى أمر باب قصة الخلق •• وهو باب يثير مسائل فى غاية الأهمية •• ولكننا نكتفى بهذا القدر ، ونرجىء الحديث عن أسرار العدد الى ان يأذن الله فى فرصة أخرى •• ربما فى كتاب « القرآن بين التفسير ، والتأويل » ••

الفصـــــــــل الرابع

الجنة والجحيم

وصف الجنة والجحيم وارد فى القرآن ، وروداً مستفيضا ، وفى القرآن ، حرفية الوصـــف مقصودة ، وباطنه مقصود .. والأمثال فى القرآن ليست كالأمثال فى حديثنا نحن ، ذلك بأنها علم .. فهى تتوخى التفهيم ، ولكنها لاتفارق الحق .. فاذا قال الله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وانهار من خمر ، لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى » ، فليس معنى هذا ان ظاهر الألفاظ غير مقصود ، الا لتقريب المعنى ، وانما هو مقصـــود بالذات .. ففى الجنة ، حسيا ، ما وعد الله ، فى القرآن ، أنه فيها .. ثم تتفاوت صور الحس فى اللطافة ، حســـب درجات الجنات .. وأدناها يفوق تخيل المتخيل : « أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل الســـيل زبدا ، رابيا .. ومما يوقدون عليه فى النار ، ابتغاء حلية ، أو متاع ، زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق ، والباطل .. فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض .. كذلك يضرب الله الأمثال » .. ههنا : « أنزل من السماء ماء » ، يعنى الماء المعروف .. « فسالت أودية بقدرها » ، يعنى الوديان المعروفة .. « فاحتمل السيل زبدا رابيا » ، يعنى ، أيضا ، الزبد الذى يثيره الماء الغزير فى جريانه السريع ، ويحمله على السطح .. ثم قال : « ومما يوقـــدون عليه فى النار ابتغاء حـــلية ، أو متاع ، زبد مثله » وههنا جاء بالعلم .. فأنه قرر أن : الذهب ، والفضة والحديد ،

والنحاس ــ جواهر الحلى ، ومعادن الأمتعة ــ كلها من أصل واحد ، هو الماء .. وشبهها بالزبد ، لأنها زيف زائل .. ومايبقى هو المعرفة التى تحصـــل عليها النفوس ، وهى ترتفق ارتفاقا مرحليا ، بالحلى ، وبالامتعة .. والماء أصـــل ، وهو حق ، والزبد باطل ، ولذلك قال « كذلك يضرب الله الحـق والباطل » ثم مضى ليقول : « فأما الزبد ، فيذهب جفاء .. واما ماينفع الناس ، فيمكث فى الأرض » .. يعنى : اما الباطل ، فهو زاهق ، واما الحق فهو باق .. ثم جاء بقوله ، عن كل هذه التشـــبيهات ، « كذلك يضرب الله الامثال » .. هذا فى الجانب الحسى .. وفى الجانب المعنوى : « انزل من السماء ماء » ، يعنى : من العقول ، والماء المعرفة من القرآن .. « فسالت اودية بقدرها » ، يعنى : القلوب .. « فاحتمل السيل زبداً رابياً » يعنى ذهبت انوار القرآن عن القلوب بغواشى الغفلة ، التى نسجت خيوطها شـــهوات البطن ، والفرج .. « ومما يوقدون عليه فى النار ، ابتغاء حلية ، أو متاع ، زبد مثله » .. « فى النار » ، يعنى نار الجبلة .. والحلية ، والمتاع ، شهوات الجبلة من حب الاستعلاء والرئاسة ، « زبد مثله » ، هى أيضا غواشى غفلة ، كشهوات البطن ، والفرج .. « كذلك يضرب الله الحق ، والباطل » .. « الحق » المعـــرفة ، « والباطل » ، زيف الشـــهوات .. « فاما الزبد ، فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس ، فيمكث فى الأرض » ، أرض القلوب .

هذا وجه موجز ، من جملة وجوه ، تتفاوت فى اللطف فى دقائق معانى القرآن حيث المثل ينطبق على الحس ، وعلى المعنى ، فى آن معاً .. ولأن الأمثال فى القرآن علم قال تعـــالى عنها : « فلا تضربوا لله الأمثال ، ان الله يعلم ، وانتم لا تعلمـــون * ضرب الله مثـــلا : عبدا مملوكا ، لايقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حســـنا ، فهو

ينفق منه سرا ، وجهرا •• هل يســـتوون ؟؟ الحمد لله !! بل اكثرهم لايعلمون ❊ وضرب الله مثلا : رجلين : أحدهما ابكم ، لايقــدر على شيء ، وهو كل على مولاه ، اينما يوجهه لايأت بخير •• هل يستوى هو ، ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ؟؟ » •• ومن أجل انها علم أيضا ، قال عنها : « نحن أعلم بما يستمعون به ، اذ يستمعون اليك ، واذ هم نجــوى •• اذ يقول الظالمون ان تتبعــون الا رجــلا مسحورا ❊ أنظر !! كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا ، فلا يستطيعون ســــبيلا ؟؟ » ••

ومن ههنا ، فأن قولك من صفحة ٨٥ ، عن قوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عســل مصفى » قولك عنها ، بأنها ضرب مثل « وليست ايرادا لأوصـــاف حرفية • فهذا أمر مستحيل لأن الجنة والجحيم أمور غيبية بالنسبة لنا لايمكن تصويرها فى كلمات من قاموسنا » ، قول غير صحيح •• والجنة والجحيم ، على كل حال ، ليســت أمورا غيبية تماما ، فأنا نعيش طرفا منها ، فى هذه الحياة •• فأن غيبا ، لايكون حاضرا طرف منه ، اليوم ، لا وجــود له •• وكل ما هناك ، ان الأختلاف بين ما نعيشه اليوم ، من صـــور الجنة والجحيم ، وبين ما يكون عليه الأمـــر غــدا ، انما هـــو اختلاف مقدار •• ومن ثم ، فأن الجنة ، والجحيم ، فى طرفها الذى يناسب الدنيا ، يمكن تصويرها « فى كلمات من قاموســـنا » •• وأما قولك من نفس الصـــفحة : « وبالمثل كان موقف القرآن فى مخاطبة البدوى البسيط • وكل أمنية البدوى الذى يعيش فى هجير الصحراء ان يعثر على نبع ماء عذب •• فكل مايجــد من مياه ماهــو الاينابيع مالحة آسنة •• وكذلك اللبن •• فما أسرع مايختمر ويتغير طعمه فى

حر الصحارى .. فيضرب له القرآن المثل من اعز مايتمنى » . فأنه قول من الكبائر .. ذلك بأن القرآن ، اذا كان كما تصف فماهو الا كتاب محلى .. وكأنك تراه ، لو نزل على غير قوم الصحراء . لأنزل بصورته الحاضرة .. وكأنك ، بذلك ، تقول : انه ليس كتابا علميا . فى الوقت الذى نحن فيه نعرف ، أن قيمة القرآن انما هى فى كونه كتاب علم نفس ، يسوق آيات الآفاق .. ليصل بها الى آيات النفوس : « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق .. أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟؟ » .. أقول قولى هذا ، ولا أذهل عن حقيقة بيانية ، هى انه لو نزل على غير قوم الصحراء ، لساق لهم من آيات الآفاق ما يناسب بيئتهم .. ولكن هذه الظاهرة ما يجب ان نحملها الا على أنها .. ظاهر ، لباطن .. يجعل القرآن كتاب علم . وليس كتاب بيان يستقيم مع اللسان ، والمنطق ، فحسب ..

ومن العجب انك تورد الآية ، أو على الاصح طرفا من الآية « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها » ثم تقول عنها : « فكل الغاية هى تقريب تلك المعانى المستحيلة بقدر الامكان .. وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ماهو الا ألوان من ضرب المثال وألوان من التقريب والوان من الرمز » .. فاستمع اذن الى كل الاية التى اوردت طرفا منها : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة ، فما فوقها .. فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم .. واما الذين كفروا فيقولون : ماذا اراد الله بهذا مثلا ؟؟ يضل به كثيرا ، ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين » فما معنى « ان الله لا يستحى » ؟؟ ان استحياء أحدنا خجل ، وليس كذلك استحياء الله ، تعالى الله عن ذلك .. وانما استحياء الله علم ، وهو « لا يستحى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها » ، يعنى لا يترك ان يضرب هذا

المثل ، لانه حق ، وهذا هو معنى اشارته ، تبارك ، وتعالى ، من نفس الآية : « فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم .. واما الذين كفروا فيقولون : ماذا اراد الله بهذا مثلا ؟؟ » ، وانما يقول الذين كفروا قولتهم هذه لاستصغارهم لشأن البعوضة ، وذلك لحقارة شأنها فى عالم الاجساد .. وهم لا يعلمون ما وراء الأجساد من حقائق .. قوله : « يضل به كثيرا ، ويهدى به كثيرا .. وما يضل به الا الفاسقين » .. يعنى يضل بهذا المثل ، ويعنى يضل بالحق أيضاً ، ويعنى يضل بالقرآن .. يضل بكل أولئك ، ويهدى .. « وما يضل به الا الفاسقين » ..

انت فى أشد الحاجة الى مراجعة رأيك فى أمر القرآن ، فأنك ، ان تفعل ، يتضح لك ان قولك : « وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ماهو الا ألوان من ضرب المثال وألوان من التقريب وألوان من الرمز » ، قول باطل ، شديد البطلان .. ومن عجب ، أيضا ، انك تنساق الى التدليل على هذا الرأى الباطل ، باقتباس وصف اشعياء ليوم الرضوان عن العهد القديم ، وتسوق ، فى التدليل أيضا ، تراتيل القديس افرايم ، ثم تقول : « انها صورة مشتركة فى جميع الأديان » وانت بذلك تذهل عن حقيقة ماينبغى الذهول عنها ، هى أن كتب العهد القديم ، والعهد الحديث ، انما هى بمثابة احاديث يمكن مقارنتها بالحديث النبوى ، حيث المعنى موحى ، واللفظ من عند النبى ، ولكن القرآن موحى كله ، لفظه ، ومعناه .. وليس للنبى فيه شىء ، غير تبليغه .. « لا تحرك به لسانك لتعجل به * ان علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرآناه فاتبع قرآنه * ثم ان علينا بيانه » وقال أيضا فى هذا الشأن « ولاتعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه .. وقل ربى زدنى علما » ..

قولك من صفحة ٨٧ : (« فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .. انه يحيل القضية كلها الى غيب لا

يمكن التعبير عنه بلغة الأرض هنا كل مـن العين والقلب ممالايمكن تصويره بالفاظ) .. ألا ترى انه قد عبر ؟؟ ثم فى حق من قيلت هذه الآية ؟؟ أقرأ !! « انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا ، وسبحوا بحمد ربهم ، وهم لايسـتكبرون * تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا ، وطمعا .. ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفى لهم مـن قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .. قوله « قرة أعين » يعنى : طمأنينة القلب بسكون جيشـان الخواطر ، بفضل الوجدان ، بعد الفقدان ــ وجدان الله فى القلب ، بعد فقدانه خلف الحجب ــ قوله : « فلا تعلم نفس » .. يعنى : فلا يعلم أحد غير الله ، مايكون عليه كمال حالهم يوم الوجدان .. وبذلك تكون العبارة قد أوفت بالمراد .. ان العبارة يراد منها ان تقول انهم يجدون ذات الله فى قلوبهم ، فتقر القلوب ، بهذا الوجـدان من الجولان .. وكيفية وجود الله مجهولة ..

جهنم

انت تقول من صفحة ٨٧ أيضا : (أما جهنم فهى شىء فظيع .. لاهو بالحياة ولا هو بالموت . « ويأتيه المـوت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » .. « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » ثم يشرح لنا أكثر « لهم من فوقهم ظلل من النار ومـن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعبادى فاتقون » هاهو ذا يبين لنا حقيقة جديدة فيقول انه يورد الالفاظ للتخويف) .. فلعمرى ان الألفاظ مراد بها الى التخويف ، ولكن ليس هذا قصاراها ، وانما هى تصف واقعا فى الحق ، وهى النار .. والنار ، نفسـها ، مراد بها الى التخويف .. والمراد من التخويف ، فى الحكمة ، سـوق العباد الى الله ، باظهار افتقارهم اليه .. وانت ، حين تجعـل الألفاظ للتخويف

فقط ، ينتهى بك الأمر الى القول بأن القرآن انما يهول ، ويبالغ ، من غير ارتكاز على دقة فى وصف الحقيقة ، وبهذا لايكون القرآن كتاب علم ، كما هو واقع الأمر ..

وأكثر من ذلك !! فانك يخشى عليك ان تنساق الى التقليل من شأن العذاب ، والى انكار العذاب .. فانك ، فى صفحة ٨٨ ، وفى صفحة ٨٩ ، يجرى على قلمك : « ان العذاب حق .. والثواب حق .. وهنا يعترض معترض ..

ألا يتنافى مع رحمته ومع عظمته ان يعذب .. ويعذب من ؟؟ .. انسانا مسكينا لايساوى ذرة أوهباء فى مملكة الله اللانهائية ..

وهو اعتراض كان يشغلنى دائما . وكان يصرفنى دائما عن قبول فكرة العذاب وبالتالى عن القرآن وعن الدين كله : والسؤال يحتاج منا ان نتعمق معنى كلمة عذاب ..

والله بالفعل لا يعذب .

انما هو فقط يعدل . » .. وهذا قول خطأ .. فأن الله يعذب ، ولكن له حكمة وراء العذاب .. والسؤال لايحتاج منا أن نتعمق معنى كلمة عذاب ، وانما يحتاج منا ان ننظر فى الحكمة وراء العذاب .. ان قولك : « والله بالفعل لايعذب انما هو فقط يعدل » ، ينبع من الرأى الخاطىء ، وهو ان الانسان مخير .. ان النار حق ، والعذاب فيها حق ــ النار حق ، كما ورد وصفها فى القرآن ، والعذاب فيها حق ، كما ورد وصفه فى القرآن حسا ، ومعنى .. ومن ظن ، كما ظننت ، فى صفحة ٩٢ : (« سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله » ان هذا الصغار هو الذى سيعذب ويحرق .. لأنه سيكون حسرة على صاحبه حينما يرى مكانته ، ومكانة الآخرين ، ومقدار ماخسر ومقدار ماكسبوا « ربنا أنك من تدخل النار فقد اخزيته » ..

الله يعتبر الخزى فى هذه الآية أشد من النار ايلاماً .) .. فهو واهم .. ويجب ان يكون واضحا ، فان العذاب الحسى ، والعذاب المعنوى ، مجموعان فى النار ..

انى اعلم انك لاتقول بنفى العذاب الحسى بصورة قاطعة ، فقد قلت فى صدر صفحة ٨٨ عن التخويف : « ولكنه ليس تخويفا على غير أساس » ولكن اللبس فى هذه العبارة قائم ، ثم انك لم تزد على ان قلت ، فى صفحة ٩٤ : « وهذا لاينفى ان يكون العذاب المذكور حسيا ، بل أنه من الممكن ان يكون معنويا وحسيا ، فى نفس الوقت » . .. وهذا القول لا يكفى .. فان الايمان واجب بظاهر القرآن ، وعلى ماتعطيه الفاظه ، وشك الشاك ، فى وجود النار الحسية ، والعذاب الحسى ، كما جاء فى ظاهر الفاظ القرآن ، قد يطعن فى ايمانه ..

وانت تقول فى صفحة ١٠٩ : « أكاد أجزم بأن الفاظ القرآن ، بما فيها من جلجلة ، وصلصلة ، حينما تصف الجحيم انما هى نذير حقيقى بعذاب فوق التصور سوف نعذبه لأنفسنا بأنفسنا عدلا وصدقا على رتبة استحقها كل منا بعمله .. وأكاد أضع يدى على الحقيقة .. لاريب فيها .. تعالى الله عن ان يعذبنا شهوة فى عذاب .. وهو الحق العدل الحكم .) ..

وهذا قول يؤكد انك تذهب الى العذاب المعنوى ، وتنكر العذاب الحسى .. « نعذبه لأنفسنا بأنفسنا » .. وكأنك تسوق عبارة « تعالى الله عن ان يعذبنا شهوة فى عذاب .. وهو الحق العدل الحكم » لتدلل بها على مذهبك فى العذاب المعنوى ، لأنك قد قلت من قبل ، فى صفحة ٨٩ : « والسؤال يحتاج منا ان نتعمق معنى كلمة عذاب » وواضح، بالطبع ، ان عبارة : «تعالى الله عن ان يعذبنا شهوة فى عذاب»، انما تجد الأجابة عليها فى البحث ، وراء حكمة العذاب ، لا فى معنى

العذاب .. فأن العذاب حسى ، ومعنوى .. والايمان بالجانب الحسى منه ، أوجب ، من الأيمان بالجانب المعنوى .. لأن الجانب الحسى قد جاء به ظاهر القرآن .. والايمان بظاهر القرآن ، وبما جاء به ، وعلى وفق ما يأتيه الظاهر ، هو أول مداخلنا على مراتب الدين .. وعلى كل حسن ظنك بسعة الرحمة الألهية فى هذا الفصل ، لم اظفر لك برأى يشير الى ان العذاب فى النار مرحلى ، وأن النار ستنتهى ، وان من يدخلونها يصيرون من رحمة « الرحمن » ، وهى الرحمة المشوبة بالعذاب ، الى رحمة « الرحيم » ، وهى الرحمة الخالصة من العذاب .. وتجب لهم يومئذ الجنة .. يجرى لهم هذا بصرف النظر عن أعمالهم فى الحياة الدنيا .. بل قد ورد منك عن الجنة مايدل على ضعف علمك بالجنة وبالنار .. ورد ذلك فى صفحة ٩٦ : (واتصور ان أعلى الناس قدرا فى الجنة هم الذين سيرتفعون عن متع الحواس وجنة الحواس ويختار لهم الرحمن درجة الحياة الروحية الخالصة الى جواره فى سدرة المنتهى حيث لاتكون اللذة هى لذة طعام ولا لذة شراب ولا لذة حور عين وانما لذة النظر الى الله فى كماله ولذة تأمل الحق والجمال وصورة الخير المطلق انها لذة الجالس على يمين الله « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ») . والذى يجب أن يتقرر ، فى ختام هذا الفصل ، هو أن سعة الرحمة الألهية : « ورحمتى وسعت كل شىء » ، انما تعنى : ان كل مخلوق مرحوم .. وان كل من دخل النار ، بما فى ذلك ابليس ، لايعذب انتقاما ، تعالى الله عن ذلك ، وانما يعذب رحمة ، وحكمة .. والحكمة تتجه الى أن تجعل العذاب فرصة للتعلم .. والعلم ، ههنا ، هو معرفة الله ، ومعرفة الله تطفىء النار الحسية ، والنار المعنوية ، وتتداعى بصاحبها الى الجنة .. والخلق ، فى الخروج من النار ، يتفاوتون فى الميقات ، حتى اذا خرج آخر من يخرج ، وهو أبليس ، اكلت النار

بعضها ، وفنيت، وانتهت، وصار الأمر كله الى الجنة .. والجنة تتفاوت بأصحابها ، « هم درجات عند الله .. والله بصير بما يعملون » .. وتفاوت الدرجات فى الجنة هو الذى يحكى العذاب المعنوى ، الذى اســـهبت انت فيه .. ولكنه مع وجود اهل النار فى النار ، لايكاد يسمى عذابا .. وما يمكن ان يقال فيه هو أن جنة أناس، نار آخرين .. والقاعدة العرفانية تقول : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .. ثم ان الجنة تنتهى أيضا .. فاذا ما انتهت النار فى الأبد ، فأن الجنة تنتهى فيما بعد الأبد ، وذلك لمكان قربها من الأصل ، اذا ماقورنت بالنار .. وذلك الاصل هو الخير المطلق ــ هو الله ــ ولما كان السير الى الله انما هو فى السرمد ، ولما كان الانتهاء اليه انما هو فى غير مكان ولازمان ، فأن هذه الحقيقة هى التى تقرر نهاية الجنة .. والآية التى اوردتها انت فيما اقتبست لك آنفا ترد هكذا : « ان المتقين فى جنات ، ونهر * فى مقعد صدق ، عند مليك مقتدر » .. والتقوى درجات ، ادناها اتقاء محارم الله .. قال تعالى : « تلك حدود الله ، فلا تقربوها .. كذلك يبين الله آياته للناس، لعلهم يتقون» أدناها الائتمار بالأوامر ، والأنتهاء عن النواهى .. واعلاها الاستقامة فى السير خلف الله .. وفى هذه جاء قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه .. والى الله المصـــير » .. فهو تبارك ، وتعالى ، بعد أن حـذرنا حرامه ، وحلاله .. وأمره ، ونهيه ، انتهى بأن يحذرنا نفسه.. وفى مقابل درجات التقوى درجات الجنات.. قوله ، من الآيتين السابقتين ، « ان المتقين » ، فى أدنى درجات التقوى ، « فى جنات » ، يعنى فى أدنى درجات الجنات .. فاذا زادوا فى التقوى ، فقد ارتفعوا فى الدرجات ، فجـــاءت ، « ونهر » .. فاذا زادوا ، ارتفعوا ، فجـــاءت « فى مقعد صـــدق » .. فاذا جـــاءوا الى قمة التقوى ، فصاروا عند الله ، حيث لا حيث ، فقد خرجوا ، أو

كادوا يخرجون ، عن المكان والزمان ، وجاءت ، ههنا ، عبارة : « عند مليك مقتدر » ، فأن هـذه هى مرتبة هـؤلاء .. و « عند » ، هنا ، ليست للزمان ، ولا للمكان ، الا فى الفينة بعد الفينة .. ههنا تنتهى الجنة .. بمعنى أنها مكان ، وزمان ..

هاتان الآيتان ، ترسمان التدرج ، الذى ، فى مضماره ، تنتهى الجنة .. « ان المتقين فى جنات » ، هذه درجة ، وتشتمل على درجات . « ونهر » هذه درجة ، وتشتمل على درجات .. « فى مقعد صدق » ، هذه درجة ، وتشتمل على درجات .. « عند مليك مقتدر » هذه درجة ، لها بداية ، وليست لها نهاية ، لأن نهايتها فى الأطلاق .. اين هذا القول : من قولك الذى اقتبسـناه آنفا : « ويختار لهم الرحمن درجة الحياة الروحية الخالصة الى جواره فى سدرة المنتهى » ؟؟ ان سدرة المنتهى قريبة !! قـريبة !!

بهذا ننهى مراجعتنا لفصلك هذا .. وعند الله نلتمس حسـن القبـول ..

الفصـــــــــل الخامس

الحـــــلال والحـــــرام

(التحريم فى القرآن ، ليس لمجرد التحريم ، ولا التحليل ، لمجرد التحليل ، وانما هو تحليل ، لكل ما هو طيب ، وتحريم ، لكل ما هـــو خبيث .. « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ») قـــولك هذا ، حق .. ولكنه يجىء فى المرتبة الثانية .. فليست الحكمة ، وراء التحريم والتحليل ، فى المكان الأول ، هى الخبائث ، والطيبات ، وانما الحكمة هى التعليم .. قال تعـــالى ، فى ذلك : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخـــذهم الربا ، وقد نهوا عنه ، وأكلهم أمـــوال الناس بالباطل .. واعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما » .. وفى موضـــع آخر ، يقول تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم ، ان شـــكرتم وآمنتم ؟؟ وكان الله شاكراً عليماً » .. فانما من اجل ان نشكر ، وان نؤمن ، وظفت وظائف التكاليف ، وحرم الحرام ، وحلل الحلال .. وانما فى سبيل العقوبة على الطغيان ، حرمت الطيبات على اليهود .. وفى الحق ، ان الحرام والحلال حكم شرعى ، أو قل : حكم عقلى ، يتوجه به العقل القديم الى العقل الحـــديث ، ليجعل قانون تعليمه على وفقه .. يحاكيه ، ويسير اليه فى مصاقبة ، وتقليد .. والأعيان ليس فيها حرام .. كلها حـــلال .. ولكن حكم الوقت ينزل حـــــلالها منازل ، لتنطبق على التشريع ، ولتجد كلمة خبيث مدلولها ، ولتجد كلمة طيب مدلولها .. وحكم الوقت يتدرج بالعقول الى النضج .. فاذا جاء وقت نضـــج العقول ، برزت الأعيان الى مقامها ، وهو الطيبة .. وانتهت مرحلة

الخبث ، وعادت الأشياء كلها الى الحل ، حيث استغنت العقول ، بفضل الله ، ثم بفضل المعرفة ، عن الزجر ، والعنف المتمثل فى التحريم .. مرة أخرى !! « ما يفعل الله بعذابكم ، ان شكرتم ، وآمنتم ؟؟ وكان الله شاكراً عليماً » .. والى ذلك اليوم ، الذى تعود فيه الأعيان الى أصلها من الحل بأستغناء العقول ، بفضل الله ، ثم بفضل العلم ، عن عنف التحريم ، ورد قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، جناح فيما طعموا ، اذا ما اتقوا ، وآمنوا ، وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا ، وآمنوا ، ثم اتقوا ، واحسنوا .. والله يحب المحسنين » .. هذه هى درجات التقوى التى اشرنا اليها فى فصل : « الجنة والجحيم » .. فاذا ما انتهت تقوانا الى الله ، نفسه ، فقد أصبحنا فى سعة .. وجاء مشهد : « والله يحب المحسنين » ، التى جعلت فاصلة للآية أعلاه .. وفى الحق ، ان هذا الأمر — أمر تحريم الأعيان كوسيلة الى تحريم عيوب السلوك — هو الأساس الذى تدور عليه حكمة الدين .. وعيوب السلوك جماعها اتباع هوى النفس .. وهوى النفس يخلص منه احد أمرين : أما الضرورة الملجئة ، أو العلم النافع .. والى العلم النافع وردت الأشارة بالآية السابقة ، وبه أنتهى التحريم ، وأفضى الأمر الى الحل .. والى الضرورة الملجئة الأشارة بقوله تعالى : « انما حرم عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله .. فمن اضطر ، غير باغ ، ولا عاد ، فلا أثم عليه .. ان الله غفور رحيم » .. جمع المحرمات فى اربع .. ثم تجاوز عنها .. وحللها للمضطر ، غير الباغى ، ولا العادى .. وذلك لأن الأضطرار قد نفى عنه هوى النفس .. فانما هى الحياة ، أو الموت ..

وعن كون الأصل ، فى المكان الأول ، تحريم عيوب السلوك . وانما جاء تحريم الأعيان ، فى المكان الثانى ، جاء قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة .. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل انما حرم ربى الفواحش .. ما ظهر منها ، وما بطن .. والأثم ، والبغى بغير الحق ، وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » .. وهذا هو نهج القرآن ، وأسلوبه ، وحكمته ، فى تهذيب النفوس ، جريا وراء قاعدته العامة : « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى انفسهم .. » فقد جاء تحريمه للاعيان فى مرتبة آيات الآفاق ، ثم دنى قريبا من النفس ، فحرم عيوب السلوك الخارجية : « الفواحش » ، ما ظهر منها .. و « الأثم » و « البغى » بغير الحق .. و « ان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وان تقولوا على الله مالا تعلمون » .. ثم دخل الى السريرة ، فقال : الفواحش ، ما ظهر منها ، « وما بطن » .. وقال : « وذروا ظاهر الأثم ، وباطنه .. ان الذين يكسبون الأثم سيجزون بما كانوا يقترفون » .. و « ظاهر الأثم » عيوب السلوك المختلفة ، فى جانب الحق ، وفى جانب الخلق .. وباطن الأثم ما يحوك فى السر ، وفى سر السر .. (فى السرائر) .. من دقائق ، وخوافى ، الشرك ، ومن سوء الظن بالله ، وبالناس .. فالمقصود من وراء تحريم ظواهر ما حرم ، انما هو تحريم بواطنه ، فما الظاهر الا مجاز الى الباطن .. « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى انفسهم .. » وظاهر التحريم انما قام على ظاهر القرآن .. لا لف ، ولا دوران .. ولذلك فأن قولك ، من صفحة ١١١ : (لو أخذنا الآية بظاهر حروفها دون ان يكون جوهر القضية واضحاً فى الذهن فسوف نجد أن الحياة الطبيعية فى زماننا « زمن

المينى جيب ــ والديكولتيه ، والجابونيز ، والصدر العريان ، والشعر المرسل ، والباروكات الذهب »

امر صعب وهناك اكثر من نوع من النظر فما هو نوع غض البصر المقصود ؟؟

لابد من العودة الى جوهر التحريم لنفهم الآية ..

والله حرم الضار الخبيث . ومجرد أرسال النظر لاضرر منه ولكن الضرر فيما يجرى فى القلب والعقل نتيجة امعان النظر الخبيث) ، هو قول يتورط فى الخطأ حين يحاول أن يتحلل من نص التحريم القائم على النهى ، ليجعل التحريم مسألة اعتبارية : « ومجرد ارسال النظر لاضرر منه ، ولكن الضرر فيما يجرى فى القلب والعقل نتيجة امعان النظر الخبيث » ، كما تقول أنت .. ولا عبرة برأيك فى أن الحياة الطبيعية فى زماننا ، « زمن المينى جيب .. والديكولتيه ، والجابونيز ، والصدر العريان ، والشعر المرسل والباروكات الذهب »

أمر صعب » ، ذلك بأن الشريعة لا تزايل الزامها اعتباراً للصعوبات التى تواجهنا بها حياة التحلل ، والتفسخ والتبذل .. بل انها لتطالب برد الناس ــ كل الناس ــ الى الجادة .. فان عجزنا نحن عن التزام الشريعة ، فى أنفسنا ، وعن الزام غيرنا بها ، فلنعترف بالعجز ، ولنعرف أننا نعيش ناصلين عن الشريعة .. ذلك خير من أن نحاول أن نفصل الشريعة على تقصيرنا ، وعلى عجزنا عن الألتزام .. وأنت تسأل : « فما هو نوع غض البصر المقصود ؟؟ » .. والجواب : هو مجرد غض البصر .. والقرآن يقول ، فى ذلك من الآيتين اللتين سقت أنت طرفاً منهما : « قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم .. ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون ❊

وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن ، الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو اخوانهن ، أو بنى اخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء .. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن .. وتوبوا الى الله جميعاً ، أيها المؤمنون ، لعلكم تفلحون » .. غض البصر ، اذن ، هو مجرد غض البصر .. طاعة للأمر : « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم » .. هذا من جانب الرجال .. وطاعة للأمر : « قل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن » .. هذا من جانب النساء .. وقد جاءت الشريعة تفصل ، فلم تزد على أن قالت : النظرة الأولى لك .. والنظرة الثانية عليك .. يعنى : اذا وقع بصرك على الحرام ، فى المرة الأولى ، فهو مغفور لك ، لأنك لم تتعمد النظر .. فاذا عاودت النظر بعد ذلك كتب عليك ، وحوسبت به .. والمطلوب ، فى المكان الأول ، فى هذا المقام ، هو حفظ الفروج .. وقد فرض حفظ النظر حماية ، ودرأ ، للجريمة الشنيعة — جريمة الزنا .. فكأن غض البصر حمى مضروب حول الجريمة ، فمن استخف بالحمى ، واقتحمه ، فقد أوشك ان يواقع الجريمة .

أحب لك أن تذكر ، دائما ، أمرين اثنين : أحدهما ، أن الشريعة تقوم على الظاهر .. وثانيهما ، أنها تعمم ..

بين الشريعة والحقيقة :

ولقد نبهتك على الأمرين السابقين لأنك بهما تحرز المقدرة على أن تميز بين الشريعة والحقيقة ، فلا

تتورط فى التخليط .. ذلك التخليط الذى يطالعنى حيثما نظـرت فى أقوالك ، فى أمر الحلال والحرام ، فى هذا الفصـل .. خذ ، مثلا ، قولك ، من صفحة ١١٢ : (والرجل العابد الزاهد المشغول القلب بالله يرى الجمال فيرى فيه الخالق الذى صور وليس المخلوق . فلا تكون نظرته خلالا فقط .. وانما تكتب له حسـنة .. وهى نظرة لا يقدر عليها الا متصوف عابد يرى قدرة الله فى كل شىء وابداع صنع الله على وجه كل شىء ..

« وصوركم فأحسن صوركم » . وهو رجل قد غفل عن الخلق فلم يعد يرى الا الخالق) .. هذا قولك ، وهو قول يدل على عـدم التمييز الدقيق ، فى الأمور .. وصاحبك ، هذا العابد ، الزاهد ، الذى وصـفته انما هو رجل مذهوب العقل : « هو قد غفل عن الخلق فلم يعد يرى الا الخالق » .. وهو ، من ههنا ، قد رفع عنه تكليف الشرع .. هو فى حالة فناء .. فأن أفضى به فناؤه الى البقاء ، فأنه يصبح صاحب حقيقة .. ولابد لصاحب الحقيقة ، الباقى ، من شريعة .. وقد تكون شريعته فردية ، فهو يعيش بها فوق مسـتوى شريعة الجماعة .. ولها ضابط ، هذا الضابط هو ، دائما ، عصـمته من أن يخرق شريعة الجماعة ، مما يترتب عليه ضرر على أحد .. وخرق شريعة الجماعة، فى المعاملات، دائما يترتب عليه ضرر .. لأن المعاملة لا تقع الا بين طرفين ، على الأقل .. وفى صفحة ١١٣ يرد قولك : « وهنا نصل الى جوهر التحريم .

فالتحريم دائما لضرر والله اقام شريعته محبة ورحمة لا تسلطاً وغطرسة . فاذا انتفى الضرر .. فانت فى المنطقة الحلال . وغض البصر ليس فقط غض البصر عما يتعرى من الجسد وانما هو ايضاً غض البصر عما فى يد الناس من مال ونعمة ، وهو الحياء والترفع عن

النزول بالنفس الى مواطن الشهوة والحسد والحقد والغيرة » .. هذا ما قلته انت .. وسيقوم سؤال بسيط : اذا كانت هناك قاعدة تشريعية ، فى المعاملة ، وخرقها انسان ، على اعتبار انه ، فى نظره ، لم يضر نفسه ، ولا غيره ، بهذه المخالفة ، فهل يترك ليكون هو قاضى نفسه ، حين أخذ القانون فى يده ؟؟ أم هى يجلس ، فى القضاء على باطل ، وحق دعواه ، رجل غيره ؟؟ فأن قلت بالأولى ، فقد عطلت تنفيذ الشريعة ، حين جعلتها أمرا يخضع لأعتبار كل فرد .. وان قلت بالثانية ، فأن مجرد خرق شريعة المعاملة جريمة ، وان لم يكن هناك خصم يشكو الضرر .. وأما قولك : « وغض البصر ليس فقط غض البصر عما يتعرى من الجسد وانما هو أيضا غض البصر عما فى يد الناس من مال ونعمة » ، الخ ، الخ .. فهو قول طيب .. وقد وردت فيه الآية على النبى الكريم ، تأمره : « ولاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ، زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » .. وقد ظل النبى الكريم يغض بصره عن المحارم ، ويكفكف نفسه ان تتمنى مافى أيدى الناس ، تنفيذاً لهذا الأمر ..وقد كان النبى الكريم صاحب شريعة فردية ، وصاحب حقيقة كبرى ، وصاحب شريعة جماعية لأمته .. وقد كان يعيش فى رعاية تامة لشريعته الفردية ، وهى فوق مستوى الشريعة الجماعية ، ومع ذلك ، فقد كان يعتبر نفسه محكوما بقواعد الشريعة الجماعية فى المعاملة.. وقواعد الشريعة الجماعية، فى المعاملة، تقوم على ظاهر النص .. والضرر يترتب على مجرد مخالفتها .. وغض البصر عن المحارم ، الذى نحن بصدد الحديث عنه ، خير مثال على ذلك .. فقوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم » وجبت طاعته بغير تأول فيه .. ومن خالفه، اتكالا على ان عمله ، فى تقديره هو ، لا يضر أحدا — لا هو ولا غيره — لأنه هو انما : « يرى الجمال فيرى فيه الخالق

الذى صـــور وليس المخلوق » ، على حد تعبيرك ، لا يقبل منه هذا العذر ، ويعزر ، وان لم يكن له خصم يقاضيه ، لأن الدولة هى خصمه فى هـــذا ..

وانت تقول : « ولذا جعل الطـلاق مكروها لكنه ممكـن اذا استحالت الحياة » .. هذا قولك فى صفحة ١٢٣ ، وهو قول يحتاج الى ضبط فى العبارة ، ذلك بأن الطلاق حلال .. ولكنه أبغض الحلال الى الله ، كما قال المعصـــوم .. وعبارة : « جعل الطلاق مكروها » لاتؤدى هذا المعنى .. والطلاق شريعة مرحلية ، الغـرض منه ، كما قلت ، تصحيح خطأ وقع فيه أحد الزوجين ، أو كلاهما ، عند الاختيار ، مما تستحيل معه الحياة الزوجية ، وذلك باعطاء فرصة جديدة ، لاختيار جديد .. وهو قد جعل على مرتين .. فاذا كانت الثالثة فأنها تفرق بين الزوجين تفريقا ، نهائياً، لا عودة بعده لهما الى بعضهما، الا اذا نكحت الزوجة رجلا آخر ، نكاحا صحيحا .. قال تعالى فى ذلك : « الطلاق مرتان .. فامساك بمعروف أو تسريح بأحسان .. ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ، الا ان يخافا الا يقيما حدود الله .. فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به .. تلك حدود الله ، فلا تعتدوها .. ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون * فان طلقها فلا تحل له ، من بعد ، حتى تنكح زوجا غيره ، فأن طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا، ان ظنا انيقيما حدود الله،وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » .. فهو قد جعلت فيه فرص كافية ليغير أى مـن الشريكين ، أو كلاهما ، طريقة سلوكه ليجعل استمرار الحياة الزوجية مع شريكه ممكنا .. فان استنفدت الفرص الثلاث ، فقد رسم الطريق الى فرص ثلاث جديدة : « فان طلقها فلا تحل له ، من بعد ، حتى تنكح

زوجا غيره ، فأن طلقها ، فلا جناح عليهما ان يتراجعا ، ان ظنا ان يقيما حدود الله » .. وهذه الرغبة الحكيمة ، الرحيمة ، فى استمرار علاقة انسانية بدأت بوفاق ، هى التى اتاحت كل فرص الاستمرار ، وهى التى جعلت الطلاق حلالا ، حين يستحيل الاستمرار فى جو من التسامح ، والمجاملة ، لأنه ، ساعتئذ ، سيكون خير حل لوضع ميئوس منه .. ومع ذلك ، جاء التنفير عنه .. بقول المعصوم: «أبغض الحلال الى الله الطلاق » .. وسيجىء يوم يبطل فيه الطلاق ، لقلة الحاجة اليه .. وذلك حين تكون فرص أحسان الأختيار متاحة بقدر كاف .. فان لكل رجل زوجة فى الحقيقة ، هى صنو نفسه ، وله زوجة فى الشريعة ، هى محاولة لمصادفة زوجته فى الحقيقة .. فاذا وقع الخطأ ، وهو ، فى المرحلة الحاضرة ، كثيراً ما يقع ، وكان الخطأ بدرجة يستحيل معها استمرار الحياة ، فأن الطلاق هو العلاج .. لأنه يتيح فرصة جديدة ، لمحاولة جديدة .. فاذا وقع اختيار الرجال على زوجاتهم فى الحقيقة ، ووقع اختيار النساء ، ونهض ، على هذا الاختيار ، زواج الشريعة ، فان المحبة التى تلحم بينهما تجعل شريعة الطلاق ، فى حقهما ، شريعة منسوخة .. وانما يجىء ذلك اليوم بزيادة أنوار القلوب ، والعقول ، لدى الرجال ، والنساء ، مما تتضح معه الرؤية فى بواطن السرائر .. ويومئذ يكون لكل رجل امرأة واحدة ، ويكون لكل امرأة رجل واحد .. وتكون علاقة الرجل بجميع النساء الأخريات ، وتكون علاقة المرأة بجميع الرجال ، عدا زوجها ، علاقة براءة ، وطهارة ، ونقاوة .. ولا تتجه الغريزة الجنسية فيهما ، ولا تستيقظ ، لغير شريكها .. وهذه هى حكمة التشريع فى تحريم الزواج بين الأخوات ، وبين الأم وابنها ، وهو ما أوردته أنت فى صفحة ١٢٣ حيث قلت :

« ويحرم الدين الزواج بين الأخـوات وبين الأم وابنها والأب وابنته لانه يريد أن تنمو فى الاسرة ألوان اخرى من العاطفة غير الشـهوة كالامومة والابوة والاخوة والمودة وان يكون الرباط الاسرى هـو التراحـم » ..

سيجىء وقت ، قريبا ، ان شاء الله ، تكون فيه العفة ، والصون ، أمرا ثابتا فى صدور النساء ، والرجال .. ويكون جميع النساء ، الا امرأة واحدة ، لدى كل رجل ، كأنهن أخواته ، أو أمه .. فلا تتحرك فيه رغبة جنسية لاخداهن ، على الاطلاق .. ومثل هذا يقال عن المرأة بين الرجال ، الا رجلا واحدا ، هو زوجها .. فكأن التحريم الشرعى اليوم فى الدوائر المحرمة هو مقدمة لتلك الحالة التى يصـحب مجيئها مجىء الموعود الذى سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا .. وحالة العفة هذه هى من ضمن العدل الذى ستملأ به الأرض يومئذ ..

الفصل السادس

اسماء الله

ان هذا فصل ممتع .. ولقد تحدثت أنت فيه عن الصوفية حديثا، هو فى جملته مقبول ، وفى تفصيله نظر .. ولقد جعلت الصوفيه قوما يهيمون وراء الأخيلة ، والصور الشفافة، حتى ليخيل الى القارىء أنهم من طينة غير طينته .. هذا ، مع ان الصوفية هم أنصار السنة النبوية ، وهم يمشون فى الأرض ، وترتبط أفكارهم ، وآراؤهم بالأرض ، وتتسامى الى السماء .. هم ، كل واحد منهم ، الشجرة الطيبة ، التى قال الله عنها : ان أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء .. وهم بذلك ، اصحاب شريعة ، وحقيقة .. أما قولك عنهم ، فى صفحة ١٣١ ، مثلا : « والمتصوفة اهل أطوار واحوال ولهم أراء طريفة لها عمقها ، ودلالتها فهم يقولون لك ان المعصية تكون أفضل أحيانا من الطاعة .. فرب معصية تؤدى الى الرهبة من الله والى الذل والانكسار .. وطاعة تؤدى الى الخيلاء والاغترار .. وهكذا يصبح العاصى أكثر قربا وأدبا مع الله من المطيع » ، فهو قول يظهرهم كأنهم بعيدون من صاحب الشريعة العادى .. ان قولهم هذا قد اجمله ابن عطاء الله فى حكمه ، فقال : « رب معصية أورثت ذلا ، وانكسارا ، خير من طاعة ، أورثت عزا ، واستكبارا » .. والأمر مأخذه جد بسيط ، وهو ان الرب انما هو رب قلوب ، وان حاجته الى العباد انما هى صلاح قلوبهم .. فاذا كانت الأعمال لا تؤثر على القلوب بالانكسار ، والذل اللائق بالعبودية، فهى أعمال باطلة .. ألم يقل النبى : « رب مصل لم يقم الصلاة » ؟؟

بلى !! وقال : « رب مصل لم تزده صلاته من الله الا بعدا » .. وانما كان ذلك كذلك لتمكن الغفلة من قلبه .. وأشـــد الغافلين غفلة من يستطيل بصـالح العمل حتى يورثه « عزا واستكبارا » ، فى حين ان حكمة العمل الصـــالح ، فى الطاعة ، تقـوم على أنه يورث « ذلا وانكسارا » .. ذلك لأن أعمال العبادة منهاج الى العبودية .. فاذا فشلت الطاعة فى أن تحقق الذل ، والانكسار ، وأسوأ من هذا ، اذا أشعرت بالعز والاستكبار ، فان المعصية أقرب منها الى الله ، حين تحقق ما فشلت الطاعة فى تحقيقه .. ألم يقل المعصـوم : « ان لم تخطئوا ، وتستغفروا ، فسيأت الله بقوم يخطئون ، ويستغفرون ، فيغفر لهم » ؟؟ فالغرض دائما واحد ، هو انكسار القلوب لله ، وقد قال تعالى : « انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .. فاذا كان هذا الغرض لا يتأدى بالطاعة ، وانما يتأدى بالمعصية ، فقد انتقلت الفضيلة اليها ، فى تلك اللحظة .. ولكن الكمال دائما فى أن يتحقق الانكســـار عن طريق الطاعة ، وهذا شأن الكبار ، فانهم لسعة معرفتهم بالله ، ومايجب له على العبد ، لا يرون فى عملهم الا ما يوجب الذل ، والانكسار .. فهم اذ ينصرفون عن صلاتهم ، ينصرفون وكأنما قد أتوا عملا مخزيا ، وقد اطلع عليه الناس .

ما أحب لك أن تتصور الصوفية وكأنهم قوم يمشون فى الهواء ، بغير جذور تربطهم بالأرض .. اكرر مرة أخرى : أن الصـــوفية هم أنصار السنة النبوية .. هم أنبياء ، ورسل ، بالمعنى الذى يستقيم فى الفهم الدينى بعد ختم النبوة .. وقولك فى صفحة ١٣٢ : « والمتصوف واليوجى والراهب كلهم على درب واحد وأصحاب منطق واحد وأسلوب واحد فى الحياة والزهد » قول منكر .. وهو يجىء من عـدم ادراك لحقيقة الصوفية .. يمكنك أن تقول عن الصـــوفى المسلم أنه يطلب

القرب من الله بترسم سنة النبى ، فهو يحاول أن يضع قدمه حيث وضع النبى قدمه ، من قبل .. وهو ، بتجويد التقليد ، يرجو أن يصـــب نفسه فى القالب النبوى ، حتى يتوكد له كمال اتقان التقليد برؤية النبى فى المنام ، ثم ، بتوفيق الله ، برؤيته فى اليقظة .. فليس هناك علاقة بين اليوجى ، والراهب ، والصوفى .. الا اذا كانت هناك علاقة بين ، اليوجى ، والراهب ، والنبى الكريم .. ولكن يبدو أنك أخذت على الصـــوفية أعمال بعض ادعياء التصـــوف ، من الهمهمة بالفاظ غير معروفة .. وقد كثرت ، فى أخريات التصوف ، وهى لا تحسب على التصوف الا اذا حسب سلوك المسلمين اليوم على الاسلام .. انها فترة انحطاط فما يحكم بها على حقيقة التصوف .. أجد نفسى مضطرا الى أن اكرر ، مرة أخرى ، أن الصوفية هم أتباع السنة النبوية .. وقد يبدو لى ان الذى عزلهم عن أن يعرف لهم هذا الدور هو أنهم اعتبروا كل اعمال النبى ، منذ أن كان فى غار حراء ، خلال خمس عشرة سنة ، والى أن بعث ، لاحقة بعمله بعد البعث .. فهى جميعها سنة ، لأن النبى قد كان على نهج الســـداد ، وهو يتحنث فى غار حراء .. وعن هذه الفترة ، بالذات ، قال النبى المعصوم : (ادبنى ربى فأحسن تأديبى ، ثم قال : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ») فصدر هذا الحديث : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » نبوة ، وعجزه : « ثم قال : خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » ، رسالة .. ولقـد ختمت المرحلة التى بدأت فى غار حراء ، من مراحل النبوة ، بنزول أول القرآن : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ ، وربك الاكرم * الذى علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم» .. وبدأت الرسالة ، بعيد ذلك، وذلك بقوله: «يا أيها المدثر * قم فانذر » .. ومنذ ان بدأت الرسالة برز النبى للدعوة .. وبدأ التشريع

فى بطء ، ثم تواتر بعد الهجرة .. والناس على أن سنة النبى ، انما هى بعد البعث ..ولا يعتبرون فترة ما قبل البعث، كما يعتبرها الصوفية.. وهذا هو الذى عزل التصوف ، فى افكار بعض الناس ، عن حياة النبى .. هذا ، ويمكن القول بان الصوفية قد زادوا على سنة النبى اشياء أملاها حكم الوقت، واعتبروها بدعة حسنة ، وذلك كاتخاذهم المسابح ، مثلا ، والطويلة منها بصورة خاصة .. وهناك حق فيما قلت فى صفحة ١٣٣ : (والتسبيح الحقيقى فى نظر الغزالى لايكون بمسبحة ولايكون باللسان وانما بالقلب .. فى الخلوة والسكون والصمت .. مع دق القلب تتلو الروح فى صمت وبدون صوت .. اسماء الله : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا ، وخيفة ، ودون الجهر من القول .. » . وهى أرقى درجات التصوف ولايستطيع بلوغها الا من بلغ سكون النفس وصفاء الروح وامتلك القدرة على حصر الانتباه والتركيز والانصراف الى التأمل بجماع القلب والهمة، وقويت عزيمته فقهر شهواته وشواغله الدنيوية وصعد درب السالكين الى الله . وهو صعود أشق من الصعود الى القمر . لانه يقوم على الجهاد الهائل مع النفس .) .. هذا ماقلته أنت ، وهو قريب من التصوف .. ولكن يجب أن نفهم أن التصوف يبدأ من بداية ، ويترقى الى التسبيح الحقيقى .. وبدايته الأولية التسبيح باللسان ، ولو بغير حضور، الى جانب الصلوات، والصيام .. ثم يكون التدرج فى المراقى .. ويجب ان يكون واضحا أن هذا الذى وصفته عن الغزالى ليس هو « ارقى درجات التصوف » ، كما ذكرت انت ، وانما أرقى درجات التصوف ان يبرز الصوفى من الخلوة ، الى الجلوة ، فيعامل الخلق بالشريعة ، ويعامل الخالق بالحقيقة — (هو يعامل الخالق فى الخلق) ثم لا تكون له خلوة بعد ذلك لمعاملة ربه الا قيـــام الليل ..

وعن موسى ، فى أمر الله له : « فاخلع نعليك .. انك بالوادى المقدس طوى » ، انت تقول : « ان المقصود بالنعلين هما النفس والجسد .. هوى النفس وملذات الجسد .. فلا لقاء بالله الا بعد أن يخلع الانسان النعلين : نفسه وجسده بالموت أو بالزهد . والله يصورهما كنعلين لانهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح فى عالم المادة وعن طريقهما نزلت من سماواتها الى الأرض . ولهذا يبادر المتصوف بأن يخلع النعلين ليخطو أول خطوة فى الوادى المقدس » .. هذا قولك فى ص ١٣٥ : ما من شك أن للصوفية تأويلات تختلف فى أمر النعلين ، ولكن انضج التأويلات مايتمشى مع واقع حال موسى يومئذ .. ذلك أنه بعد أن قضى الأجل لشعيب ، وهو عشر سنوات ، انفقها فى رعى غنم شعيب ، وقضاء حوائجه المختلفة ، وقد كانت بمثابة مهر لزواجه من احدى بنتى شعيب ، سار بأهله قاصدا مصر .. فلما كان فى بعض طريقه ، فى سيناء ، وكان ظلام ليلته تلك شديداً ، وبردها قارسا ، وكان قد ضل طريقه ، آنس نارا من جانب الطور .. فترك أهله ، ويمم شطر النار .. وقد قص علينا القرآن من خبره ، فقال « وهل أتاك حديث موسى * اذ رأى نارا ، فقال لأهله: امكثوا !! انى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بقبس ، أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودى : ياموسى !! * انى آنا ربك .. فأخلع نعليك .. انك بالوادى المقدس : طوى * وأنا اخترتك .. فاستمع لما يوحى » .. فالنعلان هنا ، هما نفسه وزوجته .. فقد كان ، فى المكان الأول ، مشغولا بزوجته ، اذ تركها فى الظلام الدامس .. وكان البرد عليها شديداً .. فلما أتى النار ، وسمع الخطاب ، انزعج ، وخاف ، وانشغل بنفسه .. فخوطب : أن اترك همك بنفسك ، وهمك بزوجك ، وفرغ بالك منهما ، جميعا : « اخلع نعليك » .. و « استمع لما يوحى » .. فكأنه أعد لأستماع الوحى ، بتفريغ باله ،

وبجمعية نفسه .. فأنه قد كان باله مشغولا بزوجه ، وبنفسه ، موزعا بالخوف بينهما .. وفى اشارات الصوفية من القرآن يجىء معنى النعلين : الدنيا والآخرة .. وتفريغ البال من الدنيا معلوم ، ولكن أمره دقيق فيما يخص الآخرة .. فقد روى أن أبا يزيد البسطامى قال : « الزهد عندى ليس بشىء .. فقد مكثت فيه ثلاثة أيام .. ففى اليوم الأول زهدت فى الدنيا ، وفى اليوم الثانى زهدت فى الآخرة ، وفى اليوم الثالث زهدت فى كل ماسوى الله .. فقيل لى ماتريد ؟؟ فقلت : أريد ألا أريد .. » .. يعنى أن أترك الارادة للمريد الحقيقى — أريد أن أسلم ارادتى لله ، وان ارضى بما يريده هو — وفى حكم ابن عطاء الله السكندرى : « لا ترحل من كون الى كون ، فتكن كحمار الرحى ، المكان الذى انتقل منه هو المكان الذى يصل اليه .. ولكن انتقل من الأكوان الى المكون » .. أراد : لا يكن همك فى الدنيا العمل لأحراز درجات الآخرة ، فأنها كون أيضا ، وعملك ، بهذه الصورة ، ان هو الا انتقال من كون الى كون .. فاترك الدنيا ، والآخرة ، وارتحل الى رب الدنيا ، والآخرة ، جميعا .. وزوج الرجل هى نفسه ، منبثقة عنه ، خارجه .. فاذا قال الله تعالى : « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى انفسهم » ،فان جماع آيات الآفاق فى المرأة .. وأقرب النساء ، لكل رجل ، هى زوجه .. وهى عنده ، فى التحليل الأخير ، وزان الكون .. فاذا هيىء لتلقى الوحى بتفريغه من همه بزوجه ، ومن همه بنفسه ، فقد تهيأ .. وهو تهيؤ ، لايتم فى مجلس واحد ، كما قد يتبادر الى ذهن القارىء للقرآن ، وانما بدأ فى تلك الليلة ، واستغرق وقتا طويلا .. فأنه ، فيما يخص المعصوم، قد استغرق وقتا طويلا .. فأما فى القرآن، فقد وردت وسيلته هكذا : « يأيها المزمل * قم الليل ، الا قليلا * نصفه ، أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا * انا

سنلقى عليك قولا ثقيلا » .. وهو تهيؤ مسبوق بتهيؤ آخر ، استغرق خمس عشرة سنة فى غار حراء .. وقد أوجزه المعصوم فى قوله « ادبنى ربى فأحسن تأديبى ، ثم قال : خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .. « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعـرض عن الجاهلين » هذه حالة هى ثمرة القول الثقيل فى حالة النبى « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .. وهى ثمرة مايوحى فى حالة موسى : « فاستمع لما يوحى » .. وكانت تحتاج لاعداد وقد جرى هذا الاعداد فى حالة نبينا ، كما جرى فى حـالة موسى ..

وعن رؤية الله أنت تقول ، بعد أن تورد بعض الآيات : (وقـد انكرت بعض الفرق الاسلامية امكانية رؤية الله فى الآخرة ، وفسرت هذه الآيات بانها رموز واشارات ومجاز لا حقيقة وانها تفهم على باطنها لا على ظاهرها ، وكانت حجتها أن العين لا ترى الا المحدود المتناهى فى الزمان والمكان ، والله لا محدود ولا متناه ومتعال على الزمان ، وبالتالى لايمكن لعين أن تراه .. وهى حجة واهية وتصـور مادى دنيوى .. فهم يتصورون أن الروح سوف تبصر بعين مادية فى الآخرة وستكون لها حدقة وأجفان وستظل ملابسة للزمان والمكان المعروف فى الدنيا .. وهو أمر ينكره القرآن فيقول عن النشأة الاخرى : « وينشئكم فيما لاتعلمون » أى انه سينشئنا نشأة مختلفة تماما عن كل ما نعلم .. ولا غرابة فى ان يكون للروح بصر شامل يدرك اللا محدود وان نرى الله كما يراه الملائكة) .. هذا ما تقوله انت ، فى صفحتى ١٣٦ و ١٣٧ .. وانه لغريب حقا ان تعتقد ان الملائكة يرون الله .. يبدو انك قد ضللت بظاهر النص فى المحاورة التى جرت بين الله تبارك وتعالى والملائكة ، فى مشهد اسجادهم لآدم.. فانظاهر النصيوهم ذلك ، ولكن التوحيد يقول ما قال المعصوم : « ان الله قد احتجب عن البصائر كما احتجب عن

الابصـــار ، وان الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه » .. والله ذات ــ نفس ــ ، والملائكة لا ذات لهم ، لا نفس لهم .. ومن أجل ذلك فانهم لا يطيقون رؤيته .. هم مخلوقون من نور العقل ،والعقل نفسه حجاب دون الذات .. وأما البشر فان شأنهم جد مختلف ، ذلك بان لهم أنفسا ، وهم ، من ثم ، يشبهون الله ، ويطيقون رؤيته .. ان مطلق بشر اكمل من أى ملك ، فى المآل ، وان كان الملائكة اكمل فى الحال .. فكمال الملائكة كمال درجة .. وكمال البشر كمال نشـــأة .. فكأن الملائكة معالم ــ (حجار كيلو) ــ فى طريق تطور البشر مترقين نحو الذات الألهية .. فالبشر يتطورون ، ويترقون ، ويلقون الله .. ولكن الملائكة ثابتون على هيئتهم ، الا قليلا .. وسبب كمال نشـــأة البشر هو النفس الأمارة ، التى امتازوا بها على المـلائكة ، والتى تخطىء ، وتصيب .. والى ذلك الأشارة بحديث المعصـوم « ان لم تخطئوا ، وتستغفروا ، فسيأت الله بقوم ، يخطئون ويستغفرون ، فيغفر لهم » ..

معـــرفة الله

مرة أخرى ، يطالعنى اغراقك فى الحديث عن الصـوفية : (وهو لا يرى شيئا الا رأى الله فيه، والله عنده ليس فى حاجة الى عبادتنا، وهو يفسر الآية القرآنيه : « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون » ، ان معناها ما خلقت الجن والأنس الا ليعرفون ، فـلا يمكن ان تتم عبادة بدون معرفة ، ولا يمكنك أن تعبد ما لا تعرف .. أنها لا تكون عبادة وانت لاتكون عابدا الله الا اذا كنت عارفا بالله ولا يمكن ان تعرف الله الا اذا عرفت نفسك أولا ثم تجاوزتها مهاجرا الى خالقها . وتتضمن الآية جميع هذه المعارف فالله خلق الانسان ليعرف نفسه ثم يعرف ربه فيتم بذلك للانسان جلاء البصيرة الكامل والارتقاء الحقيقى عبر صراع الجسـد والروح) .. هذا ما قلته أنت ، فى صفحتى ١٣٩ و ١٤٠ ..

وانا ، انما ابغض لك الأغراق فى وصف التصوف بهذه الصورة ، لأنك بذلك انما تعزل التصوف عن الممارسة اليومية ، ولا تدع للشـــباب سبيلا اليه ، لأنك تشعرهم بأن الصـــوفى رجل « يمشى على الهواء » ، ويبدأ من نقطة لا يتفق للناس العاديين أن يبتدئوا منها .. هذا فى حين أن بداية الصوفى انما هى بداية الرجل العادى ، بأختلاف واحد ، بسيط ، هو أن الصوفى شحذ همته ، وشـــمر عن ساعد الجد ، فاظمأ نهاره ، وأسهر ليله .. وأنظر قولك : « والله عنده ليس فى حاجة الى عبادتنا »!! أليس هذا هو واقع الامر عند المسلم العادى ؟؟ ألايقول الله ، فى ظاهر نصـــه ، فى القرآن : « يأيها الناس !! أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد .. »

ألم يقل : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفســـه .. ان الله لغنى عن العـــالمين » ؟؟

ألم يقل : « لقد كان لكم فيهم أســـوة حسنة .. ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » ؟؟

ألم يقل : « ان تكفروا : أنتم ، ومن فى الأرض جميعا ، فأن الله لغنى حميد » ؟؟

بلى !! قد قال كل أولئك .. وفى الحديث يرد مايشير الى أن الله ليس فى حاجة الى العبادة .. فما الذى أوجب أن تورد أنت هذه الحقيقة منسوبة الى الصوفية وكأنها أمر غريب على المسلم العادى .. وقولك : « فلا يمكن ان تتم عبادة بدون معرفة ولا يمكنك أن تعبد ما لا تعرف » قول مغرق فى عزل الصـــوفى عن المسلم العادى .. فان الصوفية يبدأون بالأيمان ، ولا يبدأون بالمعرفة .. وعندهم تجب معرفة ما لا تصح العبادة الا به من أمور الشريعة ، ثم يعبدون ، ويترقون الى معرفة الله بهذا الاسلوب .. ودليلهم فى ذلك قول الله : « واتقوا الله

ويعلمكم الله » .. وقول المعصوم : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » .. وكل ما هناك ، انهم يؤكدون ان من يعمل بالشريعة لابد يصل الى الحقيقة .. فهم ، اذ يبدءون بداية بسيطة ، يعلمون الشريعة ، فيعملون ، ويتطلعون ، أثناء عملهم ، الى معرفة الحقيقة ، الى معرفة الله .. فالمعرفة عندهم ثمرة العبادة .. والعبادة لاتقوم الا على الايمان ، والتصديق برسالة محمد .. أليس هذا نهج المسلم العادى ؟؟

وقولك : « وانت لاتكون عابدا الله الا اذا كنت عارفا بالله ولايمكن ان تعرف الله الا اذا عرفت نفسك أولا ثم تجاوزتها مهاجرا الى خالقها » ، قول يتسم ، الى جانب الأغراق ، والمبالغة ، فى أمر الصوفى ، بعدم دقة فى حقيقة ما هو عليه الأمر .. ذلك بأن الله يقول : « من اهتدى فأنما يهتدى لنفسه » .. والمعصوم يقول : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .. يبدو لى أن الأمر قد لبس عليك .. فأن النفس التى تتجاوزها لتصل الى الله هى النفس السفلى التى عبر عنها نبينا الكريم فقال : « ان أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » .. وهذه هى جماع الجهالات ، والرعونات .. أما نفسك المشار اليها فى الآية أعلاه ، وفى الحديث ، فأنك لا تتجاوزها وتسير بعدها الى الله ، وانما أنت تعرف الله فى معنى ما تعرفها هى ، لأنها هى نفس الله .. قال تعالى ، فى ذلك : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها » .. فأن النفس الواحدة التى خلقنا منها انما هى نفسه ، تبارك ، وتعالى : « وخلق منها زوجها » .. هذه هى نفس الانسان الكامل .. هى النفس العليا ، لكل انسان .. ومن هذه ، فى تنزل ، جاءت النفس الدنيا .. ان قيمة كتابك هذا ، عندى ، هى أنه يملك قدرة ، أكبر من كتابات جميع الفقهاء ، على اثارة الاهتمام

بالدين فى صدور الشباب .. وليس الى الدين من سبيل غير ممارسة النهج الصـــــــوفى ، فأن جعلت أنت ، كمـــا هـــو واضح فى كتابك هذا ، هذا النهج معزولا عن البدايات البسيطة ، من الأرض ، فأنك تؤيس الشباب من الممارسة تأييساً ، وتجعل قراءتك متعة ذهنية صرفة ، لاتقـدم النهج التعبدى النافع .. وهذا ماكرهته لك .. انك لأنت ، بالذات ، فى أشـــد الحاجة الى ممارســة النهج الصوفى ، (اقرأ : السنة النبوية) ، ذلك لأن مواهبك الفذة التى تطالعنى فى هذا الكتاب تحتاج الى صقل ، والى تهذيب ، يرســـخ فيها وحدة الفكر ، ووحدة الشعور .. وليس الى ذلك من سبيل غير ممارســـة العبادة فى تقليد المعصوم بأتقان .. والصـــوفيه هم زملاء طريقك على هذا النهج .. وهم اساتيذك ..

وعن الصوفيه ، مرة أخرى ، تقول : « ويقولوا للفقهاء اخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت . تقولون حدثنا فلان عن فلان عن فلان وكلهم موتى .. والواهب الحق عـــلام الغيوب اقرب اليكم من حبل الوريد وهو معكم اينما كنتم .. مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم . فكيف تتركونه وتأخذون العلم عن ســـــواه ؟ ..

ولهذا يقول المتصوفة عن علمهم بانه علم لدنى .. من لدن الله .. لا علم نقلى من الكتب ، ويصـــفون انفسهم بأنهم أهل الحضرة .. ويأخذون أنفسهم بالرياضات الروحية العنيفة والصيام والعبادة المتصلة الى درجة افناء الذات فى الله وسيلتهم الى الله اسماؤه الحسنى ومحبته القصوى التى تملأ كل ذرة من القلب فلا يعود لهم شـــاغل الا ذكره ولا يرون شيئا الا رأوا الله فيه .

هؤلاء هم أهل السر والقرب والشهود . الأولياء الصالحون حقا .

وهم ندرة شحيحة » هذا ما قلته انت ، فى صفحة ١٤٢ .. اسمع قولك : « ويصفون أنفسهم بانهم أهل الحضرة » !! واسمع قولك : « هؤلاء هم أهل السر والقرب والشهود . الأولياء الصالحون » !! الا تدخل مثل هذه الأقوال التصوف فى متاهات من الغموض تحول بينه وبين الشباب ، فى الوقت الذى فيه يمكن ، بشرح هذه المسائل ، وبردها الى اصولها فى السنة المطهرة ، أن يكون هذا الكتاب حافزا للتقليد النبوى ، وداعيا الى الارتفاق ، فى ذلك التقليد ، بتجاريب الصوفية ؟؟ ما ينعيه الصوفية على الفقهاء هو تعطيل الفكر ، اعتمادا على النقل ، حتى لقد لج بهم النقل فانتهوا الى القول بان « الدين نقل ، لا عقل » .. وهذه عبارة لا تصح الا فى حد ضيق ، هو ان شريعة الدين المأثورة عن المعصوم تؤخذ بالنقل ، وتمارس فى العمل .. فاذا ظهر لنا أن بعض اسرارها غير معقول لنا فأن علينا ان نلغى اعتبار عقولنا ، ونلجأ الى الأيمان بما جاء به النبى ، ونعمل بما جاء به ، ابتغاء ان يعلمنا الله ، من اسرار تشريعه ، ما يصلح حال عقولنا .. فمثلا ، ليس من حقنا أن نقول لماذا فرض الله خمس صلوات ، فى اليوم ، والليلة ؟؟ وبالعدد الذى فرضه ، وبالكيفية التى عينها ، وفى الأوقات التى حددها ؟؟ ثم نقرر ان هذا غير معقول .. وانما علينا ان ننقل ذلك عن النبى ، وأن نعمل به ، طاعة لأمره : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وذلك رجاء أن يعلمنا الله من عنده العلم اللدنى .. وهذا موعوده حين قال : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » يعنى بـ « واتقوا الله » اعملوا بالشريعة كما بلغتكم عن المعصوم .. « ويعلمكم الله » يعنى : يعلمكم الحقيقة ، وهى الأسرار ، ومنها اسرار الحكمة وراء شريعة العبادة .. قال الله عن لسان النبى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم

الله .. » .. وعند الصوفية ان الشريعة انما شرعت لتوقظ الفكر ، وتشحذه ، وذلك اخذا من قول الله تعالى : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم .. ولعلهم يتفكرون » .. وقال المعصوم : « تفكر ساعة افضل من عبادة سبعين سنة » .. فهل فى نعى الصـــوفية على الفقهاء غرابة ؟؟ أليس هو من طبيعة الاشياء فى أمر الدين ؟؟ ومسألة « العلم اللدنى » تبدو غريبة على الأسماع ، ولكن أليست هى عبارة « ويعلمكم الله » ، من آية : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » ؟؟

« ويصفون أنفسهم بأنهم أهل الحضرة » فما هى هذه الحضرة ؟؟ انها ، ببساطة ، حضرة القلب مع الله فى العبادة.. وهذه مطلوبة من كل مسلم ، وكل مصل لا يحضر ، فى صلاته ، ولو لحظة ، فصلاته باطلة .. فاذا طالت حضرة قلب العابد ، فى عبادته ، صار الى حضرة الله .. ألم يقل المعصوم : « لى ساعة مع الله لا يسعنى فيها ملك مقرب ، ولا نبى مرسل » ؟؟ وأى غرابة فى هذه ؟؟

وأما أخذهم أنفسهم « بالرياضات الروحية العنيفة ، والصيام ، والعبادة المتصلة الى درجة افناء الذات فى الله » ، فانما هو تقليد النبى الكريم ، وكل ما هناك أنهم أخذوا أنفسهم بتقليده منذ تحنثه فى غار حراء ، واعتبروا كل عمله ، قبل البعث وبعد البعث ، ســـنة ، ونهجا مسددا .. وقد اســـلفنا الى ذلك القول ، وانما انكر عليهم ذلك من أنكره لقلة بصره بحقائق الدين .. ألم يقل المعصوم فى أمر تسديده : « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » ؟؟ فهو اذن ، من ثم ، قد كان على سنة واضحة ، ونهج مسدد ، منذ غار حراء .. وما افناء الذات فى الله هذا الذى ذكرت ، حين قلت : « الى درجة افناء الذات فى الله » ، الا الأمر الذى قد اتفق للنبى ، فى بدء بعثه ، حتى لقد ظهر عليه من الوله ماظنه الناس جنوناً ، فبرأه الله مما قالوا : «ن والقلم وما يسطرون*

ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. والحديث الذى اشرت اليه آنفا ، وهو : « لى ساعة مع الله ، لايسعنى فيها ملك مقرب ، ولا نبى مرسل » ، هو حديث افناء الذات البشرية فى الذات الألهية ، فى جمعية مستغرقة للحادث فى القديم .. والسر ، أيضا ، ماهو ألا المعرفة الدقيقة بصفات الألوهية ، مما لو ذكر للناس لايزيد على أن يفتنهم ، لأنهم ليست لهم فيه مشاركة .. وفى هذا انما هم يتأسون بالمعصوم .. ألم يقل : « أوتيت ثلاثة علوم فعلما أمرت بتبليغه ، وعلما خيرت فى تبليغه ، وعلما نهيت عن تبليغه » .. فأى شىء يكون العلم الذى نهى عن تبليغه ان لم يكن السر ؟؟

أما قولك : (هم ليسوا دراويش الأرصفة ولا شحاذى المساجد ولا المجاذيب ولا الثرثارين ولا المدعين ولا محترفى الشعوذات . انماهم الاتقياء الأخفياء . يقول عنهم الله فى حديثه القدسى : « اوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى ») هذا ما قلته أنت فى صفحة ١٤٣ .. وهو قول لا يدل على تعمق .. فانه ، على التحقيق، ما من صوفى كبير الا وقد مر ، على الاقل ، بمرحلة من مراحل من تسميهم : « دراويش الأرصفة » .. و « شحاذى المساجد » .. و « المجاذيب » .. و « الثرثارين » .. و « المدعين » .. و « محترفى الشعوذات » .. وكل الذى يحصل هو أن بعض الصوفية ، بتوفيق الله ، ثم بحسن تأديبهم ، يقطعون هذه المرحلة ، ويبرزون الى مقامات عزهم ، بينما تظل الأغلبية الغالبة تتخبط فيها .. ثم ان من هؤلاء من هم على درجة من الولاية .. وانت تقول ، فى حديثك الذى اقتبسناه آنفا ، : ان الله يقول عنهم : « أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى»، فما ظنك بكلمة « قبابى » هذه ؟؟ الا تخشى ان تكون هى المظهر الزرى الذى ساقك الى ان تصفهم هذه الأوصاف المزدولة التى اوردت فتكون

بذلك ، قد تورطت فى هلكة بالأساءة الى ولى خفى من أولياء الله ؟؟

اكرر !! ان اخشى ما اخشـــاه على كتابك هذا أن يكون كتاب متعة ذهنية ، لا يسمو الى حفز الشباب الى عمل بالدين ، مقلدا للنبى ، ومرتفقا باقوال الصوفيه ، ذلك لأنك قد عزلت الصوفية عن واقعهم ، عزلا مؤســـــفا ..

ونلاحظ ، فى هذا الفصل ، فصل اسماء الله ، انك لم تتحدث عن أسماء الله الا فى أسطر ، فى صفحة ١٣٧ .. وقد تورطت فى خطأ كبير حين زعمت أن اسم « الله » اسم علم على الذات الإلهية .. والحق ، أن « الله » انما هو علم على الذات الحادثة ، وهى الانسان الكامل .. وماهو ، فى حق الذات القديم ، الا مجرد اشـــارة ، لأن هذه الذات ، قبل ان تتنزل من صرافتها ، انما هى فوق الاسم ، وفوق الصـــــفة ، وفوق الاشارة أيضا .. وعندما تنزلت من صرافتها تقيدت ، فى أول مراتب القيد ، فكانت : « الحقيقة المحمدية » .. وهـــذه هى مرتبة الانسان الكامل .. واسم « الله » اسم علم فى حقها هى .. لقد تحدثنا فى مقدمة الطبعة الثانية من كتابنا : «لا اله الا الله» عن اسماء الله بما يكفى عن الاعادة هنا .. فليراجع فى موضعه ..

ولقد تورطت ، فى نفس الصفحة ، فى خطأ آخر ، وذلك حين قلت : « ولا غرابة فى أن يكون للروح بصر شامل يدرك اللامحدود وان ترى الله كما يراه الملائكة» .. هذا ما زعمته أنت ، وهو زعم قد أشرنا الى باطله .. فان الملائكة لا يرون الله ما يراه البشر .. ومعلوم أنه لدى المعراج تخلف جبريل عند سدرة المنتهى ، وتقدم المعصوم الى مقام : « مازاغ البصر وما طغى » حيث تم الشـــــهود الذاتى .. بين الذات البشرية ، والذات الإلهية .. وانما تخلف جبريل لأنه لا طاقة له بالشهود الذاتى .. ذلك لأنه لا ذات له ــ لا نفس له ــ فالبشر ــ مطلق بشر ــ اكمل من مطلق ملك وذلك لكرامة النشأة البشرية المتمثلة فى الخطأ

والصواب ، والتى اليها الاشارة بحديث المعصوم : « ان لم تخطئوا ، وتستغفروا ، فسياتى الله بقوم يخطئون ، ويستغفرون ، فيغفر لهم » .. وقد اسلفنا القول بان كمال الملائكة كمال درجة ، وكمال البشر كمال نشأة .. وفى التحليل الأخير ، لا يصل الملائكة الى كمالات البشر الا بدخولهم فى البنية البشرية .. وهناك حديث نبوى ، كريم أوردناه ، ونعيده ، هو يقول : « ان الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الابصار .. وان الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه » .. ومن ههنا يتضح لك خطأ قولك : « وان ترى الله كما يراه الملائكة » ، من العبارة التى اسلفنا الاشارة اليها ..

وهذا الخطأ جرك الى خطأ آخر ، من نفس الصفحة ، وذلك حيث تقول : « والذات الألهية سر مطلسم ليس لبشر ان يخوض فيه .. أما الصفات والأفعال فلنا أن نتأمل فيها » .. هذا ما قلته أنت .. وما عليه العارفون هو أن الذات هى مقصد العباد ، ولكنها لا يتوسل اليها بوسيلة الفكر .. وذلك لأن الذات لا ضد لها .. ولا يدرك الفكر الا ما كان له ضد .. ومن أجل ذلك جاءت التوصية النبوية الكريمة : «تفكروا فى مخلوقات الله ، ولا تتفكروا فى ذاته فتضلوا» .. وليس معنى هذا أن الذات ليس لبشر أن يخوض فيها ، وانما معناه أنها لا تلتمس عن طريق الفكر .. فانما هناك طريق القلب .. فما فى سويداء القلب الا الذات .. ولقد قال تعالى ، فى ذلك : « ماوسعنى ارضى ، ولاسمائى ، وانما وسعنى قلب عبدى المؤمن » .. والعقول هى قوة الادراك الشفعى .. فهى لاتقوى الا على ادراك ما كان له ضد .. ولذلك فقد تقيد ادراكها بمراتب الاسم ، والصفة ، والفعل الالهى .. وهذا معنى : « تفكروا فى مخلوقات الله » لأن لأسماء الله ، ولصفاته ، ولأفعاله ضدا من اسماء ، وصفات ، وافعال المخلوقات ..

وأما القلوب فهى قوة الادراك الوترى ، وهى بذلك قد أوتيت القدرة على شهود الذات الوترية ـ الذات التى لا ضد لها ـ .. والشهود معنى من الادراك يتنزه عن الاحاطة .. ويقع بلا كيفية .. وهذا القدر ، من الخوض فى الذات الالهية ، وهو قدر يزيد كل لحظة عند العباد المجودين ، هو مرمى جميع كبار العباد .. ولذلك فان قولك : « والذات الألهية سر مطلسم ليس لبشر أن يخوض فيه » قول غير سليم ..

الفصل السابع

رب واحد ودين واحد

أصل الدين هو الارادة الالهية التى قهرت الوجود ، وسيرته ، من البعد الى القرب ، طوعا ، وكرها .. وفى ذلك قال تعالى : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات ، والارض ، طوعا ، وكرها .. واليه يرجعون ؟؟ » وهذا هو الدين العام ، هو الاسلام العام .. وهناك الاسلام الخاص الذى ارسل الله به الرسل ، وخاطب به البشر ، وشرع فيه الشرائع ، واقام التكليف .. وانما سمى هذا بالاسلام الخاص لان الخطاب به يتوجه الى ذوى العقول ، فى حين أن الخطاب بالاسلام العام يتوجه الى جميع عناصر الوجود .. وفى هذا لا تقع المعصية .. ففى شريعته من عصى فقد اطاع فى معنى ما قد عصى .. وأما الاسلام الخاص ففيه تقع المعصية ، وتقع الطاعة .. والحكمة فى شرع الاسلام الخاص هى اخراج الناس مما أراد الله ، الى ما يرضى .. فان هناك دقيقة عرفانية تقرر أن الله اراد شيئا لم يرضه .. فهو اراد الكفر ، مثلا ، ولكنه لم يرضه .. قال تعالى ، فى ذلك : « ان تكفروا فأن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر .. وان تشكروا يرضه لكم .. ولا تزر وازرة وزر أخرى .. ثم الى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم تعملون .. انه عليم بذات الصدور » .. فالكفر ، والايمان ، والشر ، والخير لا تدخل فى الوجود الا بارادة .. ولكن الكفر غير مرضى ، والشر غير مرضى ، وانما المرضى الأيمان ، والخير ..

فمثل الدين العام كمثل ماء المحيطات الملح ، ومثل الدين الخاص كمثل ماء الانهار العذب ،وكما تستصفى الشمس ماء الانهار العذب من ماء المحيطات الملح ، فكذلك الرسل : هم ، بواسطة العقول ، يستصفون الدين الخاص من الارادة العامة .. ويسوقون الناس الى اتباع رضوان الله طوعا ، بعد أن كانوا مسخرين بارادته كرها ..

ولم يبدأ الدين الخاص بالاديان الكتابية المعروفة عندنا — اليهودية ، والنصرانية ، والاسلام .. وانما بدأ بالوثنيات البدائية التى صحبت النشأة البشرية الأولى ، فى الأزمان السحيقة .. فانه قد مر وقت كانت فيه عبادة الصنم مرضية عند الله ، وذلك بحكم الوقت.. ثم أطرد سلم الترقى نحو ديانات التوحيد ، الى أن توج الدين الخاص بدعوة التوحيد التى نزلت ، أول منازلها الشاملة ، الكاملة ، برسالة موسى .. حيث قامت شريعة المعاش ، وشريعة المعاد ، حول « لا اله الا الله » لأول مرة ، بصورة موسعة ، انتظمت شعبا كاملا .. ثم جاءت النصرانية ، تطويرا لليهودية .. ثم جاء الاسلام تماما على الذى بدأ باليهودية ، والنصرانية ، فكان جامعا لهما ، ومطورا .. وقد جاء الاسلام نفسه على مرحلتين : مرحلةالايمان ، ومرحلة الاسلام ..فاما مرحلة الايمان فهى مرحلة أقرب الى بدائية اليهودية .. واما مرحلة الاسلام فهى أقرب الى روحانية النصرانية .. ومن ثم ، فان الاسلام جامع لخصائص اليهودية ، والنصرانية ، وممثل لهما ، كليهما .. والسر فى ذلك أنه قد جاء وسطا بين تفريط اليهودية ، وافراط النصرانية .. قال تعالى ، فى ذلك « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .. فأمة الاسلام وسط ، بين أمة اليهودية ، وأمة النصرانية .. وكذلك الاسلام ، فهو وسط بين اليهودية ، والنصرانية .. وكذلك القرآن ، فهو وسط بين

التوراة ، والانجيل .. ومن ثم ، فقد جمع فى سياقه بين ما جاءت به التوراة ، من شريعة القصاص ـ العين بالعين ، والسن بالسن ـ وشريعة العفو التى جاء بها الانجيل ـ « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الآخر كذلك ـ على حد تعبير الانجيل .. وقد كان سياق القرآن ، فى ذلك : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا ، وأصلح ، فأجره على الله .. انه لايحب الظالمين » .. « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .. أقرب الى خصائص التوراة ـ القصاص ـ و « فمن عفا ، وأصلح فأجره على الله » .. أقرب الى خصائص الانجيل ـ العفو ـ والقرآن فى هـذا أكمل من التوراة ، وأكمل من الانجيل ، ذلك بأنه قد رسم الطريق ، ووضع السلم لتحقيق ما دعا الى تحقيقه الانجيل من غير ان يرسـم منهاجا تسليكيا لتحقيقه .. والمرحلتان اللتان أشتمل عليهما الاسلام ، وهما : مرحلة الايمان ، ومرحلة الاسلام ، اشتمل عليهما القرآن ، فى آيات فروعه ، وفى آيات أصـــوله .. فأما آيات فروعه فهى الآيات المدنية .. وأما آيات أصـــوله فهى الآيات المكية .. وقد قامت على آيات الفروع شريعة الرسالة الأولى ، وهى التى فصـلها المعصـــوم تفصيلا .. واعتبرت آيات الأصول منسوخة فى القرن السابع ، وأرجىء العمل بها الى يوم يتهيأ لها فيه المجتمع البشرى .. وستبعث ، يومئذ ، شريعة الرسالة الثانية ، ببعث هذه الآيات ، التى كانت منســوخة .. وقد فصـلنا كل أولئك تفصيلا ، فى كتابنا : « الرســالة الثانية من الاسلام » ، فليراجع فى موضعه .. ولكنا ، لانزايل مقامنا هذا ، قبل أن نقرر أن تطور الانسان الروحى فى مضمار آيات الفروع ، وآيات الاصول ـ بين الايمان ، والاسلام ـ تطور سرمدى ، لا نهاية له .. لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .. ويكفى أن نقرر هنا أن الأرض ، الى اليوم ، لم تشـهد الكمالات البشرية الموعودة ، وانما هى ترتقبها ..

ولذلك فان قولك : « وقد علم الله أنه لن يحدث تطور روحى بعد ذلك .. وأن الانسان لن يتطور الا فى أدواته فيصنع العربات والقطارات والطائرات والصواريخ والعلوم الوضعية والمعارف العقلية دون أن يتقدم خطوة واحدة فى روحه فختم الرسالات بمحمد .. » .. ان هذا القول الذى قررته أنت فى صفحة ١٤٩ هو قول منكر أشد النكر .. ثم ، من الذى قال ان الرسالات ختمت بمحمد ؟؟ لقد تورطت أنت فيما يتورط فيه العوام من الفقهاء .. فأن الله قد ختم النبوة بمحمد ، ولم يختم الرسالة .. ثم كيف جاز لك أن تزعم أن الانسان سيتطور فى « المعارف العقلية » دون أن يتقدم « خطوة واحدة فى روحه » ؟؟ ان الكلمات ليست واضحة المدلولات فى ذهنك ، وأنما هذه من الدلالات على ضعف أثر التوحيد فى فكرك .. ثم ماهو برهانك على الذى ذهبت اليه من تقريرك وقف النمو الروحى للانسان على الأرض ؟؟ انك تقرر : « لأن لا شىء جد فى روح الانسان على كثرة ما جد فى عقله ومعارفه وحياته المدنية » .. هذا مانقرره أنت فى صفحة ١٤٩ .. ولكن ، ما ظنك بمن يخبرك ان مرحلة الانسان الحاضرة انما هى احتشاد لظهور الطفرة الروحية المقبلة ، التى بها يدخل الانسان ، من حيث هو انسان ، دين الاسلام ، الذى قال الله عنه : « ان الدين عند الله الاسلام » ، والذى قال عنه : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه .. وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، والذى قال عنه : « اليوم ، أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا .. » ؟؟ ان غد الانسان المعاصر هو الغد المأمول ، الذى ستملأ الأرض فيه عدلا ، كما ملئت جورا .. ولايكون ذلك الا بفضل الله ، ثم بفضل تطور الانسان الروحى الى درجة لم يسبق لها مثيل فى سوالف الحقب ..

ان مرحلة الاسلام التى وردت ، فى الآيات السالفات ، الاشارة اليها ، لم يحققها غير طلائع البشرية ، وهم الانبياء ، والرسل .. ومن ثم ، فان قولك : « انه يقول عن المسيح انه مسلم والحواريون مسلمون .. وموسى مسلم والسحرة الذين آمنوا له قد أسلموا وفرعون وهو يتوب لحظة الموت أسلم ويوسف مسلم وابراهيم مسلم واسماعيل مسلم ونوح مسلم .. الكل أسلم ..

بمعنى أسلم الأمر لله اذ ادرك انه لا موجود بحق سواه ولا مقدر للاقدار ومالك للملك سواه .. » .. قولك هذا ، من صفحة ١٥١ ، يفقد الدقة .. فلم يكن الحواريون مسلمين .. ولم يكن السحرة ، ولا فرعون ، مسلمين ، بالمعنى الذى به المسيح مسلم ، ويوسف ، وابراهيم ، واسماعيل ، ونوح ، مسلمون .. ان الاسلام بداية ، ونهاية .. بدايته دون الأيمان .. ونهايته فوق الأيمان .. فقد كان موسى مسلما ، وكانت أمته اليهود .. وقد كان المسيح مسلما ، وكانت أمته النصارى .. وكان محمد مسلما ، وكانت أمته المؤمنين ، أو الذين آمنوا ، فى مقابلة الذين هادوا .. وهذا ما جاء فى سياق الآية : « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » .. فاذا جاء اليوم المقبل ، الذى يتأذن الله فيه بتطبيق الاسلام ، فلن يقبل الله من أحد هذه الأمم — لا من الذين آمنوا ، ولا من الذين هادوا ، ولا من النصارى ، ولا من الصابئين — غير الاسلام .. « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو ، فى الآخرة ، من الخاسرين » ..

ان الاســـلام دين واحد ، بدايته ، فى الأرض ، فى التعدديات ، والوثنيات البدائية .. ونهايته عند الله ، فى اطـلاقه ، حيث لا عند .. والسير فى مراقيه سير سرمدى .. والديانات الكتابيات ــ اليهودية ، والنصرانية ، والمرحلة الأولى من الاســلام ــ (مرحلة الأيمان) كلها منازل من منازل السير فيه .. وقد رسم القرآن ، فى آيات آصوله ، وفى اشاراته بالحروف الهجائية التى جاءت تتويجا لآيات أصوله ، طريق السير فى معارجه السرمدية .. وقد جعل الله حياة محمد مفتاحا لمغاليق أبواب هذه المعارج .. فمن ابتغاها فعليه الممارسة فى دقة تقليد عمل محمد ، فى العبادة ، وفى المعاملة .. فانه ليس سبيل الى الله غير هذا السبيل .. « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى .. يحببكم الله » ..

الفصل الثامن

الغيب

الغيب هو ما غاب عن الحواس .. والأيمان بالغيب أول واجبات العقول .. ذلك بأننا نعلم خداع الحواس .. ونعلم أن واجب العقول هو أن تتخلص من هذا الخداع .. فاذا نظرت فى النجوم فأنك تراها صغيرة كالعنب ، وقد أدركت العقول ، وفى غير كبير مشقة ، وبفضل التجربة المعاشة فى اليوم والليلة ، أن هناك خداعا للنظر ، سببه بعد المسافة بيننا وبين النجوم .. هذا الخداع هو الذى أظهر للنظر النجوم صغيرة .. واكتشفت العقول ، من ثم ، ومنذ زمن بعيد ، أن النجوم أكبر ، بكثير جدا ، مما تظهر للعين .. هذا الكشف هو صورة من كشف الغيب .. والغيب يتمادى ، من هذه الصورة ، الى أن يبلغ قمته عند الله .. فالله هو غيب الغيوب .. وهو قمة الغيب .. ولما كان الأيمان بالغيب فيه تعريف للعقل بحقيقة نفسه ، كان أهم أركان الايمان .. وكل السلوك ، فى معارج المراقى الى الله ، يتركز فى تعريف العقل بحقيقة نفسه .. فأن العقل الذى يصعب عليه أن يؤمن بما لايقع تحت ادراكه ، فينكره من ثم ، انما هو عقل جاهل بحقيقة نفسه ..وهو لا يرجى له أن يعرف ما يجهل الا اذا تواضع ، وأدرك حقيقة قصوره .. والى هذا اشارة المعصوم فى قوله : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» .. يعنى : من عرف نفسه بالقصور عرف ربه بالطول .. يعنى : من عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم .. من عرف نفسه بالكره عرف ربه بالارادة .. من عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة .. « من عرف

نفسه فقد عرف ربه » فالغيب ، اذن ، ليس طلاسم ، وانما هو عنصر الوجود حولنا ،لأن حواسنا لاتكاد تدرك منه شيئا .. فمن الغيب ، الاجساد الدقيقة ، كالمكروب .. ومن الغيب ، المعانى الدقيقة . كالأسرار الألهية .. ومن الغيب ، حوادث الدقيقة المقبلة .. ولاستجلاء كل غيب وسيلته .. فحين استخدم العلم المادى المجهار لرؤية الجسيمات الدقيقة ، وهى غيب ، استعمل الدين الأيمان ، والمنهاج التعبدى ، لرؤية حوادث المستقبل ، ولرؤية الأسرار الألهية ، وهى غيب أيضا .. والايمان ، أو قل عدم انكار ما لا يقع تحت ادراك عقولنا ، من دلائل الفهم ، ومن أوليات العلم .. سواء فى ذلك : العلم التجريبى ، أو العلم الروحى — الدين ..

وأنت تقول عن « الذين يؤمنون بالغيب » من صفحة ١٦١ : « المقصود هم المؤمنون بالقلب الذين لا يطلبون القرائن ولا يلجون فى براهين ولا يدخلون فى مجادلات .. ولا يقولون .. أرنا الله لنؤمن به .. وانما يؤمنون غيبا وقلبا » .. فمن أنبأك هذا ؟؟ وما ظنك بقول ابراهيم : « واذ قال ابراهيم : ربى !! أرنى كيف تحيى الموتى !! قال : أولم تؤمن ؟ قال بلى !! ولكن ليطمئن قلبى .. قال : فخذ اربعة من الطير ، فصرهن اليك ، ثم أجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم أدعهن يأتينك سعيا !! وأعلم أن الله عزيز حكيم .. » ؟؟ ..

ان المؤمنين « بالقلب » ، الذين لا « يطلبون القرائن ، ولايلجون فى البراهين » ، كما تصفهم أنت ، انما هم جهلة ، لا يشرفون الأيمان .. ذلك بأن الأيمان انما هو عكاز « العقل » يتوكأ عليه فى منطقة الغيب ، ريثما يصبح الغيب شهادة ، وذلك عن طريق الفكر الملحاح فى طلب البراهين ، بعد أن يتخذ الوسائل الصحائح للسير فى أودية الغيوب .. وأما قولك ، من صفحة ١٦٢ : « فالدين احساس قبل أن يكون نظرية

تؤخذ بالبرهان . وهو حالة قلبية أولا قبل أن يكون حالة عقلية » ، فهو قول سليم فى معنى أن القلب بيت الله .. وهو بيت قديم .. هو أول بيت وضع للناس .. وأما العقل فهو حادث ، وهو يسعى أن ينفتح على القلب ، على بيت الرب ، حتى يطلع على مكنونه .. وهذه هى وظيفة الدين .. ومن أجل ذلك فأن الدين خطاب موجه للعقل ، وترويض له ، وتسليك .. وهذا هو الذى جعل الفكر المسدد هو قمة العبادة . وهو الغرض المقصود من ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، وتشريع التشاريع .. قال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم .. ولعلهم يتفكرون »

وفى هذا الباب أنت تتحدث كثيرا عن الملائكة ، والجن .. فتقول ، مثلا : « وأمثال هذه الطلاسم .. الملائكة .. والجن .. والساعة .. والعرش . . والكرسى .. والصراط .. والجنة .. والميزان .. واللوح . والقلم .. والبرزخ .. وأكبر طلسم ، ولاشك ، هو الشيطان نفسه » هذا قولك !! ولكن ، كل هذه هى مسائل مادية ، ومحسوسة ، وكل ما هناك أنها تحتاج ، لادراكها ، الى الحاسة السادسة ، والحاسة السابعة .. وهاتان الحاستان تقعان فى خط تطور النشأة البشرية التى بدأت ، فى سحيق الآماد ، بحاسة واحدة ، هى الحس .. ثم أكتسبت بقية الحواس الخمس التى نعرفها ، نحن ، اليوم ، والتى كثيرا ما تورطنا فى الخطأ فظنناها نهاية المطاف بالنسبة لتطور الانسان .. ألم تقل أنت ، فى الفصل السابق ، فى صفحة ١٤٩ : « وقد علم الله أنه لن يحدث تطور روحى بعد ذلك .. وأن الانسان لن يتطور الا فى أدواته الخ .. الخ » ؟؟ بلى !! قد قلت!وهو قول قد أعظمت به

على الله الفرية .. وفى صفحة ١٧٦ يرد قولك : (ان البرزخ .. والحجر المحجور .. والمنع الممنوع .. كلها أشارات الى القوانين الفيزيقية التى تمنع وتضبط وتحفظ لكل شيىء حدوده ومكانه . وهذا يفسر لنا ما قاله القرآن عن الموتى : « ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » فليس معنى البرزخ هنا فاصل مكانى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الاحياء .. وانما معناه القوانين المانعة .. فالارواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة . ولهذا يستحيل عليها أن تخاطبنا ويستحيل علينا ان نخاطبها لان بيننا برزخ .. هو أختلاف القوانين بين عالمنا وعالم الأرواح .. مع أنها قد تكون حولنا فى ذات اللحظة والمكان، ولكن الاتصال يظل مستحيلا ومعدوما الاختلاف قوانين وجودها عن قوانين وجودنا وهذا هو البرزخ) .. هذا مانقرره أنت ، بكل ثقة .. وهو كله خطأ .. ثم أنك ، حين تتحدث عن الموت، تتحدث عن : القوانين « الفيزيقية » ، مما يدل على صدق أتهامنا اياك ، فى غير هذا الموضع ، من هذا الكتاب ، من أنك انما تعنى بالموت الظاهرة البيولوجية .. والا ، فقد كان أولى أن تتحدث عن القوانين « الميتافيزيقية » .. ثم من الذى قال : « فليس معنى البرزخ هنا فاصل مكانى يفصل أرواح الموتى عن دنيا الأحياء » ؟؟ أليس « اللحد » فاصلا مكانيا ؟؟ أم هل تظن أن الأرواح لا تستقر مع الاجساد فى « اللحد » ؟؟ وما ظنك بقول المعصوم : « القبر أما روضة ، من رياض الجنة ، أو حفرة ، من حفر النار » ؟؟ وأنت تقول من السياق الذى اقتبسناه آنفا : « فالأرواح بعد الموت تبدأ حياة ذات قوانين مختلفة » .. فما هو نوع هذا الاختلاف ؟؟ أهو اختلاف نوع ؟؟ أم هل هو اختلاف مقدار ؟؟ .. أنت ، لا شك ، تظنه اختلاف نوع .. وآية ذلك قولك : « ولهذا يستحيل عليها أن تخاطبنا ويستحيل علينا أن

نخاطبها لأن بيننا برزخا » .. فما ظنك بخطاب النبى لأهل القليب . غداة بدر ، اذ ظل يخاطبهم ، ويذكرهم ، باسـمائهم ، ويقول لهم : « هل وجـدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟؟ فأنى وجدت ما وعدنى ربى حقا » .. فلما قال له أصحابه : « يارسول الله !! ما تخاطب من جيف أنتنت ؟؟ » .. قال : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لا يجيبون » ؟؟ ما ظنك بهذا ؟؟ وأنت ، فى نهاية هذا الفصـل ، تقول (وناتى الى ذروة الغيب .. وهى الساعة .

والساعة هى ذروة الغيب المغيب التى لم يكشـفها الله لأحد ولا حتى لأنبيائه « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟؟ قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السماوات والارض لاتأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عند الله » ..

انه لعلم اختص الله به نفسه دون الخلق جميعا وانه لعلم رهيب كما سـوف نرى) هذا ما قررته أنت فى صفحة ١٨٠ .. وأحب أن أقول : ان الساعة ليست ذروة الغيب ، الا عندما تصـبح هى الذات الألهية .. فان الذات الألهية ، وحدها ، هى ذروة الغيب .. قال تعالى، فى حقها : « قل لا يعلم من فى السموات ، والأرض ، الغيب ، الا الله » فالغيب هنا هو ذات الله .. وكل علم عداها هو غيب ، دونه غيب ــ هو غيب نسـبى ــ ومعرفته مبذولة للعارفين ، وكل ماهناك ، أن المعرفة تتكشف لأهلها فى وقتها .. قال تعالى ، فى ذلك : « ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء » .. وهو ، تبارك ، وتعالى ، يشاء لنا كل يوم أن نحيط بشىء من علمه .. والى ذلك الأشارة بقوله تعالى : « كل يوم هو فى شأن » .. وما شـأنه ، تبارك ، وتعالى ، الا ابداء ذاته لعباده ليعرفوه .. وليس يومه أربعا وعشرين ساعة ، وانما يومه « زمنية » تجلى ذاته لعباده .. وهى « زمنية » تتناهى فى الصغر ، حتى لتكاد أن

تخرج عن الزمن .. وأحب أن أقرر هنا أن الله لم يختص نفسه بعلم ، كما هو شـــائع عند الناس ، وكما قررته انت فى آخر العبارات التى اقتبسناها لك آنفا .. ان علم الله هو ميراثنا نحن . نباشر ، كل حين ، القدر الذى يؤهلنا لمباشرته رشدنا ، وذلك رشـــد يزيد ، كل حين ، بفضل الله ، ثم بفضل تعرضنالرحمته : «واتقوا الله ويعلمكم الله».. أو كما قال تعالى : « فتعالى الله ، الملك ، الحق .. ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه .. وقل ربى !! زدنى علما .. » .. أو كما قال تعالى لنبيه عن القرآن : « لا تحرك به لسانك لتعجل به * ان علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم ان علينا بيانه » .. وما يكون بيانه على الله لا يقع الفراغ منه ، وانما هو بيان سرمدى ، يسير الى الذات ، حيث لا حيث .. وحين لا حين ..

الفصـــل التاسع

الســـــــاعة

الساعة هى نقطة لقاء الماضى والمستقبل .. وهى اصل الزمن .. وتدق حتى لتكاد أن تخـرج عن الزمن .. هى فى ملتقى الزمن مـع الأطلاق .. هى ، من وجهها الذى يلينا ، زمن ، ومن وجهها الآخر ، اطلاق .. وعلمها ، لذلك ، مبذول لنا ، بشرط واحد ، هو أن نتوسل الى منازله بالوسائل الصحائح ، وفى قمتها التوحيد .. والتوحيد هـو صفة الموحد .. وهذا يعنى توحيد القوى المودعة فى البنية البشرية ـ العقل والقلب ـ وسبيل ذلك العبادة ، فى اتقان ، لتقليد المعصوم ، فى ســـنته ـ عبادة ومعاملة ـ وآية توحيد القوى المودعة فى البنية البشرية أن يفكر الرجل كما يريد ، وأن يقول كما يفكر ، وأن يعمل كما يقول . ثم لا تكون عاقبة قوله ، ولا عمـله الا خـيراً ، وبراً ، بالأحياء ، والأشياء .. والى المدخل على هذا المقام الاشـارة بقوله تعـالى « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .. وقمة هذا المقام قد بلغها المعصوم فى معراجه ، بعد أن تخلف عنه جبريل ، وبعد أن جاوز سدرة المنتهى ، وواجه أنوار التجلى الذاتى ، الذى اســتغرقه من جميع اقطاره .. ولقد جاءت الحكاية عنه فى القرآن : « اذ يغشى السدرة ما يغشى * مازاغ البصر وما طغى » .. فعندما توحد النبى ، وحدة ، ذاتية ، مطلقة ، خـــرج عن الزمان والمكان ، أو كاد ، فرأى المطلق ، الذى لا يحويه الزمان ، ولا المكان ـ رأى الله ـ ولقد كان فى تلك اللحظة

هو الساعة •• ثم تغشـــته غواشى الجبلة ، وهو فى الأرض ، فشمر يطلب ذلك المقام بنهج العبادة الذى رسمه الله له فى سنته المطهرة ••

الســاعة ســـــاعتان

ومن ثم ، فأن قولك : « الساعة ذروة الغيب وعلمها محجوب عن الكل ، اختص الله به نفســـه دون العالمين » هذا القول ، الذى به افتتحت انت هذا الفصل قول خاطىء •• ولقد قررنا ، فى الفصــــل الســـــالف ، أن ذروة الغيب هى الغيب المطلق ـــ هى ذات الله •• والساعة ساعتان : ساعة التعمير ، وساعة التخريب •• فاما ســـاعة التعمير فهى لحظة مجىء المسيح ليرد الأشياء الى ربها ، حساً ومعنى ؛ وليملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جوراً •• ويومئذ يظهر الأسلام على جميع الأديان •• ويتحقق موعود الله : « هو الذى أرسل رسوله ؛ بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله •• وكفى بالله شهيداً »•• ويتأذن الله بالتطبيق ، كما تأذن بالأنزال •• وذلك فيما يتعلق بقوله تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الأسلام ديناً •• » وهذه هى ســـــاعة التجلى الكمالى •• وأما ساعة التخريب فهى لحظة مجىء المسيح ، للمرة الثانية ، ليرد الأشياء الى الله حساً ، وقد أبطأ المعنى •• وذلك : « يوم نطوى الســـــماء كطى السجل للكتب •• كما بدأنا أول خلق نعيده •• وعداً علينا •• انا كنا فاعلين » ••

والساعتان منضويتان ، فى بعضهما ، فى سياق القرآن •• فهو عندما يقول : « الساعة » انما يعنى : المعنى القريب للســـاعة ، وهى ساعة التعمير ، والمعنى البعيد للساعة ، وهى ساعة التخريب •• وانما يقع التمييز بينهما ، عند القادرين عليه ، بفضل الله ، ثم بفضــــل التفريد فى التوحيد •• وتلك هى المقـــدرة على ادراك مثانى القرآن

وقد اشار اليها تبارك ، وتعالى ، فى قوله : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً ، متشابها ، مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم .. ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم ، الى ذكر الله .. ذلك هدى الله ، يهدى به من يشاء .. ومن يضلل الله فما له من هاد » .. « مثانى » يعنى : ذو معنيين ، معنيين : معنى قريب ، ومعنى بعيد .. ولعجز الناس عن المقدرة على تفريد التوحيد لم يقع فى خلد المتحدثين عن الدين الا معنى واحد للساعة ، وتلك هى ساعة التخريب .. وعندما يجىء المسيح بساعة التخريب يكون الوقت وقت التجلى الجلالى ، حيث تنصهر الأحياء ، والأشياء تحت سطوة الجبروت ، وحيث تسير جميعها الى الله كرها ، بعد ان سارت اليه طوعاً فى وقت التجلى الكمالى ، فى ساعة التعمير .. وساعة التعمير هى المقصودة من قوله تعالى : « انا انزلناه فى ليلة القدر * وما ادراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من الف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها ، بأذن ربهم ، من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر » .. قوله « خير من الف شهر » يعنى خير من ألف سنة .. قوله : « تنزل الملائكة » ، يعنى اعوان المسيح .. قوله « والروح » أشارة الى المسيح .. قوله « سلام هى حتى مطلع الفجر » يعنى يعم الأرض السلام ، وذلك لملئها عدلا ، كما ملئت جوراً .. وهذه الألف سنة هى يوم الله المشار اليه فى قوله تعالى : « وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » وهو ، نفسه ، اليوم الآخر الوارد فى عديد الآيات ، ومنها ، على سبيل المثال : « والى مدين أخاهم شعيبا فقال : ياقومى !! اعبدوا الله ، وارجوا اليوم الآخر ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .. » .. وانما سمى : « اليوم الآخر » لأنه آخر أيام الدنيا ، وأول أيام الآخرة ، وفيه تتحقق جنة الأرض ، وهى نموذج من الجنة الموعودة .. وبعد

انقضاء هذا اليوم ، ذى الألف سنة ، تتراجع المعارف ، والعلوم ، والفهوم .. ويأخذ الخط البيانى للحياة الأنسانية فى الأنحدار ويوالى ذلك ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وحتى تحل ساعة الخراب ، التى أشرنا اليها آنفاً .. فاذا انتهت دورة الوجود الأولى ، بعودة السموات والأرض الى الرتق بعد الفتق ، وبدأت الدورة الجديدة ، للوجود الجديد ، ببروز أهل النار للنار ، وأهل الجنة للجنة ، فقد بدأ اليوم الذى مقداره خمسون الف سنة ، والمشار اليه فى قوله تعالى : « تعرج الملائكة ، والروح ، اليه ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .. وفى هذا المقام يطيب لى أن اردك الى صفحة ٧٨ لتراجع قولك عن هذين اليومين : « ومعنى هذا أن أيام الله هى كما يشاء الله ، فاذا شاء يكون اليوم بالف سنة واذا شاء يكون بخمسين الف سنة .. فهو ليس خاضعا لزمنه مثلما نحن خاضعون وانما هو يخلق زمنه . وهذا شرح فلسفى رفيع لمعنى الأبدية .. أو زمن من لازمن له » .. هذا قولك الذى أحب لك ان تعيد النظر فيه ، فأنه فى أشد الحاجة الى المراجعة ..

لقاء الانسان ربه

هذا التخليط ، بين الساعتين ، أراك قد تورطت فيه ، كما تورط فيه اغلب المتحدثين باسم الدين .. وفى صفحتى ١٩٢ و ١٩٣ انت تتحدث عن لقاء الانسان لربه ، وتذكر الآيات التى تسوق ذلك اللقاء من أمثال : « وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » .. وأمثال : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » .. وأمثال : « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » .. ثم تقول : « وهو لقاء لا يمكن أن يتم والانسان فى صورته البشرية » ، وهو قول لن تجد له من الصحة سنداً .. والحق ، أن الصورة البشرية هى أكمل الصور ،

واصلحها لملاقاة الله .. وذلك لان ملاقاته انما تكون بتقريب صفات الأنسان من صفات الرب .. وقد أسلفنا القول الى أن فعل التوحيد فى البنية البشرية انما هو بعث القوى المودعة فيها ، وشـــحذها ، وتوحيدها .. فاذا كان الانسان يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم هو ، فى جميع اولئك ، انما يسوق الخير ، ويهب البر ، لجميع الأحياء ، والاشـــياء ،فقد توحد توحيداً به يتم لقاؤه لربه .. ولقـــد كنت أظن أن « الفردية » الواردة فى قوله تعـــالى : « وكلهم آتيه ، يوم القيامة ، فـــرداً » ، وفى قوله تعالى : « ولقـــد جئتمونا ، فرادى كما خلقناكم ، أول مرة » تستأثر بفكرك ، وتزيد فى تعلقك بأمر الدين ، وبمنهاج الدين ، حيث جعل وكده ، فى التربية ، ابراز فردية الفـــرد ، من قطيع الجماعة .. فأننا لا نلقى الله بقطع مسافات الســـموات ، ولا بقطع مسافات الأرض ، وأنما نلقاه فى أنفسنا .. وفى هذا المضمار ــ مضمار المقدرة على التوفيق بين حاجة الفرد ، وحاجة الجماعة ، تلك المقدرة النابعة من وضـــوح الرؤية للعلاقة بين الفرد والجماعة ــ تبرز ميزة الأسلام بروزاً يقصر عنه تطاول كل متطاول من أصحاب مختلف الفلسفات والأديان ..

الصورة البشرية صورة الانسان

وعن الصورة البشرية !! فأنها صورة الأنســـان الكامل ، وهى غاية التطور .. ولا يقع فيها تغيير الا فى لطافة حسها بتطور حدة حواسها ، وبظهور الحاسة السادسة ــ العقل المكتمل ــ والحاســـة السابعة ــ القلب السليم ــ ثم لا يقع فيها تطور ، فى السرمد ، الا بأستمرار الخروج من العجز الى القدرة ، وذلك بأستمرار الخروج من الكثافة الى اللطافة .. ومن ههنا تجىء زيادتها ، فى الكمال والجمال ،

وهى زيادة لا تتناهى .. ان لقاءك الله انما يتم فيك .. « سيرك منك ، وصولك اليك » ..

ان أمرك لعجب !! حين تقول : (لأننا نقوم كلنا للقيوم . ومن هنا كان اسمها قيامة « لمن الملك اليوم ؟؟ لله الواحد القهار » ..

انتهت الخلافة الوهمية التى كان كل منا يتصرف فيها كأنه اله وملك له ملك ورعية ، وحاكم يحكم فى بيته ومملكته .. حتى ظن بنفسه الظنون وتخيل انه شىء ..

هنا يعود الملك للمالك الحقيقى .

لقد حضر صاحب الشأن ، الخالق الذى خلق كل شىء .. واليه يعود كل شىء .

القيامة باختصار هى تجلى الله بذاته .

ولا شك أن الله موجود دائما فى كل مكان وفى كل آن ولكن .. فرق بين وجوده وبين تجليه بذاته .

وبالتجلى الذاتى يحدث القهر التام لكل شىء والفناء للصور المادية بأسرها فلا صورة بالمادة يمكن أن تقوم أمام ذات الله فى توحده وكماله وتجليه .

هذا حدسى فى مسألة القيامة .) هذا ما قلته أنت فى صفحة ١٩٤ .. والعجيب حقا ، فى امرك ، أنك تخوض فى ادق دقائق العلم الالهى — فى التجلى الذاتى — بغير علم ، وتعترف بأنك تحدس « هذا حدسى فى مسألة القيامة » .. والحدس هو الظن ، والتخمين ، والقول بالرأى الفطير .. فكيف سولت لك نفسك مثل هذه الجرأة العظيمة على الحق ؟؟ ..

أنظر لقولك : « لأننا نقوم كلنا للقيوم . ومن هنا كان أسمها قيامة » !! ان هذا قول خاطىء ، فأن القيام للقيوم عبادة .. قال تعالى فى ذلك : « حافظوا على الصلوات ، والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » .. قوله « قوموا » ، يعنى : قفوا لله .. يعنى انتصبوا .. قوله : « قانتين » ، يعنى : متواضعين .. يعنى : متذللين .. والقيام لله ، فى العبادة ، مدخل على مقام الاستقامة فى العبودية .. ولقد تحدثنا عن الاستقامة فى هذا الكتاب ، وقلنا أنها اعز مطالب الرجال ، اذ فيها تسقط الدعاوى ، ويتفرد القيوم بالقيومية ، ويتحقق للعباد مشهد القيام بالله .. ويومئذ يتم بعثهم من قبورهم ، التى هى اجسادهم — يتم بعثهم من الموت ، الذى هو ظلام جهلهم وينهضوا فى مدارج الحياة الكاملة ، ومعارج الانوار الساطعة : « أومن كان ميتاً ، فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ، ليس بخارج منها ؟؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون .. » .. « ميتا » ، يعنى بالكفر « فأحييناه » ، يعنى بالأيمان .. القيام لله عبادة ، وهو دعوى .. وهو مع ذلك ، سبيل الى التخلى عن الدعوى وذلك فى مقام الاستقامة .. ويومئذ يحل محله القيام بالله ..

القيام لله عبادة ، والقيام بالله عبودية .. والعبادة دعوى ، والعبودية تخل عن الدعوى ، وأستسلام .. القيام لله جهل ، والقيام بالله علم .. القيام لله غفلة ، والقيام بالله يقظة .. والموتى رفع عنهم بالموت حجاب الغفلة .. قال تعالى عنهم : « لقد كنت فى غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد .. » فهم لا يقومون لله ، وانما يقومون بالله ، وقد سقطت عنهم دعاوى

الغفلة ، ومن ههنا ــ من « القيام بالله » ، لا من « القيام لله » ، ــ سميت القيامة « القيامة » .. فالقيامة بعث من موت القبور .. أو بعث من موت القلوب .. وهى ، فى الحالتين كلتيهما ، صيرورة الى الكمال ، كل بحسب حاله .. فأما فى حالة القيام من موت القلوب ــ فى حالة ــ بعث موتى القلوب ــ فأنما هى كمال بالخروج من ظلام الجهل الى نور العرفان ..

ولقد عناها العارف النابلسى حين قال : « ان تكن « بالله » قائم * لم تكن .. بل انت هو .. » .. والذى تجب ملاحظته هو أنه لا يمكن أن يقول : « ان تكن « لله » قائم * لم تكن .. بل أنت هو .. » .. قوله : « ان تكن بالله قائم » .. يعنى : ان تخلصت من وهم قيامك بأمر نفسك ، وشاهدت شهوداً ذوقياً ، حسياً ألا حول لك ، ولا قوة ، وانه : « لا حول ، ولا قوة ، الا بالله » ، فقد أمحت عنك رعونات نفسك .. يعنى : تخليت من نقص صفاتك ، وتحليت بكمال صفاته ..

« ان تكن بالله قائم * لم تكن .. بل أنت هو »

ارجو أن يكون قد وضح لك أن قولك : « لأننا نقوم كلنا للقيوم ومن هنا كان أسمها قيامة » ، قول ممعن فى الخطأ .. وأرجو أن يكون واضحاً عندك أنه ، وان كان فى لغة العرب قد ينوب بعض حروف الجر عن بعض ، غير انها تشكل أختلافاً كبيراً فى لغة العرفان : فالصبر « مع الله » ، والصبر « بالله » ، والصبر « فى الله » ، والصبر « على الله » ، والصبر « عن الله » ، كلها تختلف اختلافاً كبيراً فيما بينها .. وللعارفين فيها مشاهد ، ومقامات .. وما يقال عن هذه يقال عن : « القيام لله » ، و « القيام بالله » ..

وعجيب حـــديثك عن التجلى الذاتى !! وواضح أنه لاحظ لك فيه .. ومع ذلك ، فأنت تتحدث عنه على هينة ، وفى يسر .. « القيامة بأختصار هى تجلى الله بذاته ..

ولا شك ان الله موجود دائماً فى كل مكان وفى كل آن ولكن .. فرق بين وجوده وبين تجليه بذاته .

وبالتجلى بالذات يحدث القهر التام لكل شىء والفناء للصـــور المادية بأسرها فلا صـــورة بالمادة يمكن أن تقوم أمام ذات الله فى توحده وكماله وتجليه .

هذا حدسى فى مسألة القيامة » .. هذا قولك من صفحة ١٩٤ ، أعيد اقتباسه عليك ، مرة أخرى ، لعله يحدث فى نفسك ما احب له ان يحدث فيها . من تهيب هذا الأمر الخطير ، الذى ما كان ينبغى لها ان تخوض فيه قبل ان تخلع النعلين ، وتواصـل التلبية ، وتستشـعر الخشـــوع ..

والقيامة ليست تجلى الله بذاته ، وانما هى تجلى الجبروت .. فالتجليات ثلاث : التجلى الجـلالى ، والتجلى الجمـالى ، والتجلى الكمـــالى ..

فاما التجلى الجلالى فهو تجلى القهـر الارادى الذى ، تحـت وطأته ، سارت العناصر جميعها فى طريق الاسلام العام : « وله أسـلم من فى السموات ، والأرض ، طوعا وكرها .. » والمقصود ، فى هذه المرحلة من التجليات ، « الكره » .. وما دخل « الطوع » فى العبارة القرآنية : « طوعا وكرها » الا بأعتبار ما يؤول اليه الأمر ، كنتيجة لقهر الأشياء تحت سـطوة التجلى الجلالى ، وذلك حين تبرز العقول من المادة الصمـاء ، وسنـــاعتئذ ، يبدأ طرف من التجلى الجمالى ،

فى الفينة بعد الفينة ، وذلك لتدريج العقول الناشئة .. وهذا تجل يزيد ، كل حين ، بروزه عن التجلى الجلالى ، وذلك كلما زادت العقول فى ترقيها نحو النضج .. ثم يبرز التجلى الكمالى . والى بروز العقول الأشارة بقوله تعالى : « واليه يرجعون » .. من الآية الكريمة « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات ، والارض ، طوعا وكرها ، واليه يرجعون ؟؟ » فان الرجوع الى الله لايكون الا عن طريق العقول .. وانما غرض التجلى الجلالى قهر المواد ، لأبراز العقول منها .. فتجلى القيامة هو تجل جلالى .. أقرأ قوله تعالى « يأيها الناس !! اتقوا ربكم ، ان زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى .. ولكن عذاب الله شديد .. » .. وهذا مشهد ساعة التخريب ، وهو مشهد مستمر ، الى أن يبرز أهل الجنة الى الجنة ، وأهل النار الى النار .. فيلازم التجلى الجلالى أهل النار فى النار .. ويصير أهل الجنة ، فى الجنة ، الى التجلى الجمالى ، والتجلى الكمالى .. كل حسب مقامه .. « هم درجات عند الله » .. وترد هذه الصورة فى الآيتين الكريمتين « وان منكم الا واردها .. كان على ربك حتما ، مقضيا * ثم ننجى الذين اتقوا .. ونذر الظالمين فيها جثيا » .. ويتوق أهل التجلى الجلالى الى شىء من برد التجلى الجمالى ، وذلك «يوم يقول المنافقون والمنافقات ، للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم » فيرد عليهم الخطاب الجلالى : « قيل ارجعوا وراءكم ، فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » قوله .. « باطنه فيه الرحمة » فهذه رحمة « الرحيم » ، وهى جمالية ، وكمالية .. قوله : « وظاهره من قبله العذاب » ، فهذه رحمة

« الرحمن » ، وهى جلالية ، فى غالب أحوالها ، والحكمة وراءها صهر العناصر واستخراج اللطائف من الكثائف ــ العقول من الاجساد ــ فهذا معنى قوله تعالى : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا .. فاذا برزت اللطيفة فقد وجب التجلى الجمالى بحكمة تدريجها ، وتربيتها .. فاذا قويت اللطيفة (العقل) فقد وجب التجلى الكمالى .. والتجلى الكمالى هو تجلى ذات الله .. ذلك بأن ذات الله خير صرف ، لا مكان للشر فيه ، وانما الشر فى تنزلات الذات الى مرتبة الحكمة .

ولقد تم تجلى الله بذاته على نبينا فى مقام معراجه .. ذلك المقام الذى قال عنه تعالى : « اذ يغشى السدرة ما يغشى * مازاغ البصر وما طغى » .. وعبارة : « ما زاغ البصر وما طغى » ، انما هى وصف لاستعداد المحل ، من النبى ، لتلقى هذا الامر العظيم .. واستعداد المحل يعنى أن النبى ، بفضل الله ، قد أصبح وحدة ذاتية فى وحدة زمانية ، فى وحدة مكانية ــ اكتمل له التوحيد اكتمالا كبيراً ــ فتأهل بذلك لشهود المطلق ــ لتجلى الله بذاته .. واستعداد المحل عند النبى قد كان مقدمة ، وكان نتيجة ، فى آن معا ..

ان تجلى الله بذاته تجلى ربوبية ، وهو لا يتم الا اذا استعد المكان بصفة العبودية لتلقى أنوار الربوبية .. واحب أن تعلم أن كبار العباد قد يكون لهم حظ من تجلى الله بذاته عليهم ، وهم فى هذه الحياة الدنيا ، وذلك بفضل الله ، ثم بفضل تجويدهم العبادة ،ونزولهم منازل العبودية .. والى نزول هذه المنازل وردت التوصية النبوية الكريمة : « موتوا قبل أن تموتوا »..فاذا بلغ العابد ، من الرضى بالله بحيث يكون كالميت بين يدى الغاسل، يقلبه كيف شاء ، من غير اعتراض فقد بلغ مقامات شهود التجلى الذاتى .. ومن نقص الرضا بالله ، ومن ثم ، من نقص العبودية ، أن تسأل الله شيئا لم يكن قد أعطاك

اياه .. وهم يقولون ، فى ذلك : « من وثق بحسن اختيار الله له ، لم يتمن غير الحالة التى هو فيها .. » ومن ههنا جاء منع موسى ، عليه السلام ، من شهود الذات .. قال تعالى ، فى ذلك : « ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال : ربى أرنى أنظر اليك !! قال :لن ترانى .. ولكن أنظر الى الجبل ، فأن أستقر مكانه فسوف ترانى .. فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا .. فلما أفاق ، قال : سبحانك !! تبت اليك .. وأنا أول المؤمنين » .. سؤاله الرؤية : « ربى أرنى أنظر اليك » ، دل على نقص العبودية .. فجاء الرد من جانب القدس .. « قال لن ترانى » .. السبب ؟؟ ان المكان منك لم يستعد بالعبودية لتجلى الذات ــ ذات الربوبية ــ ان ذاتك لم تستعد لترى ذات ربك ــ فحجبت ، بمحض الفضل ، عما طلبت .. والا ، لعطبت كما عطب الجبل ، ولذهبت هباء ، منثورا ، كما ذهب الجبل .. وقد جعل الفضل الالهى الجبل فداء لموسى ، ومع ذلك ، فلم يكن الذى وقع للجبل تجليا ذاتيا ، وانما كان تجليا جبروتيا ، وذلك لان الجبل لا ذات له ــ لا نفس له ــ تتلقى التجلى الذاتى .. أما محمد ، سيد الانبياء ، وسيد ولد آدم ، فلم يطلب الرؤية ، ولم يطلب المعراج ، فكان ذلك منه دليلا على تمام سكونه تحت مجرى الأمر الالهى ، فجاء وصفه بالعبودية من ربه .. قال تعالى عنه : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا .. انه هو السميع البصير » .. فتجلى الله بذاته انما هو خير محض ، لا مكان للشر فيه .. وتجلى الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، انما هو اعداد لذات العبد لتتهيأ ، بخروج الأغيار عنها ، وخلوصها الى العبودية الصرفة لتلقى الخير الصرف ــ لتلقى التجلى الذاتى ــ ومن ههنا فان قولك الذى اقتبسناه آنفا : « وبالتجلى بالذات يحدث القهر التام لكل شىء

والفناء للصور المادية بأسرها فلا صورة بالمادة يمكن أن تقوم أمام ذات الله فى توحده وكماله وتجليه » انما هو قول باطل ، ومسرف فى البطلان .. وانى أعيذك بالله أن تخوض فيما ليس لك به علم ، بمثل هذه السهولة ، واليسر .. « اذ تلقونه بألسنتكم ،وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم » ..

انما نعرف الله بأفعاله

وأنت تقول : « أما تفسير القيامة بنظريات علمية من اصطدام القمر بالأرض أو فناء الشمس .. أو تقلص الكون واحتراقه أو تمدده فى الفضاء .. أو اصطدام المادة بالمادة المضادة .. فكل هذا فضول لا مبرر له .. فالأنسان يموت بأسباب وبدون أسباب . وكما يموت الأنسان الفرد تموت الأمة وتموت الحضارة وتموت أجناس الحيوان بأسرها .. وتموت النجوم فى أفلاكها . لا حاجة الى كدح الذهن فى أسباب للنهاية والتناهى . انه الناموس الذى أقامه الصانع الذى صنع كل شىء . واذا قال لنا الصانع أنه سيقيم قيامة .. فأننا لسنا بحاجة الى اصطناع نظريات .. وأسباب .. ومبررات .. والمبررات لمن .. انه الآمر الذى يأمر ولاسواه » ذلك قولك من صفحة ١٩٥ ، وهو قول لا مبرر له ، ولا موضع له ، وبخاصة ممن يتحدث عن تجلى ذات الله .. ان الذى كان واجبا عليك هو أن تحصر نفسك فى الخوض فيما صرفت القول عنه بقولك « فكل هذا فضول لا مبرر له » والا تخوض فيما قد خضت فيه من تجلى ذات الله .. ألم يقل المعصوم : « تفكروا فى مخلوقات الله ، ولا تتفكروا فى ذاته فتضلوا » ؟؟ وكيف يجوز لرجل مثلك أن يقول : « أما تفسير القيامة بنظريات علمية عن اصطدام القمر بالأرض أو فناء الشمس الخ .. الخ » الى أن تقول : « فكل هذا فضول لا مبرر له » ؟؟ أليس هذا

الذى تحاول التزهيد فيه يتفق مع القرآن الذى هو موضوع كتابك ؟؟ أولم يقل الله : « أولم ير الذين كفروا أن السموات ، والأرض ، كانتا رتقا ففتقناهما ؟؟ وجعلنا من الماء كل شىء حى .. أفلا يؤمنون ؟؟ » ؟؟ من السحابة الواحدة المرتتقة فتق الله السموات ، والأرض .. ثم انه ، فى نهاية الدورة ، سيعيدها الى الرتق ، بعد الفتق .. قال تعالى فى ذلك : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب .. كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا .. انا كنا فاعلين » : اقرأ ، مرة أخرى : « كما بدأنا أول خلق نعيده » .. ثم ، دعوتك هذه : « فكل هذا فضول لا مبرر له » ، أهى دعوة الى العلم ؟؟ أم هل هى دعوة الى الجهل ؟؟ أهى دعوة الى التوحيد ؟! وكيف ؟؟ .. والله تعالى يقول « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق .. أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟؟ » وأنت رجل عالم ، وطبيب فى ذلك ، ثم تطيب نفسك أن تقول : « فالانسان يموت بأسباب وبدون أسباب » !! أليس هذا قولا نكرا ؟؟ لقد كان الواجب العلمى يقضى أن تقول : فالأنسان يموت بأسباب نعرفها ، وبأسباب لانعرفها .. وقد تكون هذه الأسباب هى مجرد انقضاء أجله الذى أجله الله .. فهذا فى حد ذاته سبب ..

أما والله ان الصدر ليكاد يضيق عند قراءة قولك : « واذا قال لنا الصانع انه سيقيم قيامة .. فاننا لسنا بحاجة الى اصطناع نظريات .. وأسباب .. ومبررات .. والمبررات لمن .. انه الآمر الذى يأمر ولا سواه » .. وكيف بربك تريد أن تعرف ربك ان لم تفكر فى دقائق صنعه ، وفى الحكمة التى يقوم عليها صنعه ؟؟ انك يا صديقى مضطرب ، متناقض ، تخوض فيما لا يصح الخوض فيه ،

وتمسك عما يجب الخوض فيه ، وتنسب هذا ، وذاك ، الى الدين ، فى مظهر المتحرج ، المتورع ، تارة ، وفى مظهر العالم ، المتمكن ، تارة أخرى ..

وفى صفحة ١٩٦ أنت تقول أشارة الى بعض كلمات القرآن : « وكلها رموز للأمر .. ولكلمة « كن فيكون » .

لقد جاء الأمر .. وهذا كل شىء .

انه الناموس أن يكون لكل شىء قيامته . أن تكون هناك قيامة صغرى لكل منا بالموت . وقيامة كبرى يفنى فيها الزمن فى الأبد ويعود الكل الى أصله ومنبعه .

لا محل لشك أو ريبة .

وانما هناك كل الدواعى والشواهد لأن يسلم الانسان بالقلب بلا مجادلة وبلا مساءلة .) هـذا قولك وهو قول ، جميعه ، بحاجة الى تصحيح .. والذى يبدو لى أنك تهون من الأمور ما كان ينبغى عليك أن تعرف له مكانته من الصعوبة ، والأمتناع .. اقرأ ، مـرة أخرى : « وانما هناك كل الدواعى والشواهد لأن يسلم الأنسـان بالقلب بلا مجادلة وبلا مسـاءلة » ، وقل لى ، بربك ، كيف يؤمن الانسان بالقلب : « بلا مجادلة وبلا مسـاءلة » ؟؟ ان القلب ليغلى بالشك ، كغليان القدر ، وكل غليانه ثورة خواطر ، وثرثرة داخلية ـ مجادلة ، ومساءلة ـ وهذه المجادلة ، وهذه المسـاءلة لا تطمئن ، ولا تجد سبيلها الى الهدوء ، ولا يجد صـاحبها فرصة للطمأنينة ، وبرد الراحة ، وسلامة القلب ، الا بعد أن يجد جوابا لكل سـؤال يثور ، ممابه يصل الى برد اليقين .. واليقين علم يقع على مراتب ثلاث: هى علم اليقين ، وعين اليقين ، وحـق اليقين .. ولا تكون هـناك فرصة «لأن يسلم الأنسان بالقلب» ، الا بعد علم حق اليقين .. استمع الى ابراهيم الخليل ، وهو على ماهو عليه من رفيع المكانة .. هـو

يقول ، فيما يحكى الحق عنه : « واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟؟ قال : أولم تؤمن ؟؟ قال : بلى !! ولكن ليطمئن قلبى » .. أنظر الى هذه المجادلة ، وهذه المساءلة ..

ثم قولك : « لقد جاء الأمر .. وهذا كل شىء » هو قول منكر ، أشد النكر .. وقد قال الله غير ذلك ، قال تعالى : « أتى أمر الله .. فلا تستعجلوه .. سبحانه ، وتعالى ، عما يشركون * ينزل الملائكة بالروح من أمره ، على من يشاء من عباده : أن أنذروا : أنه : لا اله الا أنا .. فاتقون » .. قوله : « فلا تستعجلوه » ، جمع كل الأدب .. أدب الشريعة ، وأدب الحقيقة ، وفى مضماره تقع مجاهدة المجاهدين فى كليهما .. لأن ، فى هذه المجاهدة ، الخروج من الشرك الى التوحيد .. وهذا هو سر الاشارة بقوله : « سبحانه ، وتعالى ، عما يشركون » .. ثم ، ما ظنك بالآية الثانية ؟؟ اقرأ ، مرة أخرى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره ، على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه : لا اله الا أنا .. فاتقون » ..

الأبد زمن له نهاية ..

وقولك : « كن فيكون » ، جمعت كل الوقت ، من اللحظة الى السرمد .. والأشارة الى الوقت فى الدين تتضمن الاشارة الى أدب الوقت ، فى الحياة .. وأدب الوقت فى الحياة : أن تعيش اللحظة الحاضرة ، فى جمعية لا يوزعها الخوف من المستقبل ، ولا الأسف على الماضى .. وفى قمة الوفاء بهذا جاء قوله : « مازاغ البصر وماطغى » ومن أجل الوفاء بهذا جاء التعليم : « ما أصاب من مصيبة ، فى الأرض ، ولا فى أنفسكم ، الا فى كتاب من قبل أن نبرأها .. ان ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم .. والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ، ويأمرون الناس بالبخل .. ومن يتول فأن الله هو الغنى

الحميد » •• و « كن فيكون » اشـــارة الى : العلم ، والارادة ، والقدرة ـ « العالم ، المريد ، القادر » ـ وهى اشارة ، قبلها ، الى : « الله ، الرحمن ، الرحيم » ، وهى اشارة ، بعدها ، الى : « الخالق ، البارىء ، المصور » •• قوله : « كن » ، فى عالم « العلم » •• قوله : « ف » ، فى عالم « الارادة » •• قوله « يكـــون » ، فى عـــالم « القدرة » •• أصلها : « كن ، يكن ، يكون » •• وقد جاءت « الفاء » اشارة الى « يكن » •• و « الفاء » ، ، فى لغة الارقام ـ فى « الأبى جـــاد » ـ تســـــاوى ثمانين •• و « يكن » تســـــاوى ثمانين أيضا •• وقولك : « وقيامة كبرى يفنى فيها الزمن فى الأبد ويعود الكل الى أصـله ومنبعه » يدل على علم قاصر ، ومضر ، فى نفس الوقت •• وما هو الزمن الذى تفنيه فى الابد ؟؟ يبدو انك تظن الأبد غير متناه ، كما يظنه علماء اللغة ، وكما يظنه « رجال الدين » •• وقد جاء الضرر من هذا الظن ، حيث زعموا أن النار لا تنتهى ، لأن الاشارة قد وردت فى القرآن الى أهلها بالعبارة الكريمة : « ان الله لعن الكافرين ، وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها ابدا •• لايجــدون وليا ، ولا نصيرا » •• والقول بعدم نهاية النار باب من أعظم الأبواب التى يجىء منها الجهل بالله •• ان الأبد زمن ينتهى •• وقد أشار ، سبحانه ، وتعالى ، الى نهايته فقال : « فأما الذين شقوا ففى النار ، لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها مادامت السموات والارض ، الا ما شاء ربك •• ان ربك فعال لما يريد » •• فالأبد هو مدة دوام الســـموات والأرض •• وذلك دوام محــدود •• هو الزمن بين « الفتق » و « الرتق » ، من قوله تعالى : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ؟؟ » ثم هو ، بعــد الفتق ، يعيد الأمر الى الرتق : « كما بدأنا أول خلق نعـيده » •• فما بين « الفتق » ، واعادة الامر الى « الرتق » ، مرة أخرى ، يمتد الابد •• هذا هو الأبد •• وهو زمن له بداية ، وله نهاية ••

الفصـــل العاشر

البعـث

هذا فصـل عن البعث •• والبعث يعنى اليقظة بعـد النوم ، ويعنى الحياة بعد الموت •• وبين النوم والموت اختلاف مقدار ، لا اختلاف نوع •• قال تعالى : « الله يتوفى الانفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الاخرى الى أجل مسمى •• ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » •• وعن البعث من النوم قال تعالى ، عن أهل الكـهف ، الذين ضرب عليهم النوم : « ثلاثمائة سنين » ؛ قال عنبعثهم : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم، قال قائل منهم : كم لبثتم ؟؟ قـالوا : لبثنا يوما ، أو بعض يوم •• قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم •• فابعثوا أحـدكم بورقكم هـذه الى المدينة ، فلينظر : أيها أزكى طعاما ؟؟ فليأتكم برزق منه•• وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا » ••

وكان بعثهم هذا عن حالة نوم عميق ضربه الله عليهم •• وقال فى وصفه : « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ❊ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا » •• وعن حالة رقادهم ذلك قال : « وتحسبهم أيقاظا ، وهم رقود •• ونقلبهم ذات اليمين ، وذات الشمال •• وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد •• لو أطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، ولملئت منهم رعباً » •• فالبعث ، ههنا ، هو اليقظة من النوم وعن البعث الذى هو الحياة بعد الموت قال تعالى : « لقد كنت فى غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد •• » ، ولقد قال فى وصف حالة ما قبل هذا البعث : « ولقد خلقنا الانســان ،

ونعلم ما توسوس به نفســه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ❊ اذ يتلقى المتلقيان ، عن اليمين ، وعن الشــمال ، قعيد ❊ ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ❊ وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ❊ ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد ❊ وجاءت كل نفس، معها سائق ، وشهيد ❊ لقد كنت فى غفلة من هــذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك انيوم حديد » •• وعن حالة الغفلة التى يكون منها البعث قال المعصوم : « الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا » ••

فالبعث هو تيقظ الفكر ، واستيفاز الشعور ، بعد أن يكون النوم، أو الموت ، أو الجهل •• قد أرخى عليهما أستار التبلد ، والانحلال •• والفكر هو الادراك الدقيق ،اللطيف ، الذى يميز بين الاشياء ، وادناها شيئان : الشىء ، وضده •• ولذلك فقد صح أن نقول : أن الفكر هــو قوة الادراك الشفعى •• والفكر وظيفة العقل •• والعقــل يعمل فى الدماغ •• وأما الشعور فهو الحياة الملتذة بما يلذ ، المتأذية مما يؤذى، الفارة ممايؤذى ، الى مايلذ •• وهى ، فى فرارها ذلك ، تستخدم الفكر، استخدام المخدوم للخادم •• وهى ، من ثم ، تحاول ان تصير ، أو أن تسير ، من الشــفعية الى الوتــرية ــ من الادراك الشــفعى ، الى الادراك الوترى •• والشعور وظيفة الفؤاد •• والفــؤاد يعمل فى القلب ، وحصيلة الشعور الحب •• ومع أن الحب ضده البغض ، غير انه ليس للبغض مكان فى سويداء القلب ، وأنما هو على حواشــيه ، وسببه الخوف الناتج من نقص العلم •• وحواشى القلب هى قوى الادراك الشفعى ــ هى العقل •• فليس فى سويداء القلب الا الحب •• ومن ثم ، فأن القلب هو قوة الادراك الوترى •• وهذه الخاصية هى التى رشحت القلب ليكون بيت الرب •• قال تعالى ، فى الحديث القدسى : « ماوسعنى أرضى ، ولاسمائى ، وانما وسعنى قلب عبدى

المؤمن .. » .. وحين كان على حـواشى القلب العقـل ، وهو قوة الادراك الشفعى ، فأن على حواشى العقل الجسد .. والجسـد هو قوة الادراك التعددى .. والادراك التعددى يتمثل فى الحس .. وهذا ظاهر ، وبخاصة فى بداية الحياة ، قبل ظهور الحواس .. فقـد كان الحى الأول يحس بجسده كله ــ يحس بكل ذرة من جسده ــ فلما تقدمت الحياة ،وتعقدت ، توظفت الوظائف ، وانحصر الحس فى مواضع بعينها ، هى الحواس .. وأصبح على الجلد أن يكون درقة ، ودرعا واقياً للحى ، يقيه عوادى البيئة ، وهكذا ضعف احساسه .. والحياة الآن فى ترقيها ، وتطورها ، راجعة الى اشاعة الحس فى جميع ذرات الجسد ، على نحو ما كان عليه الشأن عند الحى البسـيط ، البدائى .. فهذه المهمة هى وظيفة العبادة ــ هى وظيفة التوحيد .. وسبيله اليها محاربة الخوف .. ذلك بأن الخوف العنصرى هو الذى حفز الحياة فى مراقى التطور ، فوظف الوظائف لاعضاء الجسـم المختلفة .. ومن هـذه الوظائف ، كما سلفت الاشـارة ، ظهور الحواس ، وظهور العقل .. ومنها اسناد الوقاية لبقية الجسـم ــ للجلد .. ولقد اقتضى هذا أن يتبلد حسه .. ومن أجل بلوغ الغاية المرجوة ، وهى اعادة الحس الى الجلد ، اتجه التوحيد الى محاربة الخوف العنصرى ، فأبتدأ بتحويله الى خوف واع ، موحد فى واحد ، فجاء القول : « رأس الحكمة مخافة الله » .. ثم ان السير ، فى هذا الأتجاه ، يفضى بنا الى المعرفة التى تقرر أن الله لا يخاف ، وانمـا يحب ــ يؤنس به ، ويطمأن اليه ، ويحب ..

قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشـابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم .. ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم الى ذكر الله .. ذلك هدى الله ، يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله

فما له من هاد » ..

قـــوله: « ثم تلين جـلودهم » ، اشـــارة الى تخلص الجلود من التحجر ، وبلادة الحس ، ومن القشرة الكثيفة التى فرضتها عليه وظيفة الوقاية .. فأنه ، بعد الاطمئنان من الخوف ، يلين الجلد ، وينعم ، ويلطف ، ويكون قوى الأحساس ، مرهف الشعور ..

وانما تكون الطمأنينة من الخوف بفضل العلم بعواقب الامور .. قـال تعالى ، فى ذلك : « قل لا أملك لنفسى نفعا ، ولا ضرا ، الا ما شاء الله .. ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، ومامسنى السوء .. ان أنا الا نذير ، وبشـير ، لقوم يؤمنون » .. والعـلم أوله ايمان باللسان ، وعمل بالجوارح .. ثم ايمان بالعقل وطمأنينة بالقلب .. ثم ايقان بالعقل وسلامة بالقلب .. وعند الايقان ، يعنى عند حصول علم اليقين للعقل تحصل السلامة للقلب ، بالخلاص من الخوف .. وعندها يتسع القلب ، ويقوى ، وينتظم ، ويدفع دم الحياة قويا نقياً فى كل ذرات الجسد ، وفى كل ذرات الجلد ، فتنشط الحياة فى مواته بنشاط ، وانتظام افرازات الغدد الصماء ، وغيرها من الغدد ذات الوظائف المختلفة ، ويقفز الجسد كله الى الحياة الكاملة ، ولا يبقى فيه موضع كثافة ، ولا موطن بلادة ، ويتحقق موعود الله فيه .. قال تعالى : « يأيها الناس !! ان كنتم فى ريب من البعث فأنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضـــغة مخلقة وغـير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام مانشاء ، الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثملتبلغوا أشدكم، ومنكممن يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئا .. وترى الأرض هامدة ، فاذا انزلنا عليها الماء أهتزت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » .. هذه الأرض هى أرض الجسد .. والماء هو العلم الذى ينزل مـن سماء العقول الصافية على هذه الأرض فيجدد شبابها ، ويبعث فيها

الحياة جديدة ، دفاقة ، جياشة بالحس المرهف ، والعاطفة الصادقة ..
والى هذه أشار شيخ الطائفة الصوفية ، أبو القاسم الجنيد ، فقال :

تطهر بماء الغيب ، ان كنت ذا سر *
والا تيمم بالصعيد ، وبالصخر ،
وقـــدم اماما كنت أنت أمامه *
وصل صلاة الفجر ، فى أول العصر ،
فتلك صـــلاة العارفين بربهم *
فأن كنت منهم فأنضح البر بالبحر

قوله : « ماء الغيب » يعنى العلم بالله .. وقوله : « فأنضح البر بالبحر » يعني أفض على الجسد من أنوار العلم ما يحيى مواته ، كما يحيى الماء موات الأرض الهامدة .. ولقد قلنا ان العلم يحـــرر صـــاحبه من الخوف ، فيقع الاتزان الذى يدفع الدم القوى حاملا افرازات الغدد السليمة ، فينعش ، ويغذى كل خلايا الجســد غذاء صحيا ، يبعثها من موتها جديدة ، ومتجددة باستمرار ..

هذا هو البعث الأعظم ــ بعث موتى القلوب .. وهو المــوت الأعظم عند الله .. قال تعالى : « أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ، ليس بخارج منها؟؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون .. » قوله : « أومن كان ميتا » بالجهل بالله .. « فأحييناه » بالعلم بالله .. يعنى أومن كان ميت القلب بظلام الكفر ، فبعثنا قلبه ، وأحييناه بنور الايمان ، كمن هو فى ظلمات الجهالات يتخبط فيها على غـــير هدى ؟؟ والى غير خروج ؟؟ وبعد .. فأنى أحب أن يكون البعث هو على هذا النحو .. هو بعث حياة القلوب ، لأن به السلوك ، وبه السير من البعد عن الله الى القرب من الله .. وهذا هو الحياة ..

أما البعث من الموت الحسى فهو حق ، وواجب ، وما ينبغى أن يأخذ من وقتنا أكثر مما أخذ .. ولولا أن هذا الكتاب قد طال لتحدثت عن بعث موتى القلوب .. ولكننى قد تحدثت عنه ، بما يغنى عن الأعادة ههنا ، وذلك فى كتابى « رسالة الصلاة » ، فى مقدمة الطبعة الرابعة .. فليراجع فى موضعه ..

ثم تحسن مراجعة مقدمة كتاب « أسئلة وأجوبة » ، فأنها مقدمة ترسم طريق السير من البعد الى القرب ، والبعد موت ، والقرب حياة ــ بعث من الموت ..

الفصل الحادى عشر

لا كهنوت

لا كهنوت فى الاسلام !! ما فى ذلك أدنى ريب .. ولله الحمد .. وانما كان الكهنوت مرذولا لانه ادعاء وصاية على الناس ، والقيام بينهم وبين ربهم الى الحدود التى تدعى التحدث بلسان الله .. وتقوم بتحرير صكوك الغفران لبعض الناس ، وحرمان البعض الآخر من رحمة الله الواسعة .. وليس هناك دين يقوم فى أصله على الكهنوت .. لا !! ولا المسيحية !! وانما أشتهرت المسيحية بالكهنوت لأن فيها أسراراً دقيقة ، ومعانى رفيعة ، وكان الجهل سايداً بين الناس ، والكلمة المقروءة عسيرة ، والكتب المتداولة قليلة .. فأصبح تعليم الدين محصورا فى دوائر ضيقة ، وعند رجال بأعيانهم فأتخذوا منه حرفة ، وحفوه بالمصاعب ، وجعلوه مهنة يرتزقون منها ، ويتسلطون عن طريقها على رقاب العباد ..

وفى الاسلام ، مامنع من الكهنوت بالمعنى الذى عرف فى النصرانية مثلا ، الا وجود القرآن ، كتابا مقروءاً ، ومحفوظا فى الصدور ، والا بساطة التعاليم التى تجد كل تعبيرها فى كون الاسلام دين الامين : رسوله أمى ، وأمته أمية .. فهو واضح ، كل الوضوح ، بسيط كل البساطة .. يبدأ من أرض الناس ، ولا يكلف أمرا يستحيل على الانسان العادى فهمه أو أتيانه فى يسر، وسهولة .. هذا للرجل العادى .. ثم أنه ، للذين يتعمقونه ، من هذه البدايات يسير فى طريق مطروق ، واضح المعالم ، هو طريق المعصوم .. فأنت ، ان كنت مسلما ، صاحب شريعة ، عاديا ، فما تكلف الا يسيرا .. وان كنت

صاحب طريقة ، تركب العزائم ، فأنك مهدى بنهج سليم واضح ، قد سار عليه من قبل الهادى ، المهدى ــ محمد النبى ، الامى ، الامين ..

ومع ذلك فان عصور انحطاط المسلمين قد شهدت ، ممن يسمون أنفسهم « رجال الدين » ، محاولات نحو رتب الكهنوت .. ولانتزال هذه المحاولات قائمة بأســـم حماية الدين .. وما علموا أن حماية الدين ، وحتى التبشير بالدين ، أنما يتم ، على خير الوجوه ، بأن تعيش أنت الدين ، فى تطبيق صادق ، ونظيف ، وأمين ، حتى تكون حياتك تجسيداً لكمالاته ، وفضائله ، فتكون دعوتك اليه ، وحمايتك اياه ، بلسان حالك ، قبل لسان مقالك .

ومهما يكن من الامر ، فليس هناك ، منذ اليوم ، خــوف على الناس من الكهنوت ، مادامت العقول ســـــايرة فى طريق النضج والفهم .. ومايتبغى أن يدفعــنا الخوف من الكهنوت أن نجنح الى طرف الشطط الثانى ، فنتورط فى خطأ آخر ، قد بدا لى طرف منه فى قولك : (ان الصلة بين الانسان وربه صلة مباشرة .. وان الله يرعى شؤون مخلوقاته مبــاشرة بدون مجلس ادارة وبدون ســـكرتارية وبدون وســـطاء ..

« قل لله الشفاعة جميعا »

« واذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان ») .. هذا قولك ، من صفحة ٢٢٠ .. وهو قول يســير الى الشطط الآخر .. فأن الوســـطاء قائمون ، ولكن قيامهم مرحلى .. فأنت لا تستطيع أن تعرف الله الا بواسطة العارفين به .. فما كان يمكنك الاستغناء عن وساطة محمد ، مثلا ، وما كان لمحمد أن يستغنى عن وساطة جبريل .. ولكن ، بعد أن أرتفق محمد بجبريل فى المرحلة ، أمكنه أن يسير الى ربه بدون جبريل ، كماهو محكى فى قصة المعراج

حين تخلف عنه جبريل عند سـدرة المنتهى .. هـذا وقول الله من الآية التى سقتها أنت للتدليل على سقوط الوسطاء أصلا ، وهى قوله تعالى : « قل لله الشفاعة جميعا » ، لا ينهض بقضيتك .. أليست « قل » هذه ، فى حد ذاتها ، وساطة ؟؟ وفى الآية الثانية ، التى سقتها أنت أيضا : « واذا سـألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان » .. أليست وساطة التعليم فيها ظاهرة ؟؟

ان اخواننا يقولون : « انما أفلح من أفلح بصحبة من أفلح » .. ومهما يكن من الأمر ، فأن الوساطة موجودة ، ولكنها مرحلية لحين يتم ، عن طريقها ، اللقاء بين العبد والرب ، فيكون ، حينئذ ، التلقى بلا واسطة .. ولكن يجب أن نكون دقيقين ، حتى لا يقع تخليط بين وساطة النظاف ، الأنقياء ، الأتقياء ، الموسـلين ، الموصلين ، وبين كهنوت كلاب الدنيا ، الذين يقطعون على السالكين طريق الوصول ، ويدنسون الدين بسخائم نفوسهم ، ويستغلونه لمآرب دنياهم .. ان الوسيلة قائمة ، ومطلوبة .. وان الكهنوت موضوع ، ومرفوض .. والفرق بينهما واضح .. وعلى من يريد التمييز الدقيق أن يأخذ دينه ممن استقاموا ، والا يأخذه ممن قالوا !!

ولما كان هذا الفصل ليس بالفصل المهم فأنى ماأحب أن أطيل فى متابعته ، وبخاصـة أن الكتاب قد طال .. ولكن ماينبغى أن أختم تعرضى له ، فى مقامى هذا ، قبل الاشارة الى خطأ أساسى قد تورطت فيه أنت ، وذلك حين قلت ، من صفحة ٢٢٤ : (أما الضجة التى أثيرت والكلام الكثير الذى قيل حول أقامة الحد فى القرآن بقطع يد السارق فهى ضجة مفتعلة .. لأن الآية تفسح المجال للعفو عن التائب فمن يسرق ويقل صادقا تبت ولن أسرق بعد الآن يعطى لولى الأمر مجالا

لرفع الحد عنه « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فأن الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم ») .. فأن قولك هذا قول غير صحيح ، ذلك بأن أمر السرقة ، اذا بلغ ولى الأمر ، وقامت أركان الحد فأنه لا يستطيع أن يعفو ، ولا أن يرفع الحد عن السـارق .. لا يستطيع أحد أن يرفع الحد عمن قام به الحد .. لا يستطيع ذلك أحد ، حتى ولا النبى الكريم ..

ما أحب لك أن تعتذر للاسلام ، فتبرره ، أمام الذين يهاجمونه بغير علم من المستشرقين ، بمحاولة التنصل عن الحدود، أو عن الرق ، كما فعلت ، وكما فعل كثير من جهلاء المسلمين الذين حاولوا الدفاع عنه بمثل هذا الاسلوب .. ان الاسلام مبرر بما يكفى ، ولوفهمنا نحن المسلمين دقائق حكمه ، فأبرزناها ، لكان فى ذلك الاقناع ، كل الاقناع .. والأفحام ، كل الأفحام ..

الفصـــــل الثـــانى عشر

المعمـــار القرآنى

هذا أقل فصول الكتاب أهمية ، ولكنه ، مع ذلك ، أقربها الى نفوس القراء ..

والذى لا يروقنى فى هذا الفصل هو تركيزه على مبانى القرآن الى الحد الذى يجعلنى أخشى على القراء أن ينصرفوا عن المعانى الى المبانى .. ألســـــت أنت تدعو الى ذلك ، بارادة منك ، أو بغير ارادة ، حين تقول ، من صفحة ٢٠ : « انا لسنا أمام معنى فقط .. وانما نحن بالدرجة الأولى أمام معمـــار .. » ؟؟ أنظر الى عبارة : « بالدرجة الأولى » !!

ان القرآن قد استخدم اللغة العربية استخداما معجزا ، مافى ذلك أدنى ريب ، ولكن ، مع ذلك ، ولعله ، رغم ذلك ، فان اعجـــاز القرآن فى المعانى ، وليس فى اللغة .. والقرآن ، « بالدرجة الاولى » علم — هو علم نفس .. وما موسيقاه الباطنية التى تشير أنت اليها ، بدون أن تتحدث عنها ، الا ذلك العلم .. القرآن استخدم التنغيم الخارجى ليحدث به تنغيما داخليا فى تضاريس النفس البشرية التى تشوش عليها الخوف العنصرى أمرها ..

وأخشى ما أخشـــاه عليك ، وعلى القراء ، هو ظنك هذا الذى وردت العبارة عنه ، فى صفحة ٢٠ ، بقولك : « انه قرآن فى لغته . أما فى اللغات الاخرى فهو شىء آخر غير القرآن . وأنا أنزلناه قـــرآنا عربيا ، وفى هذا تحديد فاصل » .. وأنا انما كرهت لك هذا الفصل لأنه يمد فى ضلال قديم هو اعتبار أن معانى القرآن انما تلتمس فى

اللغة العربية .. هذا الضلال قد أتى له أن يصحح ، ولقد كنت أنت ، ولا تزال عندى ، من المرجوين لتصحيحه ، ذلك لانك ذكى ، ولانك زكى ، ولأنك عالم ..

ان القرآن ليست له لغة ، وأنما أتخذ اللغة العربية وسيطا الى الوصول الى لغته .. ماهى لغته ؟؟

هى أناغيم النفس الأنسانية التى تنساب فى أودية قد تحجبت بحجب الانوار ، وبحجب الظلمات .. ولقد أشرنا الى ذلك فى حديثنا ، فى هذا الكتاب ، عند الكلام عن الحروف .. ان القرآن ليست له لغة بالمعنى الذى نعرفه للغة .. اقرأ : « حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وانه ، فى أم الكتاب ، لدينا ، لعلى حكيم » ..

هذا هو القرآن ، وهذه هى لغته .. وانما صب فى قوالب التعبير العربية لتدركه عقولنا القواصر : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .. فاذا عقلتم فما ينبغى لكم أن تقفوا عند جمال مظهره ، وانما ينبغى أن تقصـــوا آثاركم راجعين الى المنبع حيث تجدون أنفسكم التى أضللتموها ، فضللتموها ..

« وانه ، فى أم الكتاب ، لدينا ، لعلى حكيم » .. « أم الكتاب » هى النفس الأنســـــانية الكاملة !! أين هى ؟؟ هى عند الله ، حيث لا عـــند ..

والقرآن هو علم هذه النفس .. وهو هى ..

الفصـــــل الثالث عشر

لماذا .. اعجاز القرآن ؟

وهذا ، أيضا ، فصل قليل الأهمية .. وهو بسبيل من الفصـــل السابق ، وفى معناه .. ولكنه أكثر ضررا بالعقول منه ..

وأنت تفترعه بقولك : « القرآن كتاب حافل بالنبوءات » .. ثم تمضى لتقص علينا كيف أنه تنبأ بأحداث ، ثم كيف تحققت هـذه الأحداث على وفق ما أنبأ .. وما قيمة هذا ؟؟ قيمـته أنك تريد أن تقول : أن القرآن كتاب منزل من الله الذى يعلم الغيوب ، وماهـو بكتاب موضوع من لدن محمد بن عبد الله !! هذا هو كل همك !! ألا ترى أنه هم صغير ، صغير لا يليق برجل فى مثل قامتك هذه ، وفى زمن مثل زمنك هذا الذى تعيش فيه ؟؟

دع هذا للأشياخ ، فقد أستغرقهم ، واستغرقوه .. وأقبل لنتحدث عن القرآن بما يليق بك وبزمانك ..

القرآن هـو همس أقدام ذات (نفس) الله وهى تتنزل من الاطلاق الى القيد .. ولقد تركت هـذه الأقـدام آثارها فى الزمان والمكان .. ثم جاء القرآن يقتفى هذه الآثار ، ليبينها للسالكين الى الله فى اطلاقه .. قال تعالى عنه ، ليفيد هذا المعنى : « سـنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق .. أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟؟ * الا أنهم فى مرية من لقاء ربهم .. الاأنه بكل شىء محيط .. » .. ولما كان تعالى بكل شىء محيطا فقد أصبح لابد من لقائه ، ومايتمارى بذلك الا الغافلون .. ولزيادة

توكيد هذا اللقاء جاء قوله ، تبارك ، وتعالى : « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا ، فملاقيه » .. ولاتكون ملاقاة الله بقطع المسافات .. فانه تعالى قد قال : « ماوسعنى أرضى ، ولاسمائى وانما وسعنى قلب عبدى المؤمن » .. ولذلك فأنا انما نلقاه فينا .. قال تعالى ، فى ذلك : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه » .. وقال المعصوم : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .. وقال أصحابنا : « سيرك منك وصولك اليك » .. وأصبح واضحا ، لأرباب القلوب ، ان لقاءنا الله انما يكون بتقريب صفاتنا من صفاته .. انما يكون بتخلقنا باخلاقه .. انما يكون بمحاكاته .. انما يكون باقتفائنا آثاره .. والقرآن جاء يقتفى هذه الآثار .. وهذا هو معنى قولنا : أن القرآن هو همس أقدام الذات الألهية ، وهى تنزل منازل التدنى ، والتدلى ، من الاطلاق الى القيد .. وانما السير اليها هو باقتفاء هذه الآثار : « فارتدا على آثارهما قصصا » .. وهذه الآثار لاترى بعين الرأس ، وانما ترى بعين العقل ، ولذلك فانه ، تبارك ، وتعالى ، قد وهبنا العقول من أجل أن نسير اليه باقتفاء آثاره .. ثم انه قوى عقولنا برسل الملائكة ، ثم انه قواها برسل البشر ليرسموا المنهاج ، ويبينوا معالم الطريق .. وقد جاء محمد المعصوم فأبان المعالم بتجسيده للقرآن ، فى الدم واللحم ، حتى لقد صح أن تقول عنه عائشة : « كانت أخلاقه القرآن » .. ثم دعانا الى تقليد محمد فقال : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى ، يحببكم الله » .. وقد سار محمد الى الله سيرا يوجهه ، ويهدى خطاه الله ، بواسطة جبريل ، وبغير واسطة .. « ماضل صاحبكم وماغوى * وماينطق عن الهوى * ان هو الا وحى يوحى » .. فقد سار جبريل أمام محمد يقتفى آثار الحق ، لا يخطئها ، وسار محمد بسيرة ، حتى قويت

أنواره ، فأستقل عن جبريل ، وأخذ يسير خلف الله بلا واسطة ..

ونحن ، انما نسير خلف محمد ريثما تقوى أنوارنا ، فنسير خلف الله بلا واسطة .. وهـذا هـو لقاؤنا الله .. هو لقاء وسيلته العقل .. ولا يتخلف العقل عن هذا اللقاء الا لغوائى الجهـالات ، والأوهام ، والأباطيل .. وانما أرسل الله جبريل ، وأرسل محمدا ، لتخليص العقول من هذه الأغـلال .. قال تعـالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » ..

فاذا قويت العقول بفضل الله ، ثم بفضل تقليد محمد ، بانقان ، فى أسلوب عبادته ، وفيما تيسر من أسـلوب عادته ، فقد تأهلت لتستقل عن التقليد ، ولتعيش فى أصالة ، ولتتلقى عن الله كفاحا ، وقد سقطت من بينها وبينه الوسائط .. والتلقى عن الله بلا واسـطة يورث الاستقامة .. ولقد تحدثنا عن الاسـتقامة كثيرا فى هـذا الكتاب ، وفى عدة مواضع من كتبنا .. وغاية الاستقامة ماحكى الله عن النبى الكريم ، فى قمة معراجه .. قال تعالى عنه : « اذ يغشى السدرة مايغشى * ما زاغ البصر وماطغى » .. وهذه حال من يكون مع الله على أدب الوقـت .. وأدب الوقت مـع الله أن تعيش فى اللحظة الحاضرة ، قائما بالواجب المباشر جهد الاتقان ، ثم ، بعد ذلك راضيا بما يجريه الله عليك ، من غير أن تذهب نفسك حسرات عند الفشل ، ومن غير أن يستبد بك الفرح عند النجاح .. « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » .. هذا هو نهج الحياة الكاملة التى تحـررت من الخوف ، واسـتغرقت فى الأنس ، والطمأنينة ، والحب .. هذه هى حياة الفكر ، وحياة الشعور .. وطريقها القرآن .. وما أنزل القرآن الا من أجلها وهى ، هى معجزة القرآن الباقية ، والخالدة ، والمستمرة البقاء ، والخلود ، بأستمرار ترقيها ، وتطورها ،

وتجددها ، محاكية لصفة الله ، تبارك ، وتعالى فى قوله ، عن نفسه ، : « كل يوم هو فى شأن » .. ثم هو لا يشغله شأن عن شأن ..

لا أجد هنا الحيز لأتحدث أكثر عن اعجاز القرآن ، وموعدنا بذلك ، ان شاء الله ، كتابنا الذى وعدنا به القراء فى هذا الكتاب ، وهو عن « القرآن بين التفسير والتأويل » .. وأنى لأرجو الله أن يعيننى على اخراجه ..

ولكنى ما أحب أن أزايل مقامى هذا قبل أن ألفت نظرك الى أن اعجاز القرآن ليس ، فحسب ، فى لغته ، ولاهو فى علميته بآيات الآفاق ، من أرض أو سموات ، وانما معجزته ، كلها ، فى آيات النفوس الواردة اليها الأشارة فى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق .. أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟؟ » ..

ومعلوم ، عند أرباب القلوب ، ان الأنسان هو الكون الأكبر ، وأن العوالم ، كلها ، هى الكون الأصغر .. فالأنسان هو مقصود الله بالاصالة ، وهو موضع نظر الله الى مخلوقاته .. والاكوان ، جميعها ، هى مقصود الله بالحوالة ، وهى مطية الأنسان ، ووسيلة سيره الى ربه — الى كماله — اعجاز القرآن انما فى كونه علم النفس .. وهو فى ثالوثه المحكى كثيرا فى الأسماء الثلاثية : « الله الرحمن الرحيم » .. أو « العالم المريد القادر » .. أو « الخالق البارىء المصور » .. ولقد حكيت ، أحكم حكاية ، فى قوله ، تبارك وتعالى : « لأيلاف قريش * أيلا فهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .. أرجو أن تفكر فى هذا .. وللعون أحيلك ، فى هذا الكتاب ، الى فصل « لا اله الا الله » ..

خـــاتمة :

اما بعد فهذا هذا !!

ولقد فتح كتاب الاستاذ الفاضل الدكتور مصطفى محمود أبواباً فى الدين حاولت تتبعها واحداً واحداً ، ولقد ختمت كل باب منها وفى النفس شىء لا يزال يتوق الى ان يقال .. ولكن لابد من الأيجاز ، فان لكتابى هذا حجما يحسن ان ينتهى اليه ، وألا يتعداه ، وذلك لأعتبارات شتى ..

لم أجامل الدكتور الفاضل ، ولم اتحامل عليه .. وماينبغى لى .. ومن الجائز ان القلم قد جرى ، فى بعض المواطن بعبارات تشتم منها رائحة العنف .. فما اريد ، هنا ، ان اعتذر عن شىء منها ،فقد كنت استخدم من الكلمات ما يوكد معنى ما اريد .. وجل ما اريد هو ان يأخذ الناس ــ كل الناس ــ أنفسهم بالسير خلف المعصـــوم ، فى اتقان ، وتجويد لتقليده ، فى اسلوب عبادته ، وفيما يطيقون مـن اسلوب عادته ، حتى يأخذوا من سمت هذه الحياة الخصبة ، المهتدية ، الهادية ، مفتاح مغـاليق القـرآن ، فيتهيأوا بذلك للأخذ من الله كفاحا ، ويكون ذلك سبيلهم الى صفاء عقولهم ، والى سلامة قلوبهم ، فتتم لهم بذلك الحياة الكاملة ــ حياة الفكر ، وحياة الشعور ..

واخشى ما اخشـــاه على النشء أن يظنوا ان هذا الدين دين قراءة ، وتحصيل فى المعاهد ، على نحو ما يجرى عليه العمل عندنا اليوم .. ان هذا الدين دين عمل .. والقاعدة فى تحصيل العلم فيه قوله تعالى : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله .. » .. وقول المعصوم : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .. » ..

ثم ان الله ، تبارك ، وتعالى ، يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين » .. ولقد قال المعصوم لأصحابه ،عقب عودتهم من غزوة من غزوات الاسلام: « رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر » .. يريد مراغمة النفس ، وحملها على السير فى سبيل الله ، وذلك هو السبيل الذى جسده محمد فى الدم ، واللحم .. ذلك هو سنة محمد .. ولقد آن الاوان لبعثها ، وأحيائها بعد اندثارها .. ولقد وظف الأخوان الجمهوريون حياتهم لبعث هذه السنة المطهرة .. هم يعيشـــونها اليوم ويدعـــون الناس الى ان يعيشوها ، وانت مرجو فينا .. وفقك الله ، ورعاك ، وانجح مسعاك ، وحفظ دينك ، ودنياك ..

السودان ــ ام درمان ص ب ١١٥١

ذو الحجة ١٣٩٠

ينـــاير ١٩٧١

الفهرست

الموضوع :	رقم الصفحة
الاهداء	٣
مقدمة	٥
الخوض فى أسرار الكون	١١
التفسير والتأويل	١٨
أخلاق الله	٢٠
التأويل	٢٣
الاصول والفروع	٢٦
الفصل الاول	
لا اله الا الله	٢٧
المعبود بحق	٣١
الكلمة الطيبة	٣٥
والكلم الطيب أيضا	٣٦
الاستقامة	٣٨
من مادة الفكر صنع العالم	٤١
بذرة القرآن	٤٣
الفصل الثانى	
مخير أم مسير	٥٥
الفلسفة والدين وصميم القرآن	٥٥
النظرة العلمية	٦١
النظرة الدينية	٧٠

الموضوع :	رقم الصفحة
النفس السفلى	٧٦
العقل	٧٧
الضمير والسريرة	٧٩
من خصائص القرآن	٨١
فهم القرآن	٨٥
الانسان مسير وليس مخيرا	٩٦
الانسان بين التسيير والحرية	٩٨
القدر وسر القدر	١٠١
الخلاصة	١٠٤
الفصل الثالث	
قصة الخلق	**١١٢**
بدء الخلق	١١٤
آدم وحواء	١٢٤
الفصل الرابع	
الجنة والجحيم	**١٢٩**
جهنم	١٣٤
الفصل الخامس	
الحلال والحرام	**١٤٠**
بين الشريعة والحقيقة	١٤٤
الفصل السادس	
أسماء الله	**١٥٠**
معرفة الله	١٥٧

الموضوع :	رقم الصفحة
الفصل السابع	
رب واحد ودين واحد	١٦٧
الفصل الثامن	
الغيب	١٧٣
الفصل التاسع	
الساعة	١٧٩
الساعة ساعتان	١٨٠
لقاءالانسان ربه	١٨٢
الصورة البشرية صورة الانسان	١٨٣
القيام لله والقيام بالله	١٨٥
التجلى الذاتى	١٨٧
انما نعرف الله بأفعاله	١٩١
الابد زمن له نهاية	١٩٤
الفصل العاشر	
البعث	١٩٦
الفصل الحادى عشر	
لا كهنوت	٢٠٢
الفصل الثانى عشر	
المعمار القرآنى	٢٠٦
الفصل الثالث عشر	
لماذا اعجاز القرآن ؟	٢٠٨
خاتمة	٢١٢